جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع الكتاب والسنة



# تربية النفس الإنسانية

## في ظل القرآن الكريم

رسالة "ماجستير" مقدمة إلى قسم الدراسات العليا الشرعية

من

أحمد محمد يحيى المقري
الطالب بفرع الكتاب والسنة



بإشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور

الشيخ محمد محمد أبو زهو



١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

## شكـر وتقديـر

أشكر الله تعالى أولا على ما أولانى من جزيل نعمه ، وأسبغ على من واسع فضله وكرمه .

ثم اعترافا بالجميل ، وانطلاقا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله "(1) ، أقدم عظيم شكرى وجزيل امتنانى لكل من بذل جهده فى تقديم النصح والتوجيه الى ، وأخص بالذكر أستاذى الجليل المشرف على هذه الرسالة صاحب الفضيلة العلامة الأستاذ الدكتور " **محمد محمد أبو زهو** " فانه قد بذل معى جهدا كبيرا فى ارشادى وتوجيهى ، وفتح لى صدره الرحب ، وغمرنى بفيض علمه وكرمه ، وفسح لى من وقته فى بيته وفى المسجد الحرام فجزاه الله عنى خير الجزاء ومد فى عمره ونفع به المسلمين . كما أقدم خالص الشكر لكل من أسدى الى معروفا فأرشدنى الى مصدر أو أعارنى كتابا أو أسهم بأى عون مادى أو معنوى .

ولن أنسى فى هذا المقام فضيلة أستاذى المرحوم الدكتور محمد أمين المصرى ، وفضيلة أستاذى المرحوم الدكتور عبد العظيم الغباشى ، فقد حظيت بالتلقى عنهما والدرس عليهما فى السنة المنهجية ، كما حظيت بارشادهما وتوجيهما . أسأل الله تعالى أن يتغمدهما بواسع رحمته ، ويسكنهما فسيح جنته .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لعمادة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز والقائمين عليها ، لما لمسناه من حسن المعاملة ، ولما قدموه من عون . أسأل الله تعالى للجميع حسن الجزاء فى دار المثوبة ، فهو وحده ولى ذلك والقادر عليه ، والحمد لله رب العالمين .

---

(1) رواه أبو داود ـ كتاب الأدب ج ٤ ص ٢٥٥ والترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح ـ كتاب البر والصلة ج ٤ ص ٣٣٩ وأحمد ج ٢ ص ٢٨٥ ، وغيرها .

## المقدمـــة :

الحمد لله الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، أحمدك اللهـــم حمدا يوافى نعمك ويكافىء مزيدك ، حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ،

لك الحمد أن وفقتنى للاستظلال بوارف ظل كتابك ، المنزل لهدايـــة خلقك ، على خاتم أنبيائك ورسلك ، أسألك اللهم أن تفتح لى أبواب حكمتك ، وتنشر على من خزائن رحمتك ، وأسألك أن تصلى وتسلم وتبارك على عبدك ونبيك ورسولك سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم ، والقلب الرحيم ، من أرسلتـــه رحمة للعالمين ، وهديت به الى الحق المبين ، وشرحت به صـــــــدور المؤمنين ، وقمعت به فلول الكافرين ، من أرسلته شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وأنزلت عليه الفرقان ليكون للعالمـــين نذيرا ، ( كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، الا تعبدوا الا الله إننى لكم منه نذير وبشير (١) ) ، ( قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم (٢) ) .

اللهم صلى وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آلــــه الطاهرين وأصحابه أجمعين الذين اقتبسوا من مشكاة أنواره ، هديـــه من أقواله وأفعاله ، وانطلقوا ينشرون الهداية بين الأمم ، من عرب وعجم ، هداهم الله وهدى بهم ، وأرغم بهم أنوف أعدائهم ، ( أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب (٣) ) رضى الله عنهم وعلى من نهج نهجهم واتبع

---

(١) هــود الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) الزمر الآية ١٨ .

سبيلهم الى يوم الحساب .

أما بعد :

فان البشرية منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا قد عرفت منهجين للتربية لا ثالث لهما :

أحدهما : المنهج الالهى الذى أنزله الله على أنبيائه ورسله ليبينوا للناس ما نزل اليهم .

والثاني : المنهج الأرضى على اختلاف أنواعه ، وتعدد أغراضه ، تبعا لتصورات الناس لطبيعة الحياة والانسان ، ولطبيعة الفرد والمجتمع ، فمن نظرة ترى الانسان على أنه روح فحسب فتسلك به سبيل الرهبنة وتعذيب الجسم تاركة الحياة والأحياء وراءها ، وأخرى ترى الانسان جملة من الغرائز والشهوات يجب اشباعها ، وثالثة تراه فردا فى قطيع أشبه ما يكون بالحيوان ، ورابعة تجعله سيدا مطلقا على هذا الكون لا يصده عن رغائبه صاد ، ولا يقف دونه حائل ، من عقيدة أو خلق أو مصلحة لأى انسان .

والقاسم المشترك بين هذه التصورات جميعا هو فقدان التوازن والاعتدال ، شأن كل منهج من مناهج البشر القاصرة .

من هنا كانت الحاجة ماسة الى معرفة منهج الله فى مجال التربية ، بل وفى كل مجال من مجالات الحياة . وأريد بالمعرفة لهذا المنهج أن يعيش الانسان به وله ، ويجنى ثماره ، ويذوق حلاوته فى واقع الحياة .

ولا يخفى ما كانت عليه حال البشرية ، قبل البعثة النبوية ، من بعد عن هدى الرسالات السماوية ، فقد كان الشرك مهيمنا على حياة الناس والظلم فاشيا ، والجهل عاما ، والفساد ظاهرا ، والفسوق منتشرا ، ولم يكن لهم عاصم من دين أو خلق ، ولا رادع من نظام ، ولا وازع من وعى أو مروءة ، عالم

تحكمه شريعة الغاب ، يأكل القوى فيهم الضعيف . فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى والنور ، دعا الى التوحيد وقاوم الظلم ، وأباد الجهل ، وأزال الفساد من الأرض ، وربى النفوس تربية فريدة من نوعها ، سالكا بها سبيل ربها المستقيم ، نائيا بها عن السبل المؤدية الى الجحيم قال تعالى : ( وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون )(1) وما هى الا فترة قليلة فى حساب الزمن استطاع فيها المربى الحكيم صلوات الله وسلامه عليه أن يكون من عرب الجزيرة بهذه التربية أمة تحمل رسالة الهدى الى العالمين ، وتنشىء حضارة لم يسبق لها مثيل ، وبهذه التربية القرآنية تحولت هذه الأمة من الفرقة الى الوحدة ، ومن الضعف الى القوة ، ومن القبلية المتناحرة الى الأخوة المتآلفة ، فكانت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . ذلكم هو سر التربية القرآنية فى تهذيب النفوس وتقويم السلوك .

ان القرآن الكريم كتاب هداية وتربية ، وكتاب تشريع وخلق ، أخرج الله به الناس من ظلمات الوثنية الى نور العقيدة الصحيحة الصافية ، من عبادة غير الله الى عبادة الله وحده ، من الاحتكام الى طواغيت الأرض الى الاحتكام الى رب الأرض والسماء ، عنى بالنفس الانسانية عناية عظيمة بجميع جوانبها من جسم وعقل وروح ، فأعطى لكل زاده ، موزونا بميزان لا يخيس ، مضبوطا بضوابط دقيقة فكان التوازن والاعتدال ، وهنا يكمن الكمال فى منهج الله المتعال .

وكما عنى بالفرد باعتباره اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، عنى أيضا بالجماعة باعتبارها القاعدة الصلبة التى يقوم بها المجتمع الانسانى الفاضل مجتمع

---

(1) الأنعام الآية ١٥٣ .

نظيف العقيدة ، نظيف المشاعر والسلوك ، يسوده العدل والمساواة ، ويكتنفه الحب والمؤاخاة .

ولقد كانت تربية القرآن شاملة للعقيدة والعبادة ، والمعاملة ، فأوجدت أمة متعاونة متآخية ، تعبد ربها ، وتجاهد فى سبيل عقيدتها ، وتدعو الأمم بسلوكها وأفعالها قبل أن تدعوها بأقوالها ، فهدى الله بها ، ومكن لها ، وأبدلها بعد خوفها أمنا ، وبعد فقرها غنى .

وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى وقد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة ، واقتفى خلفاؤه من بعده منهجه فى تربية الأمة ، بالتربية القرآنية ، وطبقوا ذلك فى سلوكهم ، فى حربهم وسلمهم ، وعلموا البشرية كلها مكارم الأخلاق ومحاسن العادات .

ثم أتى على الناس حين من الدهر قلت عنايتهم بالقرآن الكريم ، فأصابهم ما أصاب غيرهم من نزاع وخصام ، وظلوا يتخبطون فى الظلام ، مبتعدين عن هدى سيد الأنام .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ ∴ والماء فوق ظهورها محمول

فهداية الله بين أيديهم ، يرتلون القرآن بألسنتهم ، ويحفظونه فى صدورهم ، تركوا هدايته وأخذوا يبحثون عن الهدى فى مناهج الشرق والغرب ، وما علموا أن من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، واستمر الحال على هذا الانحدار ، والناس فى غفلة معرضون ، ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون )(1) .

وجاء العصر الحديث ، بخيله ورجله ، واكتشافاته العلمية ، وتوالت النظريات فى شتى المجالات فاتجه المسلمون اليها ، وعولوا عليها ، وظنوا

---

(1) الأنبياء الآية ٢ .

أنهم على الخبير وقعوا ، وما عرفوا أنهم الى الحضيض أسرعوا ، تركوا القرآن وراءهم ظهريا ، فأصبحوا فى مؤخرة الأمم نسيا منسيا ، هذا والقرآن بين أيديهم صالح للتطبيق فى العمل ، قادر أن يبلغ بالانسان غاية الأمل ان وُجد الدعاة المخلصون ، والعلماء العاملون .

ولما كان من فضل ربى ونعمته ، أن يسر لى المقام بجوار بيته ، وشرفنى بالانتساب الى طلب العلم ، ومكن لى من الالتحاق بقسم الدراسات العليا الشرعية " فرع الكتاب والسنة " بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، وكان من الواجب على الطالب بعد اجتياز الدراسة المنهجية أن يقدم بحثا علميا ينال به درجة التخصص الأولى " الماجستير " قمت بعون الله وتوفيقه باختيار موضوع بحثى وأسميته " تربية النفس الانسانية فى ظل القرآن الكريم " ثم استخرت الله تعالى فيه ، فاطمأنت نفسى اليه ، وقدمته الى مجلس القسم الموقر فحصلت الموافقة عليه .

وكان الحافز لى على اختيار هذا البحث ما يلى :

أولا : كنت أثناء تلاوتى لكتاب الله تعالى أقف عند كثير من آياته ، أجد فيها دعوة الى الايمان بالله والتوجه اليه عن طريق التفكر فى مخلوقاته ، وتوجيهها الى عبادة الله وحده ، وحثا على الأخلاق الفاضلة ، وتحذيرا من مساوئ الأخلاق ، كما لاحظت عناية فائقة بالنفس الانسانية أمدها الله بنعم الأرض والسماء ، فمن نعمة الايجاد الى نعمة الامداد الى نعمة الحفظ ثم نعمة الهداية والتوفيق كل هذا وغيره لفت نظرى الى أن فى القرآن الكريم منهجا كاملا شاملا لتربية النفوس وتهذيبها .

ثانيا : من دراستى لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحياة أصحابه الكرام رضى الله عنهم وجدت أن تلك الزمرة المؤمنة التى فتح الله بها البلاد وهدى على يدها العباد هى من تربية هذا القرآن حيث

كانت تطبق أوامره ونواهيه في جميع جوانب حياتها .

ثالثاً : بالنظر الى ما عليه الناس اليوم من بعد عن منهج الله ، وجهل بهداية القرآن وتوجيهاته ، وما عليه كثير من المسلمين من شعور بالنقص دفعهم يلهثون وراء النظريات الفلسفية في مجال التربية وغيرها ، وما عليه معظم المربين من عدم ادراك لأبعاد هذه النظريات ، وما قد ينتج عنها من انحلال وفساد ، وبعد عن هدى خير العباد .

هذه الأسباب وغيرها دفعتني الى اقتحام هذا الباب غير هياب ولا مرتاب مستعينا بالله العزيز الوهاب ، وقد شجعني على ذلك فضيلة أستاذى العلامة الدكتور محمد محمد أبو زهو فقد ذلل لى كل الصعاب مد الله في حياته ونفع به المسلمين .

أما منهجى في هذا البحث فقد رتبته على مقدمة ، وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة ، فقد ضمنتها الخطبة وعرضا موجزا عن حال البشرية وتخبطها في مجال تربية النفوس تبعا لاختلاف نظرة الناس الى الانسان والحياة ، وعرضت لمنهج الله في كتابه وكيف أنقذ الله به الانسانية من الضلالة ، ثم تطرقت الى ارتكاس البشرية وانحرافها عن الطريق السوى وتخبطها في ظلام النظريات الفلسفية وبعدها عن الهدى والنور .

كما ذكرت فيها أسباب اختيارى لهذا البحث ، ومنهجي فيه ،

وأما الباب الأول : فيشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : ذكرت فيه المباحث التالية :

التربية ومفهومها ، نشأة التربية ، أهداف التربية ، وسائل التربية ، وذكرت منها القدوة ، الترغيب والترهيب ، القصص القرآنى ، الحوادث .

والفصل الثاني : عقدته لبيان معرفة النفس الانسانية ، وتعرضت لتعريفها لغة وشرعا ومرادفاتها ، الروح ، العقل ، وتقسيماتها اللوامة ، الأمارة ، المطمئنة .

والفصل الثالث : كان لبيان معرفة الانسان ومكانته فى الأرض ، وقارنت بين نظرة الماديين وبين نظرة الاسلام اليه ، وتطرقت الى معنى الاستخلاف لآدم عليه السلام .

والفصل الرابع : ذكرت فيه بعض الغرائز المختلفة لدى الانسان وأوضحت فيه كيف أن الاسلام نظم الغرائز ولم يكبتها ، فلم يتركها وشأنها بل هذبها وأصلحها ، وضربت لذلك ثلاثة أمثلة غريزة الجنس ، غريزة الادخار ، غريزة الخوف .

والفصل الخامس : عقدته لبيان معنى " الاسلام دين الفطرة " تعرضت فيه لمعنى الفطرة لغة واصطلاحا وذكرت أن صاحب الفطرة النقية السالمة من عوامل الانحراف يعرف ربه بآياته ومخلوقاته ، وضربت لذلك مثلا بقصة ابراهيم عليه السلام مع قومه .

وأما الباب الثانى : فيشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عقدته لبيان الحالة الاجتماعية قبل الاسلام وذكرت فيه الأمم التالية :

اليهودية ، النصرانية ، الفارسية ، الصينية ، الهندية ، وختمته بالحياة عند العرب .

والفصل الثانى : كان بعنوان " نظرة فى التشريع السماوى عموما وأثره فى التربية " ذكرت فيه أن الاسلام دين الأنبياء والمرسلين جميعا وأن شرع الله لا يعرف الا بواسطة الرسل عليهم السلام ، وذكرت فيه أن التشريع السماوى ضرورة ملحة لحياة البشر ، كما عرجت

لأسس التشريع الاسلامى ثم أثر التشريع السماوى فى تربيـــة النفوس .

<u>والفصل الثالث</u> : عقدته للمقارنة بين التشريعين السماوى والوضعى فى مجـال تربية النفوس وقد أجملت الفرق بين التشريعين فى الفقرا ت التالية :

١ ـ التشريع السماوى دين وامتثاله عبادة لله بخلاف غيره .

٢ ـ التشريع السماوى كامل شامل أحاط بشئون الانســـان كلها بخلاف غيره .

٣ ـ التشريع السماوى يدعو الى الفضيلة ويحميها بخلاف غيره .

٤ ـ التشريع السماوى يربط الانسان بالله بخلاف غيره .

ثم عرجت على مصادر التشريع الاسلامى : الكتـــاب ، السنة ، الاجماع ، القياس .

وأما الباب الثالث : فكان بعنوان " دور القرآن الكريم فى تربية النفـوس وتهذيبها " ويشتمل على ثلاثة فصول :

<u>الفصل الأول</u> : فى العقيدة وأثرها فى التربية ، وفى هذا الفصل استعرضت بعضا من الآيات الدالة على وحدة الألوهية من آيـــــات خلق الانسان وتكوينه وآيات التدبير وآيات الكون فآيات النعم ، وبينت كيف أن كل آية من هذه الآيات فيها دليل واضح عــلى الايمان بالله ، وقد يشعر القارئ فى هذا الفصل بالتكرار ، لكنه ليس من التكرار الممل لأن الآيات الكريمة تتكرر فيهـــا الأدلة المختلفة ولكن بأساليب مختلفة ولا تخلو آية من معـنى جديد بأسلوب جديد . كما تطرقت الى بقية أركان الايمان: الملائكة ، الكتب ، الرسل ، اليوم الآخر ، القدر خـــيره وشره ، وأثر كل فى تربية النفوس .

الفصل الثاني : وهو بعنوان "العبادة وأثرها في التربية" ، وفي هذا الفصل عرضت لتعريف العبادة لغة وشرعا ، وشمولها لأعمال الانسان في الحياة ، ثم عرجت الى بعض أنواع العبادة ، وأهمها دعائم الاسلام :

الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج ، وأثر كل في تربية النفس الانسانية .

الفصل الثالث : وهو بعنوان "التربية الأخلاقية" وفي هذا الفصل عرضت لتعريف الخلق لغة واصطلاحا ، وذكرت بعضا من الأخلاق الفاضلة التي دعا اليها القرآن الكريم وهي : الصدق ، التواضع ، كظم الغيظ والعفو ، الايثار ، السباق الى الخير ، البر والاحسان ، الصبر ، العدل والأمانة ، كما عرجت على قواعد الأدب وذكرت منها : الاستئذان ، التحية ، غض البصر ، أدب الجلوس ، القول الحسن ، المناجاة بالبر والتقوى . كما تطرقت الى الأخلاق المذمومة التي نهى عنها القرآن الكريم وذكرت منها : الكذب ، قول الزور ، اليمين الكاذبة ، الغيبة ، التجسس ، الهمز واللمز ، القذف ، الرياء ، الترف ، الكبر والعجب ، وبينت الأثر المترتب على فعل الخلق الحسن والامتناع عن الخلق القبيح في النفوس البشرية .

أما الخاتمة : فقد جعلتها لذكر النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث ولا أدعي بأن عملي هذا قد حاز الكمال لكنه جهد المقل ، وحسبي أني قد بذلت جهدي ، فما كان من توفيق للصواب فمن الله ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان . ( ان أردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ) .

ولنشرع بذكر المقصود بعون الله المعبود ، له المن والنعمة ، وبيده التوفيق والعصمة وبه نستعين .

... ... ...

# الباب الأول

■ ويشتمل على خمسة فصول :

( ١ ) التربية .
( ٢ ) تعريف النفس الانسانية .
( ٣ ) الانسان ومكانته فى الأرض .
( ٤ ) الانسان والغرائز المختلفة فيه .
( ٥ ) الاسلام دين الفطرة .

# الفصل الأول

## التربية ومفهومها

قبل أن نعرض لتعريف التربية ، ونستعرض بعض أقوال الباحثين من قدماء ومحدثين حولها ، نود أن نقول ان الغرض من بحثنا في هذا الفصل هو الوصول الى مفهوم التربية في القرآن الكريم . وما سنذكره من أقوال الباحثين لا يعني أنه ينطبق مع مفهوم التربية الاسلامية ، بل غرضنا من ذكره ابراز المعاني والمثل التي حاول الباحثون أن يصلوا اليها ، وكلفوا أنفسهم عنتا ومشقة في الدراسة والبحث ، ومع هذا الجهد لم يصلوا الى مفهوم التربية الحقيقي التي وصل اليها الاسلام ، وبضدها تتميز الأشياء .

### تعريف التربية :

التربية لغة : هي انشاء الشيء حالا فحالا الى حد التمام[1] . يقال رب زيد الأمر ربا من باب قتل . ورباه اذا ساسه وقام بتدبيره ، ومنه قيل للحاضنة ربة[2] .

والتربية في اصطلاح الباحثين جاءت بصيغ مختلفة بحسب تصور كل باحث .[*]

فهي عند أفلاطون[3] : اعطاء الجسم والروح كل ما يمكن من الجمال وكل ما يمكن من الكمال .

---

(١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني .
(٢) المصباح المنير .
(*) نقلا من كتاب روح التربية والتعليم للأستاذ محمد عطية الأبراشي ص ٥ ط الحلبي بالقاهرة .
(٣) هو فيلسوف من فلاسفة الاغريق القدماء ولد سنة ٤٢٧ ق.م وتوفي سنة ٣٤٦ ق.م ومن تلاميذه أرسطو .

وهى عند سيمون [1] : الطريقة التى بها يكون العقل عقلا آخر ويكون القلب قلبا آخر .

والتربية عند أرسطو [2] : اعداد العقل لكسب العلم كما تعد الأرض للنبات والزرع .

وهى عند ملتون [3] : التى تجعل الانسان صالحا لأداء أى عمل عاما كان أو خاصا بدقة وأمانة ومهارة فى السلم والحرب .

وعند بستالوتزى [4] : التربية تنمية كل قوى الطفل تنمية كاملة متلائمة .

أما هوبرت [5] : فهى عنده اعداد الانسان ليحيا حياة كاملة .

وهى عند صلى [6] : تهذيب القوى الطبيعية للطفل كى يكون قادرا على أن يقوم حياة خلقية صحية سعيدة .

وعند كانت [7] : التربية هى الوصول بالانسان الى الكمال الممكن .

وهى عند جيمزمل [8] : اعداد الفرد ليسعد نفسه أولا وغيره ثانيا .

---

(١) هو فيلسوف من ساسة فلاسفة الفرنسيين ولد سنة ١٨١٤م وتوفى سنة ١٨٩٦م .
(٢) من أكبر فلاسفة الاغريق كان مربيا للاسكندر المقدونى وقد تتلمذ على أفلاطون ولد سنة ٣٨٤ ق م .
(٣) من أكبر شعراء الانجليز وأئمتهم فى التربية ولد سنة ١٦٠٨م وتوفى سنة ١٦٧٤م وله رسالة فى التربية .
(٤) من قادة التربية فى سويسرا ولد سنة ١٧٤٦م وتوفى سنة ١٨٢٧م وعمل على تحسين أحوال الفقراء بتعليمهم .
(٥) هو فيلسوف تربوى انجليزى ولد سنة ١٨٢٠م وتوفى سنة ١٩٠٣م .
(٦) هو فيلسوف انجليزى من فلاسفة التربية وعلم النفس .
(٧) هو فيلسوف ألمانى ولد سنة ١٧٢٤م وتوفى سنة ١٨٠٤م ، وله ثلاث رسائل عن العقل والفكر والأطفال .
(٨) هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٧٧٣م وتوفى سنة ١٨٣٦م .

وعند هاريس : هى اعداد الفرد اعدادا يمكنه من مساعدة أبناء أمتـــه ، وفى نظير تلك المساعدة يجد مساعدة منهم .

والتربية عند هيل : هى التى تحفظ الصحة البدنية والقوة الجسمية للتلميذ ، وتمكنه من السيطرة على قواه العقلية والجسمية وتزيد فى سرعة ادراكه وحـــدة ذكائه ، وتعوده سرعة الحكم ، وتقوده الى أن يكون رقيق الشعور ، يؤدى واجبه بذمة وضمير .

والتربية لدى الباحثين المعاصرين تكاد تكون امتدادا لذلك التصور لـــدى الباحثين القدماء من أقطاب التربية فى العالم الغربى مع اختلافه فى التعبـــير أحيانـــا .

يقول أحد الباحثين المعاصرين (٩) : "التربية هى المؤثرات المختلفة الـــتى توجه وتسيطر على حياة الفرد " ثم يعقب على هذا التعريف قائلا : " هـــذا التعريف قديم نادى به أساتذة وفلاسفة من جميع العصور الغابرة — نادى بـــه القدماء ، فلخصوه فى العبارة اللاتينية الموجزة " انما الحياة مدرسة " .

ويقول باحث آخر (٤) : " التربية عملية تعليم وتعلم لأنماط متوقعة من السلـوك الانسانى " ويعقب على ذلك بقوله : فهى تتعلق بتعليم أفراد المجتمع مـــن الجيل الجديد كيف يسلكون فى المواقف الاجتماعية المختلفة — على أســـاس ما يتوقعه منهم المجتمع الذى ينشئون فيه ، ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك الانسانى وتنيمته وتطويره ... الى أن قال : ومن هنا يتضح أن التربية عمـــل انسانى مادتها هى الأفراد الانسانيون — أى أفراد الانسان لأنه لا يجمع عـــلى انسانيين فهو اسم جنس جمعه ناس وانس — وحدهم دون غيرهم من الكائنـــات الحية الأخرى أو الجامدة .

---

( ٤ ) هو صالح عبد العزيز فى كتابه التربية وطرق التدريس.
( ٤ ) دكتور محمد لبيب النجيحى فى كتابه الأسس الاجتماعية للتربية ص ١٩ .

ويقول الأستاذ محمد عطية الأبراشي : والحق أن كل تعريف من هذه التعريفات يحمل في ثناياه مثلا من المثل العليا التي يبغي المربون تحقيقها ، والوصول اليها . ثم قال : وفي نظرنا أن التربية هي اعداد المرء ليحيا حياة كاملة ، ويعيش سعيدا محبا لوطنه ، قويا في جسمه ، كاملا في خلقه ، منظما في تفكيره ، رقيقا في شعوره ، ماهرا في عمله ، متعاونا مع غيره ، يحسن التعبير بقلمه ولسانه ، ويجيد العمل بيده .(١)

ويبدو لي أن ما توصل اليه الباحثون من قدماء ومعاصرين كان محاولة مشكورة غير أن أحدا منهم لم يصب كبد الحقيقة ، أما من كان منهم قبل الاسلام فليس عليه من حرج أو عتاب ،وأما أولئك الذين وجدوا بعد ظهور شمس الهداية الربانية وذهبوا يتخبطون في الظلم ولم يكلفوا أنفسهم البحث عن الحقيقة ولو بالاطلاع على الأقل على ما جاء في الاسلام من قواعد التربية السليمة ومن منهج فريد في القرآن لهذا الجانب بالذات فاني أقول لهم على رسلكم أيها الناس هلموا الى هذا المعين الذي لا ينضب فاغترفوا منه ما يشفي غليلكم ويروي ظمأكم . ولست بحاجة الى أن أعلق على كل قول من الأقوال السابقة لعدم الفائدة المرجوة من ذلك ، ولكني أقول :

ان القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه جاءنا بتعريف للتربية في غاية من الايجاز وغاية من الشمول هذا التعريف موجود في كلمتين مكونتين من اثنى عشر حرفا هي " يزكيهم ، ويعلمهم " في قوله تعالى : ( هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة )(٢) . فالآية الكريمة تشير الى التربية بشقيها الداخلي والخارجي . فالتربية بهذا المفهوم هي عملية تعليم وتزكية " وبذلك علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه الكتاب والحكمة ، وطبعهم على التخلق بأخلاقهما ، ونشأهم ودربهم تدريبا جسميا وروحيا وعقليا ، فحول مجرى حياتهم وطريقة معاملاتهم ، كما غير تصوراتهم ، ونظرتهم الى الفرد والمجتمع والى الدنيا

---

(١) روح التربية والتعليم ص ٦ .
(٢) الجمعة الآية ٢ .

والآخرة . فكانوا خير أمة أخرجت للناس منذ وجد الانسان على هذه الأرض . قال تعالى : ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ) (١) ، وقال تعالى : ( وكذلك جعلناكم أمة وسطا ) (٢). ووسط الشيء أعلاه وأفضله وأحسنه .

ان القرآن الكريم عنى بالنفس الانسانية عناية فائقة ، عنى بالعقل كما عنى بالجسم والروح معا لأن التعليم يحدث مع التزكية فى آن واحد ليس هناك فصل بينهما ، وهذه العناية الربانية قائمة بالصغير والكبير ، بالغنى والفقير ، بالراعى والرعية بالرجل والمرأة ، فالشخص الجلف الذى كان يتلمظ حقدا ويعض أنامله غيظا ، بغضا لهذا الدين وعداء للمسلمين ، ما ان استمع الى آيات الله تتلى عليه ، والى دعوة رسول الله الهادية تطرق قلبه حتى أسلم ، واستسلم ، أسلم نفسه وقلبه لله ، واستسلم لأوامر الله ، فأصبح شخصا آخر ، تغيرت حاله ، وتبدلت طباعه ، فمن الجلافة والغلظة ، الى الوداعة والرقة ، ومن الحقد والبغضاء الى الخير والحب والمودة ، ومن حب الذات والسطو والنهب، الى الايثار بالمال والنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

وما ذلك كله الا لكمال منهج التربية فى القرآن الكريم وشموله ، ومعالجته لجوانب النفس الانسانية المختلفة ، من نزعات ورغبات وعواطف وانفعالات .

فالتعليم والتزكية وهما ركنا التربية لا حياة للفرد ولا للأسرة ولا للجماعة ولا للأمة الا بوجودهما ، لأنه لا حياة الا بسعادة ولا سعادة للنفس الانسانية الا بتطهيرها من داخلها وربطها بمربيها الحقيقى وهو الله تعالى خالقها ومدبر أمرها ، كما أنه لا تكتمل سعادتها الا بتعليمها ما ينفعها فى حياتها من وسائل الكسب وما يؤهلها للاستخلاف فى الأرض . والقرآن الكريم قد تكفل بذلك بالاشارة أو بالتصريح ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم طافحة بذلك

---

(١) آل عمران الآية ١١٠ .
(٢) البقرة الآية ١٤٣ .

وهى الشارحة للقرآن والمبينة لما أبهم والمفصلة لما أجمل .

من هو المربى ؟ :

هو من رب يرب ويطلق الرب على المالك والسيد ، والمدبر والمربى والقيم والمنعم (١) .

والرب هو الله وهو المالك والسيد والمدبر والمربى والقيم والمنعم المتفضل تعالى ذكره وتباركت أسماؤه .

فهو مالك الملك ذو الجلال والاكرام ، خلق ودبر فأحسن تدبيرا ، وربى جميع العالمين بنعمه وأنعم وتفضل بالنعم الجليلة على خلقه الظاهرة والباطنة ، قال تعالى : ( وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ) (٢) .

والربانى منسوب الى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة ، وقيل هو من الرب بمعنى التربية .

والمربى سواء أكان معلما أو والدا يقال له أب لذلك يسمى النبى صلى الله عليه وسلم أبا المؤمنين ، قال تعالى : ( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) (٣) يفهم من كون أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين أنه عليه الصلاة والسلام أب لهم . ويستأنس لذلك بالقرآة الشاذة " وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم " .

" واطلاق الأب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه سبب للحياة الأبدية كما أن الأب سبب للحياة أيضا ، بل هو عليه الصلاة والسلام أحق بالأبوة منه ، وعن مجاهد كل نبى أب لأمته (٤) " .

---

(١) لسان العرب لفظ رب .
(٢) لقمان الآية ٢٠ .
(٣) الأحزاب الآية ٦ .
(٤) تفسير الألوسى : جـ ٢١ ص ١٥٢ .

وكان المربى المعلم أبا لأن الأب اذا كان سببا فى الوجود ودوره معروف فى التربية ، الا أن المعلم يأخذ نفس الأهمية لأنه هذب وأصلح ، ويذكرنى قول بعضهم :

فذاك أب للروح والروح جوهر ∴ وهذا أب للجسم والجسم من صدف

والمربى بهذا المعنى هو الذى يتعهد الولد بالرعاية والتهذيب حتى يبلغ . ويعنى بذاك المربى المعلم وبهذا الوالد . قال الراغب وسمى معلم الانسان أبا ، وقد حمل قوله تعالى: " انا وجدنا آباءنا على أمة " على ذلك أى علمائنا الذين ربونا بالعلم بدلالة قوله تعالى : " ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا "(1) . وقيل فى قوله تعالى (ان اشكر لى ولوالديك) انه عنى الأب الذى ولده والمعلم الذى علمه .

قلت وفى هذا الاستدلال بعد لأن الآية صريحة فى الأبوين اللذين ولداه بدليل الآية نفسها قوله تعالى : ( ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك )(2) فأجمل ذكرهما ثم بين مكانة الأم مؤكدا للتوصية فى حقها خصوصا لذكر ما قاسته فى حمله وتربيته ثم قال أن اشكر لى ولوالديك . ولا يوجد فى الآية ذكر للمعلم . ولعل الراغب رحمه الله أورد العبارة بصيغة التمريض لعدم رضاه عن هذا المعنى ، وكان ينبغى أن لا يوردها .

والتربية أساس النجاح فى الحياة لأن بعض الناس ينشغل عن تربية أبنائه بعمل ما من أعمال الحياة كأن يكون تاجرا مثلا فيجمع المال الكثير ولكنه لا يعلم أنه قد خسر خسارة فادحة من جانب آخر ، ذلك أن الأبناء الذين كبروا دون عناية أبيهم بالتربية والتهذيب سوف يضيعون الثروة التى جمعها أبوهم ، وبذلك يخسر الاثنين معا المال والأبناء ، لهذا كان لابد من عناية الأب بأبنائه والولى بمن ولاه الله عليهم وتربيتهم تربية صحيحة : ( كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ) .

---

(١) الأحزاب الآية ٦٧ .
(٢) لقمان الآية ١٤ .

وقد رفع الاسلام من قدر التربية من حيث كونها اعدادا للفرد الصالح القادر على حمل الرسالة بعد أبيه ليبقى كلمة باقية فى عقبه فتظل راية الدين خفاقة عالية وكلمته مسموعة محترمة ، ولهذا السبب تميز الانفاق على الذرية بتقدير خاص . فعن ثوبان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله . قال أبو قلابة : بدأ بالعيال ، ثم قال وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عياله صغارا يعفهم الله به ، ويغنيهم الله به (١)

فينبغى للآباء أن يصرفوا وجهم نحو أبنائهم . فالانفاق وحده ليس هو الذى عليهم بل عليهم أن يتعهدوهم بالرعاية والتهذيب وتعليم القرآن الكريم لأن فى ذلك الجزاء الأوفى يوم القيامة وقرة العين فى الدنيا .

وروى فى فضل تعليم الأبناء القرآن أحاديث وآثار كثيرة منها ما رواه أبو أمامة رضى الله عنه قال : " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وحثنا عليه ، وقال ان القرآن يأتى أهله يوم القيامة أحوج ما كانوا اليه ، فيقول للمسلم : أتعرفنى ؟ فيقول من أنت ؟ فيقول أنا الذى كنت تحب وتكره أن يفارقك ، الذى كان يشجوك ويذيبك فيقول لعلك القرآن ؟ فيقدم به على ربه عز وجل فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه السكينة ، وينشر على أبويه حلتان لا تقوم لهما الدنيا ، فيقولان لأى شئ هذا ولم تبلغه أعمالنا ؟ فيقول : هذا بأخذ ولدكما القرآن " .(٢)

والولد خير ميراث اذا أحسنت تربيته ، فما يروى عن الامام الصادق رضى الله عنه أنه قال : " ميراث الله من عبده المؤمن ولد صالح يستغفر له " .(٣)

---

(١) الترمذى : باب ما جاء فى النفقة على الأهل ج٤ ص ٣٤٤ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٢) مجمع الزوائد جـ ٧ ص ١٦٠ قال رواه الطبرانى وفيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك ، وأثنى عليه هشيم خيرا وبقية رجاله ثقات .

(٣) مكارم الأخلاق للشيخ رضى الدين أبى الوليد .

وأى عمل يؤدى الى تأديبه فهو أبر عند الله من الصدقة على مالها من قيمة فى الاسلام • فعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع " (١) • وليس الأمر محصورا على تربية الأبناء دون البنات بل الأمر فى حقهن أعظم والأجر أكبر والشارع الحكيم حث على ذلك ورغب فيه • فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة برحمته اياهن • فقال رجل وابنتان يارسول الله ؟ قال وابنتان • قال رجل يارسول الله وواحدة ؟ قال : وواحدة " (٢) • ومازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعقب فى قلوب الناس كراهة البنت بما بينه لهم من عظيم فائدتها • يقول صلى الله عليه وسلم : " من ابتلى من هذه البنات بشيئ فأحسن اليهن كن له سترا من النار " (٣) • [illegible]

[illegible]

والتربية تكون بالحزم المرافق للرحمة والعطف فمن لا يرحم لا يرحم والولد أولى الناس بالعطف والرحمة ولا نعنى بالرحمة التدليل المفسد للطباع ولكنها الرحمة التى ترعى مواهب الابن وتأخذه بالحزم ولا تلجأ الى الشدة لأنها منفرة وقد تحدث فى نفس الطفل عقدا نفسية خطيرة تكون سببا للعقوق والعياذ بالله •

والتربية الحقيقية التى يترتب عليها الثواب من الله تعالى هى ما شملت جوانب النفس الانسانية بالاصلاح والتهذيب • ووسيلتها فى ذلك علم صادق يستهدف رضوان الله تعالى عن طريق العمل المثمر أيا كان نوعه • فالاسلام لا يفرق بين علم وعلم وليس عنده علم دينى وآخر مدنى مفصول عن الدين • فكل علم لابد أن يوصل صاحبه بالله والا فهو الجهل والغفلة • قال تعالى : ( يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) (٥) •

---

(١) الترمذى ج ٨ باب أدب الولد •
(٢) المستدرك ج ٤ ص ١٧٦ •
(٣) رواه مسلم فى كتاب البر ج ٤ ص ٢٠٢٧ رقم الحديث ١٤٧ •
[illegible] •
(٥) الروم الآية ٧ •

ولأن طريقة الاسلام فى التربية هى معالجة الكائن البشرى كله معالجة شاملة لجسمه وعقله وروحه ، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض .

أما أولئك الذين يتصورون أن التربية عملية نمو للفرد الانسانى وأن النمو غاية فى ذاته وأن التربية تعنى بحاضر الطفل لا مستقبله . والطفل عندما يمر بمرحلة من مراحل نموه كان على التربية أن تيسر له سبيل الاستمتاع بهذه المرحلة الى أقصى حد ممكن ، اذ أنه من الخطأ فى تصورهم أن يخضع حاضر الطفل الذى يعيش فيه لمستقبل لا نستطيع السيطرة عليه ،(١) أما أصحاب هذا الرأى فى التربية فهم مخطئون ، ذلك لأن مفهوم التربية بهذا المعنى أن نربى عجولا بشرية ونفسح لها المجال للاستمتاع فى كل مرحلة من مراحل النمو وأى حد من هذا الاستمتاع يعتبر كبتا ، فالطفل فى مرحلة الطفولة يترك سائبا وتهيأ له وسائل الاستمتاع دون قيود أو حدود . والمراهق فى مرحلة المراهقة يترك هملا ليستمتع بكل وسائل الاستمتاع ، والشاب يترك للعبث والمجون بل وتهيأ له وسائل العبث لمجرد الاستمتاع لأنه لا يجوز أن نخضع حاضره لمستقبل لانستطيع السيطرة عليه !! وهذا النوع من التربية هو الذى جنى على الأفراد والجماعات وحطم الأمم والمجتمعات ، وأدى بالتالى الى الذل والانهيار .

ولو أمعنا النظر الى بعض الأمم والشعوب ممن أخذوا بهذا النوع من التربية لوجدنا الغالبية من أبناء هذه الشعوب يئنون أنين الثكالى لما أصابهم من الطعنات القاتلة مما أودى بفتيانهم وفتياتهم الى الحضيض . والدليل على ذلك ما يحدث من هؤلاء الشباب وهم أصحاب الثراء والجاه والسلطان اما يحدث منهم من رفض للحياة التى يعيشونها بأسلوبهم الخاص بلبس الاسمال المقطعة والجلوس على الأرصفة حاسرى الرؤوس حفاة الأقدام شعورهم تكاد تغطى وجوههم كل ذلك تعبير منهم عن الرفض لهذه الحياة الماجنة الخاسرة .

---

(١) الأسس الاجتماعية للتربية للدكتور محمد لبيب النجيحى ط مكتبة الانجلو المصرية ص ٢٠٣ .

"والاسلام لا يقسر النفس الانسانية على ماليس في طبيعتها ، لكنه يعمد الى تهذيب هذه الطبيعة دون كبت لشيء من نوازعها الفطرية ، لأنه لا رهبانية في الاسلام . وبذلك يسعى الى التوفيق الدائم بين أهداف الحياة وضرورات المجتمع ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف على هدف حتى يتم أقصى ما يمكن من السعادة على ظهر الأرض (١) .

... ... ...

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام للأستاذ محمد قطب ص ٨٢ ط الرابعة .

## ■ نشأة التربيــة :

لا يخفى أن القرآن الكريم يشير الى أن التربية نشأت بوجود الانســان الأول ذلك أن الله تعالى : يوجه هذا الانسان من أول لحظة ويعرفــه بالخير والشر منذ بدء الخليقة ، قال تعالى : ( وعلم آدم الأسماء كلهــا ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالــوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ..... وقلنــا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربــا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حــين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطــوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هــم يحزنون ) (١) .

فالآيات الكريمة تبين تعليم الله لآدم وتوجيهه له وتحذيره وزوجه مــن اغواء الشيطان عدو الانسانية ، ونهيه لهما عن الشجرة وتنبيههما الـى أن القرب منها ظلم . ثم تذكر العراك بين الانسان والشيطان ، وانتصار الشيطان فى معركته الأولى مع الانسان . كما تذكر تلقى آدم كلمات من الله قالها فتــاب الله عليه ، ولما كانت الحكمة الألهية قد اقتضت هبوط الجميع الـى الأرض زود الله الانسان بالتوجيه الربانى الذى سيكون نورا يستضىء به فى هــذه الأرض ، وحارسا له من كيد الشيطان ومكره ، وقائدا الى جنة عرضهــا السموات والأرض .

---

(١) البقرة الايات ٣١ — ٣٢ ، ٣٥ — ٣٨ .

( فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) فمن اتبع الهدى فاز ونجا ، ومن أعرض عن هدى الله ضل وخسر ( فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى(٢)) .

اذن فالتربية نشأت منذ وجود الانسان وتوالت توجيهات الله تعالى للبشرية عن طريق رسله ، الذين بينوا للناس ما نزل اليهم من ربهم ، وأوضحوا لهم طريق الهداية ، وحددوا لهم الغاية من وجودهم على الأرض ، وسلكوا بهم في هذه الحياة مسلكا من الأخلاق الفاضلة والقيم الروحية والمثل العليا التى تربطهم بالله على مر الأزمان والأجيال .

كما كانت البشرية بين فترة وأخرى تنحرف عن هذا الخط وتتشعب بها السبل فتضل وتشقى ، لكن الرحيم بخلقه العليم بأحوال عباده ، لم يتركهم يتخبطون فى الظلمات ، فلم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سدى ، بل اقتضت حكمته تعالى أن يرسل بعد كل فترة من الزمن رسولا كما أنه قد يرسل فى زمن واحد عددا من الرسل يرشدون البشرية ويوجهونها الى ربها ويحددون لها أهدافها وغاياتها في هذه الحياة . ومن هنا نعرف أن التربية وجدت بوجود الانسان واستمرت معه على مر الأزمان ، ثم ظهرت نظريات تربوية لدى عدد من الشعوب ، وصار لكل أمة من الأمم منهجها ووسائلها وأساليبها التى توجه بها أجيالها ، تدعى سلامة مقصدها ونيل غاياتها . ولسنا بحاجة الى الدخول فى بحث التربية وتطورها وتاريخها ونظرياتها عند الأمم كاليونان والرومان وأصحاب الأديان كاليهودية والنصرانية والبوذية لأن ذلك سيطوح بنا بعيدا عن موضوع بحثنا ، لكنا سنقصر البحث على ما أردناه وهو تربية النفوس فى القرآن .

---

(١) البقرة الآية ٣٨ .
(٢) طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

## أهداف التربية القرآنية :

### ١ — تحريك العقل الى التدبر والتفكير :

القرآن الكريم يدعو فى كثير من آياته الى التدبر والتفكر فى خلق الله تعالى ، ويوجه القلب البشرى بالتالى الى الايمان من خلال التفكير فى خلق الله المقتضى التسليم بعظمته . قال تعالى : ( ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(١) ، ومتى وصل الانسان الى الايمان بخالق السموات والأرض ربا والها فانه بمقتضى هذا الايمان سيخضع جميع أحواله وتصرفاته أقواله وأفعاله لربه ومولاه .

### ٢ — حماية الفطرة من الانحراف :

لا يخفى أن كل مولود من بنى آدم ولد على الفطرة النقية البعيدة عن الشرك ، قال تعالى : ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم )(٢) وقال عليه الصلاة والسلام "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٣) لذلك كانت مهمة التربية هى حماية هذه الفطرة من الانحراف والزيغ كما أن من مهمة التربية أيضا رد المنحرفين الى جادة الصواب وازاحة ما علق بفطرهم من كدورات التربية الفاسدة والتوجيه المعوج .

### ٣ — الاهتمام بالنشىء من صغره وتعهده بالعناية والرعاية :

لما كانت الأجيال يخلف بعضها بعضا ، ويرثها فى عاداتها وتقاليدها

---

(١) آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) الروم الآية ٣٠ .
(٣) رواه البخارى / الجنائز ص ٨٠ ومسلم / القدر رقم الحديث ٢٢ .

وقيمها ، ويتأثر الجيل اللاحق بمن سبقه ، كانت العناية بالنشئ الجديد في الاسلام فائقة ، تبدأ بالحث على الاكثار من النسل ، وتبين الهدف من ذلك وهو مباهاة الأمم ومكاثرتها يوم القيامة ، قال عليه الصلاة والسلام " تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة (١) " ثم حث على وقاية النفس والأهل من النار ، والأولاد من الأهل ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٢) ) وميزان التفاضل ليس هو الذكورة أو الأنوثة بل الكل في ميزان التربية القرآنية وفي عدل الله وثوابه وعقابه سواء ، قال تعالى : ( انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض (٣) ) وقال تعالى : ( ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (٤) ) ، والرجل الصالح يحفظ في ذريته ، قال سعيد بن المسيب لابنه لأزيدن في صلاتى من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا قوله تعالى ( وكان أبوهما صالحا (٥) ) قال ابن كثير في تفسير الآية فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم الى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن والسنة (٦) .

فالولد أمانة بين يدى المربين يتقاضاه الاجتهاد في صيانتهم له بالتربية الصالحة ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان من أمنيتهم أن يرزقهم الله ذرية صالحة ، فزكريا عليه السلام يقول : ( رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ... (٧) ) وابراهيم عليه السلام يقول : ( رب هب لى

---

( ١ ) الحديث ضعيف وله شواهد أنظر كشف الخفاء ص ٣١٩ .
( ٢ ) التحريم الآية ٦ .
( ٣ ) آل عمران الآية ١٩٥ .
( ٤ ) النساء الآية ١٢٤ .
( ٥ ) الكهف الآية ٨٢ .
( ٦ ) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠٦ .
( ٧ ) آل عمران الآية ٣٨ .

من الصالحين فبشرناه بغلام حليم [(١)] .

وعناية الاسلام بتربية النشىء على الرجولة والخشونة وقوة النفس يتجلى فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ارموا واركبوا وان ترموا أحب الى من أن تركبوا [(٢)] " ، " من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو قد عصى — وفى رواية النسائى فهى نعمة كفرها أو قال كفر بها [(٣)] " . وفى خطاب عمر لولاة الأمصار " أما بعد : فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، ويقول : "ائتزروا وارتدوا وانتعلوا والقوا الخفاف ، وارموا الأغراض ، وألقوا الركب ، وانزوا نزوا على الخيل .. ودعوا التنعم وزى العجم [(٤)] ولا تلبسوا الحرير فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه .. وقال أيضا : " لن تخور قوى ما كان صاحبها ينزع [(٥)] وينزو [(٦)] ، من غير استعانة بالركب " .

ولا يخفى ما فى هذه التوجيهات للنشىء من التدريب على قوة النفس والجسم حتى اذا جد الجد هبوا الى ساحات الوغى مسرعين خفافا وثقالا .

٤ — العمل على توازن طاقات الانسان :

ان الانسان له طاقات توجه نشاطه وحركته ، والاسلام لم يترك هذه الطاقات تطغى بعضها على بعض بل اهتم بها جميعها وأوجد توازنا بينها أعطى طاقة الجسم مجالها فى حدود وأعطى العقل حقه فى التفكير والاختيار ، وأعطى الروح أشواقها وتطلعاتها ، كل ذلك فى حدود مرسومة ، وفى توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر شاهد على ما نقول .

---

(١) الصافات الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) النسائى ج ٦ ص ٢٢٣ .
(٣) رواه مسلم ج ٣ — الامارة ص ١٥٢٣ رقم ١٦٩ .

(٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٣٢ .
(٥) ينزع أى يضع السهم فى القوس ويجيد الرمى ، والنزو الوثوب على الخيل من غير استعانة بالركاب .
(٦) المصدر السابق .

اعتزم ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاغراق فى العبادة بمعنى تغليب الطاقة الروحية على حساب الطاقة الجسمية ، قال أحدهم لا أتزوج أبدا ، وقال الثانى سأصوم الدهر ولا أفطر أبدا ، وقال الآخر سأقوم الليل كله ولا أنام فأنكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال : " أما والله انى أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى "(١) هكذا علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف ينبغى للانسان الحفاظ على كل طاقاته والموازنة بينهما وتلبية كل طاقة على حده كل طاقة تخدم الأخرى والجميع متجه الى الله .

■ **من وسائل التربية فى القرآن الكريم :**

مما لا جدال فيه أن القرآن الكريم كله تربية وتوجيه للنفس الانسانية سواء ما يختص منه بالعقيدة أو بالعبادة ، أو بالأخلاق الفاضلة ، وهو دعوة الى السمو بالنفس الانسانية كى تكون مؤهلة لمهمة الاستخلاف على هذه الأرض ، لهذا كان أسلوب القرآن بما اشتمل عليه من أنواع البيان أرقى أسلوب عرفته البشرية وكان تأثيره فى تهذيب النفوس وتأليف القلوب أروع تأثير شهدته الانسانية ألف الله به أمة وجمع شتاتها فكانت خير أمة أخرجت للناس فانطلقت تحمل مشعل الهداية للعالمين ، حققت للبشرية من المبتكرات العظيمة فى وقت قصير من الزمن ما لم تحققه الأمم فى عشرات القرون ، وما ذلك الا باقامة شريعة الله التى جاء بها هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) البخارى ج ٧ ص ٢ ومسلم ج ٢ / النكاح ص ١٠٢٠ رقم الحديث ٥ .

يقول صاحب كتاب حضارة العرب : " اننا لا نذكر أمة كالعرب ، حققت من المبتكرات العظيمة فى وقت قصير مثل ما حققوا ، وان العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التى سادت العالم ، أقاموا دينا لا يزال تأثيره أشد حيوية مما لأى دين آخر ، وانهم أنشأوا من الناحية السياسية ، دولة من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ، وانهم مدنوا أوربة ثقافة وأخلاقا .. "(١) ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

لذلك نجد القرآن الكريم يستخدم أنواعا عدة من الأساليب لتربية النفس وتهذيبها منها : الدعوة الى الاقتداء بصاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة الذى كان نموذجا حيا وترجمة حقيقية للقرآن الكريم ، ومنها القصص القرآنى ، ومنها الترغيب والترهيب ، ومنها استغلال الحوادث لربط القلب البشرى بالله ، هذه الأساليب وغيرها أردت أن أذكر طرفا منها كنماذج على ما فى القرآن الكريم من الأساليب الناجحة فى هذا المجال فاقت كل الأساليب المستخدمة قديما وحديثا .

## أولا : القدوة الحسنة :

قال تعالى : ( لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا )(٢) فرسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة البشرية مؤهل من قبل الله تعالى ، لذلك قال تعالى : ( وانك لعلى خلق عظيم )(٣) وقال تعالى : ( وانك لتهدى الى صراط مستقيم )(٤) وقال تعالى : ( وما أرسلناك الا رحمة للعالمين )(٥) وصفته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت : " كان خلقه القرآن "(٦) كان صلوات الله وسلامه عليه هاديا الى الله ورحمة مهداه للبشرية

---

(١) حضارة العرب تأليف د . غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٦١٨ ط / ٤ عيسى الحلبى وشركاه .
(٢) الاحزاب الآية ٢١ .
(٣) القلم الآية ٤ .
(٤) الشورى الآية ٥٢ .
(٥) الأنبياء الآية ١٠٧ .
(٦) رواه الشيخان .

فكان رجل التربية والقيادة الحكيمة وتأليف القلوب ، فبنى أمة من قبائل متناثرة متناحرة كان يسودها الخصام والحروب ، وألف بينها فأصبحت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . قادهم فى ساحات الوغى ، وعلمهم الصبر والمصابرة وكيفية الانتصار على النفس ، والاستعلاء على حطام الدنيا ، وتخرج على يده — ان صح التعبير — أولئك القادة الأبطال الذين فتحوا البلاد وهدوا العباد ، كان قدوتهم فى كل أحواله صلوات الله وسلامه عليه ، كان الأب الحنون ، والزوج الرحيم ، والصديق الوفى ، يتفقد أحوال أصحابه ، ويزورهم فى منازلهم ، ويشتغل بهمومهم وقضاء حوائجهم ويمنحهم من عطفه ورحمته ومودته ما يخفف عنهم عناء الحياة وهمومها ، كما كان مثلهم الأعلى فى العبادة والقيادة والرعاية .

اقتدوا به ، وساروا على نهجه ، واتبعوا سبيله فاستحقوا ثناء رب العزة عليهم بقوله : ( محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما )(١) .

وهذه القدوة باقية مدة بقاء الانسان على هذه الأرض يتربى الناس على هديه ويقرأون سيرته فيجدونه الترجمة الحية للقرآن "كان خلقه القرآن" فيؤمنون به نبيا ورسولا ومربيا حكيما ويحققون تلك الصفات فى نفوسهم ويكونون هم أيضا قدوة لأجيال بعدهم . فالطفل لابد له من قدوة حسنة من والديه ومربيه والاسرة لابد لها من قدوة حسنة تشاهدها مثلا أعلى فى حياتها بسلوكها وأخلاقها ، وبذلك تقوم المبادئ الفاضلة التى دعا اليها القرآن فى حياة الناس ، أما أن تكون أقوالا لا تطبق فى الواقع — بمعنى أن الوالد أو المربى

---

(١) الفتح الآية ٢٩ .

أو الداعية الذى يدعو الناس الى فضيلة من الفضائل وهو لا يطبقهـــا ، أو يحذرهم من رذيلة وهو يرتكبها ، فان ذلك يدعو الى السخرية وعـــدم الاستجابة الى شيء مما يدعون اليه .

## ثانيا : الترغيب والترهيب :

استعمل القرآن الكريم الترغيب والترهيب كوسيلة من وسائل التربيـــة وهذه الوسيلة من أروع الوسائل وأنجحها فى أسلوب التربية . ذلـــك أن النفس البشرية تتطلع دائما الى ما يحقق لها السعادة الدائمة وتخشى دائما مما قد يخفيه لها القدر من الشقاء والتعاسة ، والمؤمن هو الـــذى تتحقق فيه صفتا الخوف والرجاء ، الخوف من عذاب الله ، والرجاء فـــى عفوه وغفرانه ، والمؤمن وحده هو الذى يرى أن هذه الحياة جسر يعـــبر منه الانسان الى الآخرة ، لذلك فهو لا يبالى بما أصابه فى هذه الحيـــاة الفانية من خير أو شر ، فان أصابته نعمة شكر ، وأن أصابته مصيبة صبر ، وكل ذلك له فيه خير .

والآيات فى كتاب الله كثيرة ومتكررة تحث على الخير وترغب فيه وتحـــذر من الشر وتوعد بالعقوبة عليه ، قال تعالى : ( هذا بيان للناس وهـــدى وموعظة للمتقين )(١) فالقرآن كله هداية للبشرية وكله مواعظ للذين تفتحــت بصائرهم على تقوى من الله .

فمن الترغيب قول الله تعالى : ( ان المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملـون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمـــان ألحقنـــا بهـــم ذريتهـــم

---

(١) آل عمران الآية ١٣٨ .

وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم ) (١) .

ومن الترهيب قوله تعالى : ( ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، الا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا ) (٢) .

ومنهما معا : ( فاذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ) (٣) . وقوله تعالى : ( فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ) (٤) . وقوله تعالى : ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) (٥) ، وهذا غيض من فيض ، فريا غى كتاب الله مملوءة بهذا النوع ، والقصد هو التمثيل لا الحصر .

**ثالثا : القصص القرآنى :**

لا يخفى ما للقصة من أثر عظيم على النفس البشرية فهى تثير فى النفس المشاعر العاطفية والانفعالات الوجدانية ، وتجعل الانسان يعيش أحداث

---

(١) الطور الآيات ١٧ — ٢٨ .
(٢) النبأ الآيات ٢١ — ٣٠ .
(٣) النازعات الآيات ٣٤ — ٤١ .
(٤) الليل الآيات ١٤ — ١٨ .
(٥) الشمس الآيتان ٩ — ١٠ .

القصة ومواقفها وأشخاصها وأمائتها منفصلا لها متأثرا بأحداثها ، ولست أريد أن أتحدث عن القصة وأنواعها وأهدافها ، لكنى أقصد الى القصص القرآنى لأبين بمثال واحد كيف كان هذا القصص وسيلة من أنجح الوسائل فى تربية النفوس وتهذيبها وكيف استعمله القرآن الكريم فى التربية والتوجيه .

نذكر على سبيل المثال قصة سحرة فرعون وأثرها فى التربية ، قال تعالى ( وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم وانكم لمن المقربين ، قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا انا الى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين )(١) ، وفى سياق القصة من سورة طه ( قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى )(٢) .

هذه القصة تبين موقفين متقابلين للسحرة فى ساعة واحدة . الأول : وهم خاضعون لفرعون يأتمرون بأمره ويبالغون فى ارضائه طمعا فى المال والجاه " ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم وانكم لمن المقربين" فاستعملوا كل ما أوتوا من المكر بنبى الله موسى عليه السلام وكادوا له بما هيأوه من

---

(١) الأعراف الآيات ١١٣ — ١٢٦ .
(٢) طه الآيتان ٧٢ — ٧٣ .

التخيلات والأوهام فى نفوس المشاهدين " سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم " ، وهم فى هذا الموقف يعتزون بفرعون ويفتخرون بعبادتهم له فيقسمون بعزته ، ( فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون ) (١) .

والموقف الثانى : وقد خروا سجدا لله رب العالمين مؤمنين به تعالى وحده خاشعين بعد أن وقفوا على الحقيقة وانكشف لهم زيف ماكانوا عليه ، وفرعون بقوته وجبروته يهددهم ويتوعدهم بقطع الأيدى والأرجل والصلب لكنهم فى هذه الحالة لم يخضعوا للتهديد ، ولم يستكينوا للوعيد لأن نور الايمان قد أشرق فى نفوسهم ، وبرد اليقين قد لمس شغاف قلوبهم ، فلم يعودوا يرون الا الحق ، ولم يعودوا يؤثرون الا الهدى ، ولم يبق لهم ملجأ من الله الا اليه " والله خير وأبقى " .

ألست ترى معى أيها القارئ الكريم أن هذه القصة فيها دعوة قوية الى الايمان، وتربية على الاستعلاء على الباطل مهما قوت شوكته، وتربية على عزة النفس والاستهانة بكل قوى الأرض المنحرفة عن الله ، وتربية على عدم الخضوع للتهديد والوعيد، وتربية على الثبات على المبدأ الحق وكراهة الباطل والابتعاد عنه ، وتوجيه الى تسليم الانسان أمره الى ربه وخالقه ، وطلب العون منه "ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين " ، هذه هى التربية بالقصة ، وحسبنا هذه القصة كنموذج ، وقصص القرآن كله توجيه ربانى الى المثل السامية ، وتربية على الأخلاق الفاضلة .

<u>رابعا : الحوادث :</u>

لا يخفى ما للحادثة فى النفس البشرية من أثر فهى تهز المشاعر كلها وهى أقدر من غيرها على ايقاظ القلب البشرى وربطه بالله ، ذلك أن من طبيعة

---

(١) الشعراء الآية ٤٤ .

النفوس البشرية التي تعيش في أمن ودعة وراحة واطمئنان عدم الاستجابة السريعة الى تغيير ما ألفته ونبذ ما اعتادته غالبا . أما الحادثة فهي تفرض نفسها على النفوس فتتأثر بها شاءت أم أبت . لذا فالقرآن الكريم يستغل الحوادث في تربية النفوس وتهذيبها ، منها على سبيل المثال غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونذكر بعضا منها وأثر ذلك في التربية :

(١) غزوة بدر ، واختلاف الأصحاب رضى الله عنهم على الغنيمة :

" لا يخفى أن من طبيعة النفس البشرية حب المال ومن طبيعتها النشوة بالنصر وحب الراحة ، وكان من الطبيعي أن يكون الأصحاب متفاوتين في فهم الأمور غير مدركين حقائقها ، كما انهم ليسوا على درجة واحدة من الايمان رضى الله عنهم أجمعين ، لذلك كان من المتوقع أن يقع من بعضهم بعض هنات تنزل بهم عن المستوى الرفيع الذي ينبغي أن يكونوا عليه ، فجاءت الغزوة ، وانتهت بالنصر المؤزر للمسلمين الذين هم قلة في العدد والعدة . وحدث فيها ما حدث من اختلاف على الغنيمة من بعض الأصحاب فنزلت الآيات تقرر أن لا شأن لهم في ذلك وأن أمر الأنفال الى الله ورسوله يضعها حيث شاء ، قال تعالى : ( يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين )(١) .

ثم أعقب ذلك بصفات المؤمنين الصادقين بقوله ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم )(٢) .

---

(١) الأنفال الآية ١ .

(٢) نفس السورة الآيات ٢ ـ ٤ .

وكانت تربية حازمة قطعت دابر الخلاف من جذوره ، واستأصلت كل ما في النفوس من نشوة النصر ذاكرة حال فريق من المؤمنين قبل المعركة ، وكيف كانوا يودون غير ذات الشوكة ثم يذكرهم بالمنن العظيمة من استجابة لاستغاثتهم ، وتطمين قلوبهم ، وانزال السكينة عليهم وتأييدهم بالملائكة والقاء الرعب في نفوس أعدائهم ، وكثرتهم في نظر أعدائهم ، كل هذه المنن وغيرها تذكرهم أن ما قاموا به ليس الا بعون من الله وتوفيقه فليس لهم أن يغتروا وليس لهم أن يختلفوا ، ويلاحظ أن صدر سورة الأنفال أول ما تطالبهم بتقوى الله واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله لأن الايمان الحق يستلزم هذه المعاني بالضرورة ، وبعد أن طهرت النفوس من الطمع في المال ، حثها على بذل المهج في سبيل اعلاء كلمة الله ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار )(١) ثم توعد الفارين من الزحف بغضب الله وسوء المصير في الآخرة ، قال تعالى : ( ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير )(٢) ثم يذكرهم بما حدث منهم من قتل الكفار وانتصارهم عليهم ، انما كان ذلك بارادة الله ( فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم ، ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين )(٣) ، جاءت هذه الآيات فصرفت الغرائز البشرية عن وجهتها وأبدلتها برغبات أسمى منها فحينما تذكرها بربها تضمحل تلك النزعات ، ويخبو الاعتزاز بكل شيء ما عدا الاعتزاز بالله وما عنده ، كانت هذه التربية عملية ميدانية انتزعت كل حرص على الدنيا وبددت منهم كل خلاف ، كانت نتيجة هذه التربية أن هانت عندهم الدنيا وهانت الأموال والأنفس ، وعز الايمان والتقت القلوب وتآخى المؤمنون .

---

(١) الأنفال الآية ١٥ .   ٢- الأنفال الآية/١٦

(٣) نفس السورة الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٢) غزوة أحد :

كانت غزوة أحد احدى المعارك العظيمة فى الاسلام وكان لها من الآثار التربوية أكثر مما كان لغيرها من الغزوات ، وذلك بما حصل للمسلمين ، من الهزيمة الظاهرة ، لكنها فى الحقيقة كانت نصرا عظيما فى النهاية بما أفادته من الدروس العظيمة .

شغل بعض أصحاب الرسول بجمع أسلاب العدو ونزل الرماة من الجبل الذى كان القائد صلوات الله وسلامه عليه قد حذرهم من مفارقة موقعهم فيه فكان العصيان سبب الفشل بعد أن كان النصر منهم قاب قوسين .

قال تعالى : ( ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ) (١) ، كان الابتلاء للمسلمين ، فقتل منهم سبعون رجلا وفر عدد منهم وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهرت بطولات نادرة فى هذه الغزوة كانت حديث الناس وستظل يضرب بها المثل على مر الأجيال .

(٣) غزوة حنين :

خرج المسلمون يوم حنين من مكة وعددهم اثنا عشر ألفا ، فقال قائلهم لن نغلب اليوم من قلة ، اعتزوا بكثرتهم وأعجبوا بقوتهم ، لكن القوى العزيز أراد لهم أن يكونوا أقوياء بقوته معتزين بعزته ، فكان الدرس الذى تلقوه عنيفا كانوا يظنون أن العامل الحاسم هو ما جمعوه من قوة ، وما أعدوه من رجال وعتاد، وغفلوا عن القوة الحقيقية التى كانت معهم فى بدر حين كانوا قلة أمام جيش لجب من صناديد مكة وفرسانها فنصرهم الله تعالى وهزم عدوهم . وفى هذه الموقعة

---

(١) آل عمران الآية ١٥٢ وما بعدها الى الآية ١٧٥ .

انهالت عليهم النبال من شعاب الوادى ومسالكه فأربكتهم وضاقت بهم الأرض ثم ولوا الأدبار . قال تعالى :

(ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ) (١) .

كانت هذه أعظم تربية فى الميدان يردهم الى الله بعد تلقى الدرس ثم يأتى النصر بقوة الله لا بقوتهم فينزل عليهم السكينة فيعودون الى ميدان المعركة وتنزل الملائكة تؤيدهم وتثبتهم ( ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ) (٢) .

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة على أن التربية بالحوادث كان لها أثرها العظيم فى النفوس البشرية .

والحوادث كثيرة سواء فى الحرب أم فى السلم ، وكانت كلها تؤدى دورا عظيما فى مجال تربية النفوس وتهذيبها . والقصد مما ذكرناه هو التمثيل لا الحصر .

... ... ...

---

(١) التوبة الآية ٢٥ .

(٢) نفس السورة الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

## الفصل الثانى

### النفس الانسانيـة

أخذ الباحثون منذ أقدم العصور يتكلمون عن النفس الانسانية وأحوالهـــا ، ولا يزال كثير من العلماء مختلفين حول حقيقتها ولذا تعددت آراؤهم وتنوعـــت مذاهبهم .

غير أن الديانات السماوية التى تحدثت عن العوالم الغيبيـة قد ألقـــت ضوءا على النفس البشرية لا عن حقيقتها وكنهها بل عن وظيفتها فى الحيـــاة . ( واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألســـت بربكم ؟ قالوا بلى )(١) . أى أن وظيفتها فى الحياة هو الايمان بالله ربا وعبادتـــه وحده لا شريك له .

والنفس فى اللغة : الروح . قال ابن سيده . وبينهما فرق . قال أبو اسحاق النفس فى كلام العرب يجرى على ضربين : أحدهما قولك خرجت نفس فلان أى روحه ، وفى نفس فلان أن يفعل كذا وكذا أى فى روعه . والضرب الثانى معنى النفس فيـه معنى جملة الشيء وحقيقته . تقول قتل فلان نفسه ، وأهلك نفسه أى أوقع الهلاك بذاته كلها ، والجمع من كل ذلك أنفس ، ونفوس ومنه قولهم فاضت نفسه ، قـال الشاعر : كادت النفس أن تفيض عليه .•. اذ ثوى حشو ريطـة وبرود(٢) . قـــال ابن خالوية : النفس الروح ، والنفس ما يكون به التمييز . وشاهدهما قوله تعالى : ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى )(٣) . فالنفس الأولى هى التى تزول بـــزوال الحياة ، والنفس الثانية هى التى تزول بزوال العقل ويعبر بالنفس عن الانســـان

---

(١) الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) الريطة والبرود : المراد بها الكفن .

(٣) الزمر الآية ٤٢ .

جميعه ، كقولهم عندى ثلاثة أنفس • وكقوله تعالى : ( أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله )(١) •

وقال بعضهم : الروح هو الذى به الحياة والنفس هى التى بها العقل ، فاذا نام النائم قبض الله نفسه ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح الا عند الموت • قال وسميت النفس نفسا لتولد النفس منها واتصاله بها(٢) •

أما النفس فى الشرع فالمراد بها ذات الانسان روحا وجسما بدليل قوله تعالى : ( فسلموا على أنفسكم )(٣) • وقوله تعالى : ( والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا )(٤) • فالمراد به الذات البشرية أى الجسم والروح ، والخلاصة أن النفس تطلق على ثلاثة معان :

١ — النفس بمعنى الذات الانسانية كلها جسم وروح •

٢ — النفس بمعنى الروح التى تقبض عند الموت •

٣ — النفس بمعنى الجانب المدرك من الانسان وهو العقل •

وهذا القسم الأخير توجه التكاليف الشرعية الى الذات الانسانية بواسطته • اذ التكليف مرفوع عمن لا يعقل •

والعقل به يثاب الانسان إن أحسن ويعاقب ان أساء • قال تعالى : ( ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم )(٥) • وهذا الجانب المدرك فى الانسان هو الذى يميز به الحق من الباطل ، والخير من الشر • قال تعالى : ( ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد )(٦) • قال الفراء : أى عقل ، ثم قال وجائز فى العربية أن تقول : مالك قلب ، وما قلبك معك(٧) • والقلب محل

---

( ١ ) الزمر الآية ٥٦ •
( ٢ ) لسان العرب مادة نفس •
( ٣ ) النور الآية ٦١ •
( ٤ ) النحل الآية ٧٢ •
( ٥ ) البقرة الآية ٢٢٥ •
( ٦ ) سورة ق الآية ٣٧ •
( ٧ ) لسان العرب مادة قلب •

العقل عند الكثير من أهل العلم ، لقوله تعالى : ( أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها )(١) • وقال تعالى عن الكافرين : ( لهم قلوب لا يفقهون بها )(٢) • والقلب محل التدبر والارادة • قال تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها )(٣) • وهو محل الايمان والهداية ، قال تعالى : ( ومن يؤمن بالله يهد قلبه )(٤) ، وهو محل الوجل والاطمئنان ، قال تعالى : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم )(٥) وقال تعالى : ( الا بذكر الله تطمئن القلوب )(٦) •

والتكاليف الشرعية موجهة الى الذات البشرية ولايمكن فهمها وآداؤها الا بواسطة العقل وهو الجزء الهام فى هذه النفس فيه يفكر وبه يتدبر وبه يعمل فما هو هذا العقل؟ •

يقول الامام الغزالى رحمه الله : " العقل هو اسم مشترك يطلق على معان أربعة ينفرد كل منها بمعنى :

١ — الوصف الذى يفارق به الانسان سائر الحيوانات ، وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، قال فيه الحارث المحاسبى : هو غريزة يتهيأ بها لادراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف فى القلب فيستعد لادراك الأشياء •

٢ — هى العلوم التى تخرج الى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، فان الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد •

٣ — علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فان من حنكته التجارب ، وجذبته المذاهب يقال له فى العادة انه عاقل • ، ومن لا يتصف بهذه الصفة يقال انه غبى غمر جاهل •

---

( ١ ) الحج الآية ٤٦ •
( ٢ ) الأعراف الآية ١٧٩ •
( ٣ ) سورة محمد الآية ٢٤ •
( ٤ ) التغابن الآية ١١ •
( ٥ ) الأنفال الآية ٢ •
( ٦ ) الرعد الآية ٢٨ •

٤ ـ أن تنتهى قوة تلك الغريزة الى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها • فاذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث أن اقدامه واحجامه بحسب ما تقتضيه النظرة فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة • وهذه من خواص الانسان التى يتميز بها عن سائر الحيوان (١) •

ويقول ابن حزم رحمه الله : حقيقة العقل انما هى تمييز الأشياء المدركة بالحواس وبالفهم ، ومعرفة صفاتها التى هى عليها جارية على ما هى عليه فقط ، من ايجاب حدوث العالم • وأن الخالق لم يزل ، وصحة نبوة من قامت الدلائل على نبوته ووجوب طاعة من توعدنا بالنار على معصيته ، والعمل بما صححه العقل من ذلك كله • وسائر ما هو فى العالم موجود مما عدا الشرائع ، وأن يوقف على كيفيات ذلك فقط (٢) •

وفى اللغة : العاقل هو الجامع لأمره ورأيه مأخوذ من عقلت البعير اذا جمعت قوائمه ، وقيل العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها • أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه اذا حبس ومنع الكلام •

والعقل التثبت فى الأمور ، والعقل القلب ، والقلب العقل ، وسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى المهالك أى يحبسه • وقيل العقل هو التمييز الذى به يتميز الانسان عن سائر الحيوان • ويقال لفلان قلب عقول ، ولسان سئول ، وقلب عقول فهم (٣) •

والعقل فى عرف الناس : هو قوة قائمة بالانسان فضله الله بها على الحيوان " وليس الانسان فى حساب المعانى السامية الا عقلا ولسانا (٤) " والدليل على أنه صفة قائمة بالانسان قوله تعالى : ( لعلكم تعقلون (٥) ) وقوله تعالى : (أفلم يسيروا

---

( ١ ) احياء علوم الدين ج ١ ص ٨٥ ط المكتبة التجارية بمصر •
( ٢ ) مقاصد الشريعة لعلال الفاسى ص ٦٢ •
( ٣ ) لسان العرب مادة عقل •
( ٤ ) القرآن والطبائع النفسية للدكتور على محمد حسن العمارى ص ٣٥ •
( ٥ ) البقرة الآية ٧٣ •

فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها )(١) ، وقوله تعالى : ( قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون )(٢) .

والعقل الكامل هو الذى يدرك به صاحبه الخير والشر على حقيقتهما ، وهذا الادراك يكون حافزا له على الابتعاد عن الشر والاتجاه الى الخير ، ومع هذا فالادراك وحده لا يكفى ليقال للانسان عاقل ، بل لابد مع الادراك من دين يوجهه وتشريع سماوى يبين الطريق ويرسم معالم الخير . وحينئذ فالعاقل الحق هو الذى يتحكم فى أفعاله ، ويضبطها ضبطا دقيقا ويخضعها لأمر الله ، ويكبح جموح شهواته ويسيطر على عواطفه ويردها الى ميزان الله وهدى دينه وصراطه المستقيم .

والقرآن الكريم شنع على أولئك الذين لا يستعملون عقولهم فيما خلقت له من التفكير فى خلق الله والتدبير فى آيات الله ، قال تعالى : " ان أشر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون "(٣) وقال تعالى : ( لهم قلوب لا يفقهون بها )(٤) وقال عن أهل النار : ( وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير )(٥) .

ويرى بعض العلماء أن العقل علوم ضرورية ، ويرى البعض الآخر أن العقل هو العمل بموجب تلك العلوم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا ، واذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذى لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل انما يسمى به العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم . ولهذا قال أهل النار : ( لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ) ، وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ، ويقصد المنافع دون المضار كما قال الامام أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما : ان العقل

---

(١) الحج الآية ٤٦ .
(٢) آل عمران الآية ١١٨ .
(٣) الأنفال الآية ٢٢ .
(٤) الأعراف الآية ١٧٩ .
(٥) الملك الآية ١٠ .

غريزة • وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء ، كما أن فى العين قوة بهـا يبصر وفى الجلد قوة بها يحس عند جمهور العقلاء "(١)

وقد دعا القرآن الى تنمية العقل فحث على التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وفى آفاق النفس البشرية لمعرفة أسرار الكون وعجائب المخلوقات • قال تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(٢) ، وقال تعالى : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت)(٣) • ويحث القرآن على أخذ العبر ممن سلف من الأمم ، قال تعالى : (قل سيروا فى الأرض ثم أنظروا كيف كان عاقبة المكذبين) •

وقال تعالى فى حق قوم لوط : (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون)(٤) وقال تعالى بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(٥) ثم ضرب مثلا لمن يتخذ وليا من دون الله ، مثله بحشرة ضعيفة اتخذت لها بيتا حقيرا واهنا لا يظلها من الحر ولا يقيها من القر ولا يحميها من عدو فهى لا تنفع شيئا • قال تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)(٦) والشاهد فى قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)(٧) •

وقوة العقل هى التى تعين الانسان على نصرة العدل وكبح جماح الشهوة والغضب ، والى فهم العلم واعتقاد ما يدل عليه ، واندفاع الجسم للعمل بموجبه •

---

(١) فتاوى شيخ الاسلام بن تيمية ج ٩ ص ٢٨٧ •
(٢) يونس الآية ١٠١ •
(٣) الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢٠ •
(٤) العنكبوت الآية ٣٥ •
(٥) نفس السورة آية ٤٠ •
(٦) نفس السورة آية ٤١ •
(٧) نفس السورة آية ٤٣ •

وابن حزم رحمه الله حينما تكلم عن قوى النفس الانسانية : قال : ومنها قوة العقل التي تعين النفس المميزة على نصر العدل وعلى ايثار ما دلت عليه صحة الفهم ، وعلى اعتقاد ذلك علما ، وعلى اظهار باللسان ، وحركات الجسم فعلا ، وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموفقة لطاعته على كراهية الحود عن الحق وعلى رفض ما قاد اليه الجهل والشهوة ، والغضب المولد للعصبية وحمية الجاهلية ، فمن اتبع ما أثاره له العقل الصحيح نجا وفاز ، ومن عاج عنه هلك وربما أهلك ، قال تعالى : " ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد "(١) قال أبو محمد علي ، أراد بذلك العقل .(٢)

والعقل لا يستطيع الهيمنة على النفس وشهواتها ، والحد من جموح الغرائز ونزواتها الا اذا كان صافيا نشطا ، لا يتوقف عن الفكر والتأمل فيما هو خير وما هو شر مستهديا بمنهج الله الذي ارتضاه لعباده وحينئذ فقط تكون له القدرة على حجز صاحبه عن الوقوع في المحرمات ، والحيلولة بينه وبين الشهوات ، فتصفو النفس وترقى نحو السمو والكمال .

مكان العقل من البدن : يرى بعض العلماء أن العقل في الدماغ ، وهذا القول للامام أحمد رحمه الله وهو قول كثير من الأطباء . وقالت طائفة من أهل العلم ان أصل العقل في القلب فاذا كمل انتهى الى الدماغ .(٣)

قلت : والذي يبدو أن العقل متعلق بالقلب ، بدليل قوله تعالى : " فتكون لهم قلوب يعقلون بها " ولا يعني أن العقل هو المضغة الصنوبرية الكائنة في الجانب الأيسر من الكائن الحي ولكن العقل متعلق بهذا القلب بدلالة الآيات القرآنية الكثيرة ولا مانع من أن تكون له صلة بالدماغ بواسطة الأجهزة العصبية الدقيقة المتصلة به . قيل لابن عباس بماذا نلت العلم ؟ قال : بلسان سئول وقلب عقول .

---

(١) سورة ق الآية ٣٧ .
(٢) إحكام الأحكام لابن حزم ج ١ ص ٦ ، الإحكام في أصول الأحكام
(٣) فتاوى شيخ الاسلام ج ٩ ص ٣٠٣ .

والنفس الانسانية التي هي الروح قد كثرت أقوال الباحثين والمتكلمين حولها عن أقسامها وعن كنهها ، رأينا أن نأتي بنبذة من أقوالهم وأن نذكر طرفا من أشعارهم ثم نتوج البحث بالقول الحق المؤيد بالأدلة من الكتاب والسنة .

قال ابن سيناء (١) :

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما ... كرهت لقاءك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع

الى أن قال ...

حتى اذا قرب المسير الى الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت مفارقة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع

وقد عارضه أمير الشعراء بقصيدة طويلة رائعة مطلعها :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي ... هذى المحاسن ما خلقن لبرقع

الى أن قال ...

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة ... في عامر وأشعة في بلقع
فاذا طوى الله النهار تراجعت ... شتى الأشعة فالتقت في المرجع
لما نعيت الى المنازل غودرت ... دكا ومثلك في المنازل ما نعي
. . . . . . . . . . . . ... . . . . . . . . . . . .

الى أن قال ...

بأن الأحبة يوم بينك كلهم ... وذهبت بالماضي وبالمتوقع

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سيناء أبو علي الفيلسوف صاحب التصانيف في الطب ، والمنطق والطبيعيات أصله من بلخ ولد في احدى قرى بخارى نشأ وتعلم في بخارى وناظر العلماء واتسعت شهرته وكان من أتباع العبيديين الاسماعيلية صنف نحو مائة كتاب منها كتاب القانون ط في الطب ولد سنة ٣٧٠هـ وتوفي سنة ٤٢٨هـ . أنظر الاعلام لخير الدين الزركلي جـ ٢ ص ٢٦١ .

وخلاصة ما أراده الرئيس والأمير : أن النفس البشرية والمراد بها الروح كانت تسبح في عالم الأرواح مبتهجة بسموها وجلالها ، وبهائها ، وقربها من فاطر الوجود ، ثم أراد الله تعالى لحكمة بالغة أن يظهرها في هذا الهيكل الجسماني فهبطت اليه كارهة نافرة من انحدارها من سموها الرفيع الى هذا الحضيض السحيق ولكنها مع الزمن ألفته وأنست اليه ، وان كان الحنين يعاودها حينا بعد حين الى محلها الأول الرفيع .

ومن النفوس من تخلد الى الأرض تتمتع بها ، وتنسى منشأها الرفيع ، ومنها من تتطلع دائما الى سناء الرفيع ، وتتفاوت مراتب النفوس بين هاتين المنزلتين ، ولبيان أهميتها أقسم الله تعالى بها في كتابه العزيز اذ يقول : ( ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها )(١) .

ويرى البعض أن النفس اسم مشترك بين معان نذكر منها معنيين :
أحدها : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان ... وهذا الاستعمال هو الغالب عند أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة في الانسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، ويبدو هذا بعيدا .

الثاني : هي اللطيفة التي هي الانسان بالحقيقة ، وهي نفس الانسان ذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها . فاذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب ، بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى في مثلها : ( يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية )(٢) ، واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة . لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه .

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ — ١٠ .
(٢) سورة الفجر الآيتان ٢٧ — ٢٨ .

قال الله تعالى : ( ولا أقسم بالنفس اللوامة )[١] ، وان تركت الاعتراض ، وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى : اخبارا عن زليخا ( وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء )[٢][٣] .

وقد عرفها الجرجانى[*] بقوله : " النفس هى الجوهر اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الارادية . وسماها الحكيم الروح الحيوانية . فهى جوهر مشرق للبدن . فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما فى وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه ، فثبت أن النوم والموت من جنس واحد لأن الموت هو الانقطاع الكلى ، والنوم هو الانقطاع الناقص ، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب :

الأول ان بلغ ضوء النفس الى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة ، وان انقطع ضوؤها عن ظاهره دون باطنه فهو النوم ، أو بالكلية فهو الموت "[٤] .

وجاء فى كلام بعض الباحثين أن للانسان ثلاثة أنفس : مطمئنة ، ولوامة ، وأمارة ، وأن فى الناس من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه تلك محتجين بقوله تعالى : ( يا أيتها النفس المطمئنة ) ، ( ولا أقسم بالنفس اللوامة ) ، ( ان النفس لأمارة بالسوء ) واضعين فى اعتبارهم اختلاف التعريفات لكل قسم من الأقسام .

فالأمارة : هى التى تميل الى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات ، والشهوات الحسية ، وتجذب القلب الى الجهة السفلية فهى مأوى الشرور ، ومنبع الأخلاق الذميمة .

---

(١) سورة القيامة آية ٢ .
(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .
(٣) احياء علوم الدين ج ٣ ص ٤ .
(*) هو السيد الشريف على بن محمد الحسينى الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، ولد سنة ٧٤٠ هـ فى تاكو ودرس فى شيراز وتوفى بها له نحو خمسين مصنفا منها كتاب التعريفات ط ، وشرح مواقف الايجى ـ ط ، وتحقيق الكليات ـ خ ، ورساله فى فن أصول الحديث ـ ط .
(٤) التعريفات للجرجانى ص ٢١٧ .

واللوامة : هى التى تنورت بنور القلب بقدر ما تنبهت به سنة الغفلة كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها .

والمطمئنة : هى التى تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت من صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة (١) .

أقول : والذى يظهر لى أن هذا القول غير مرضى فالنفس البشرية واحدة فقط عند الانسان لكن لها عدة اعتبارات . فان استجابت لأوامر الله وسلمت وآمنت برسول الله وأذعنت فهى النفس المطمئنة ، لأنها تعيش حياة سعيدة تطبيقا لقول الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ) (٢) فاطمأنت بذكر الله ( الا بذكر الله تطمئن القلوب ) (٣) ووجلت خوفا من الله ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) (٤) وازدادت ايمانا ويقينا بسماع كلام الله ( واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ) (٥) . ينعكس هذا الاطمئنان على تصرفات الانسان وسلوكه تراه منشرح الصدر دائم الابتسامة ، راضيا بما قسم الله له قانعا برزقه راجيا ما عند الله ، موقنا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فى شوق دائم الى لقاء ربه ، محبا للجهاد فى سبيل الله ، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، عزيزا على أعداء الله ، ذليلا على أوليائه ، صاحب هذه النفس اتصف بصفات أحباب الله الذين قال الله تعالى فيهم : ( يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ) (٦) .

---

( ١ ) التعريفات للجرجانى ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
( ٢ ) الأنفال الآية ٢٤ .
( ٣ ) الرعد الآيـة ٢٨ .
( ٤ ) الأنفال الآية ٢ .
( ٥ ) نفس السورة والآية .
( ٦ ) المائدة الآية ٥٤ .

هذه النفس المطمئنة قال فيها ابن عباس رضى الله عنهما هى المصدقة . وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه الى ما وعد الله ، وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها ، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها . وروى عنه قال : النفس التى أيقنت بأن الله ربها ، وضربت جأشا لأمره وطاعته ، وقال ابن أبى نجيح النفس المطمئنة المخبتة الى الله ، وقال أيضا هى التى أيقنت بلقاء الله (١) .

وهذه الأقوال تدور كلها حول طاعة الله واليقين بما عنده من الجزاء والرضا بما قدره الله .

فان أيقن بذلك وسلم أمره الى خالقه ومدبر أمره ورضى بما قسم له كان ذا نفس مطمئنة .

قال ابن القيم رحمه الله : أما النفس اللوامة : فهى التى تلوم صاحبها قال الحسن البصرى رحمه الله : ان المؤمن لا تراه الا يلوم نفسه ، وانما يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى ونحو ذلك (٢) . وهذه لا تكون الا نفس المؤمن .

وقالت طائفة من المفسرين : هى التى لا تثبت على حال واحدة . أخذوا اللفظة من التلوم ، وهو التردد ، فهى كثيرة التقلب والتلون ، وهى من أعظم مخلوقات الله تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة ، فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ، ألوانا متلونة . فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتلطف وتكثف ، وتنيب وتجفو ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتسخط ، وتطيع وتتقى وتفجر .

وقال آخر : هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه ، فهذا اللوم من الايمان بخلاف الشقى فانه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٣٠ ص ١٩٠ .
(٢) تفسير الألوسى ج ٢٩ ص ١٣٦ .

وقالت طائفة : بل هذا اللوم للنوعين المؤمن والكافر والبر والفاجر فالسعيد يلومها على ارتكاب المعصية وترك الطاعة ، والشقى لا يلومها الا على فوات حظها وهواها .

وقالت فرقة أخرى : "هذا اللوم يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه ان كان مسيئا على اساءته ، وان كان محسنا على تقصيره"(١) .

قال الفراء : " ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهى تلوم نفسها ، ان كانت عملت خيرا قالت هلازدت ، وان عملت شرا قالت ليتنى لم أفعل"(٢) .

فيتلخص لنا من ذلك أن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته على تقصيرها فى الطاعات .

ولوامة غير ملومة ، وهى التى تلوم صاحبها مع بذله جهده فى طاعة الله تلومه على تقصيره فهذه قد تخلصت من لوم الله واحتملت لوم اللائمين فى مرضاته فلا تأخذها فى الله لومة لائم ، والله أعلم .

أما النفس الأمارة : فهى المذمومة لأنها التى تأمر بكل سوء وهذا من الميل الى طبيعتها البدنية فهى مأوى الشرور . قال تعالى حكاية عن زليخا : ( وما أبرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء )(٣) فما تخلص أحد من شر نفسه الا من رحمه الله ، ولازكا أحد أبدا الا بفضل الله ورحمته . قال تعالى : ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا )(٤) . فالشر كامن فى النفس البشرية وهو يوجب سيئات الأعمال . فان خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من شر نفسه ليعلم أمته ذلك . ففى خطبة الحاجة : " ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا"(٥) .

---

(١) الروح لابن القيم ص ٢٢٥ بتصرف .
(٢) مدارج السالكين ج ٢ ص ٦ .
(٣) يوسف الآية ٥٣ .
(٤) النور الآية ٢١ .
(٥) رواه ابن ماجه والدارمى — كتاب النكاح ج ١ ص ٦١٠ ، من ابن ماجة .

فان وفق الله العبد وأعانه نجاه من شر النفس ووساوس الشيطان وهداه الى الصراط المستقيم .

أسأل الله تعالى : أن يعيذنا من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، وأن لا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين .

هذه الأحوال كلها للنفس الواحدة في الكيان البشرى قد تكون أمارة ، أو لوامة ، أو مطمئنة . وقد تكون أمارة ثم لوامة فمطمئنة . قال ابن القيم رحمه الله : والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم ، أقول : وهذا القول هو الذى أرتضيه لما سبق بيانه قريبا والله أعلم .

والنفس الانسانية والروح شيء واحد بدلالة قوله تعالى ( فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ) (١) .

ووجه الدلالة أن آدم عليه السلام قبل أن ينفخ فيه الروح كان جثة من الطين هامدة فلما نفخ الله فيه الروح تحرك وقام بشرا سويا ... وعرف ربه بعد أن علمه الله الأسماء كلها وفضله على ملائكته وأظهر ميزته حين أخبرهم بأسمائهم وأوجد فيه مؤهلات الاستخلاف ومسح على ظهره وأخرج ذريته في عالم الذر وأشهدهم على أنفسهم بمعرفتهم لربهم . قال تعالى : ( واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ) (٢) ، وهذه هى الفطرة التى ركزها الله تعالى فى النفس البشرية فهى تهتدى بهذه الفطرة الى أن الله رب كل شيء ومليكه ، وأن كل شيء من خلق الله ( ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ) (٣) . ثم أرسل الله الرسل مذكرين للانسان بهذا العهد ( فذكر أن نفعت الذكرى ) (٤) ، ( فذكر انما أنت مذكر ) (٥) .

---

(١) الحجر الآية ٢٩ .
(٢) الأعراف الآية ١٧٢ .
(٣) طه الآية ٥٠ .
(٤) الأعلى الآية ٩ .
(٥) الغاشية الآية ٢١ .

هذا التذكير بالعقيدة يساعد الفطرة فى الاهتداء الى خالقها ، اذ افهمة الرسل هو ايقاظ هذه الفطرة من غفلتها ، وتوجيهها الى ربها وخالقها ومعبودها وبيان ما شرعه الله للناس من عبادات ومعاملات .

قال ابن حزم (*) رحمه الله : " ان النفس مخلوقة . برهان هذا أننا نجد الجسم فى بعض أحواله لا يحس شيئا ، وان المرء اذا فكر فى شيء ما فانه كلما تخلى عن الجسد كان أصح لفهمه وأقوى لادراكه ، فعلمنا أن الحساس العالم الذاكر هو شيء غير الجسد ، وتجد الجسد اذا تخلى منه ذلك الشيء موجودا بكل أعضائه ، ولا حس له ولا نهم ، اما بموت ، واما باغماء ، واما بنوم .

فصح أن الحساس الذاكر هو غير الجسد وهو المسمى فى اللغة نفسا وروحا . قال الله تعالى : ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ) (١) .

وهى الروح نفسه برهان ذلك أنه قد قام البرهان كما ذكرنا بأن ههنا شيئا مدبرا للجسد هو الحى الحساس المخاطب ، ولم يقم برهان قط بأنهما شيئان ، فكان من زعم بأن الروح غير النفس قد زعم بأنهما شيئان وقال ما لا برهان له بصحته وهذا باطل .

قال تعالى : ( قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ) (٢) . فمن لا برهان له فليس صادقا ، فصح أن النفس والروح اسمان لمسمى واحد (٣) .

---

(*) هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى أحد الأئمة المجتهدين ولد بالاندلس ( قرطبة ٣٨٤ هـ ) وكانت له رئاسة الوزارة ثم زهد بها وانصرف الى العلم والتأليف له كتاب المحلى ، وجمهرة الأنساب والناسخ والمنسوخ ، والأحكام فى أصول الاحكام وغيرها وتوفى فى بادية ليلة سنة ٤٥٦ هـ .

(١) الزمر الآية ٤٢ .

(٢) البقرة الآية ١١١ .

(٣) المحلى لابن حزم ج ١ ص ٦ ط مكتبة الجمهورية بمصر .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : " أكلأ لنا الليل فغلبت بلالا عيناه فلم يستيقظ النبى صلى الله عليه وسلم ولا بلال ولا أحد من أصحابه ، حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم استيقاظا فقال : " يابلال ! فقال أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك بأبى أنت وأمى يارسول الله . قال الله تعالى : الله يتوفى الأنفس حين موتها " وفى رواية أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا انا نحمد الله أنا لم نكن فى شيء من أمر الدنيا يشغلنا عن صلاتنا ، ولكن أرواحنا كانت بيد الله عز وجل . فأرسلها أنى شاء " فخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنفس والأرواح عن شيء واحد . ولا يثبت عنه فى هذا الباب خلاف لهذا أصلا .(١) اهـ .

وقال الألوسى رحمه الله : " النفس من حيث هى شريفة لأنها الروح التى هى من عظيم أمر الله عز وجل "(٢) .

والنفس فى القرآن الكريم تطلق على الذات الانسانية بجملتها . كقوله تعالى : ( فسلموا على أنفسكم )(٣) ، وقوله تعالى : ( يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها )(٤) ، وقوله تعالى : ( كل نفس بما كسبت رهينة )(٥) . وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى : ( يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك )(٦) ، وقوله تعالى : ( اخرجوا أنفسكم )(٧) ، وقوله تعالى : ( ونهى النفس عن الهوى )(٨) ، وقوله تعالى : ( ان النفس لأمارة بالسوء )(٩) .

---

(١) المحلى لابن حزم ص ٨ ج ١ .
(٢) روح المعانى ج ٢٩ ص ١٣٦ .
(٣) النور الآية ٦١ .
(٤) النحل الآية ١١١ .
(٥) المدثر الآية ٣٨ .
(٦) الفجر الآية ٢٧ ، ٢٨ .
(٧) الأنعام الآية ٩٣ .
(٨) النازعات الآية ٤٠ .
(٩) يوسف الآية ٥٣ .

وأما الروح لا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس ، وتطلق الروح على القرآن . قال تعالى : ( وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا )(١) . وعلى الوحي قال تعالى : ( يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده )(٢) ، ( ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده )(٣) .

قال ابن القيم(*) رحمه الله : قلت أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة وهي النفس(٤) .

أقول: أما حقيقة الروح فأمر استأثر الله بعلمه فهو شيء من خلق الله لا يعلمه أحد من خلقه . لقوله تعالى : ( ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي )(٥) . وادعاء معرفة حقيقتها دعوى باطلة لا تستند الى دليل سمعي ، والله تعالى قد حذر من القول بدون علم قال تعالى : ( ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ) أي لا تقل للناس وفيهم ما لا علم لك به وحاصل ذلك يرجع الى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوما .

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح سكت . حتى نزل الوحي مخبرا أن علم ذلك مرده الى الله وحده وليس للانسان حتى حق السؤال عن ذلك ليدرك هذا الانسان عجز نفسه وعظمة علم الله المحيط بكل شيء ( وما أوتيتم من العلم الا قليلا )(٦) .

---

(١) الشورى الآية ٥٢ .
(٢) غافر الآية ١٥ .
(٣) النحل الآية ٢ .
(٤) الروح ص ٢١٩ .
(٥) الاسراء الآية ٨٥ . (٦) الاسراء الآية / ٨٦
(٧) نفس السورة الآية ٨٥ .
(*) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين من كبار العلماء في عصره ومن أخص تلاميذ شيخ الاسلام بن تيمية ، ولد بدمشق ٦٩١ هـ وتوفي بها ٧٥١ هـ له عدد كبير من المصنفات المفيدة منها : مدارج السالكين ، أعلام الموقعين ، الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة ومفتاح دار السعادة وغيرها من المؤلفات الكثيرة النافعة .

قال الامام القرطبي (*) رحمه الله : والصحيح الابهام لقوله تعالى : " قل الروح من أمر ربي " دليل على خلق الروح أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى مبهما له وتاركا تفصيله ليعرف الانسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها ، واذا كان الانسان فى معرفة نفسه هكذا كان عجزه عن ادراك حقيقة الحق من باب أولى (١) .

وفى سكوت النبي عليه الصلاة والسلام عن الاجابة على اليهود حين سألوه عن الروح أقوى دليل لمن أمسك عن الخوض فى هذه المسألة ثم فى النص القرآني الكريم الذى نزل على المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أكبر دليل على الكف عن هذا البحث .

قال البخارى رحمه الله : ( حدثنا عمر بن حفص بن غياث . حدثنا أبى حدثنا الأعمش ، قال : حدثنى ابراهيم عن علقمة عن عبد الله — يعنى ابن مسعود — رضى الله عنه قال : "بينا أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث — وهو متكىء على عسيب — اذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى اليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا " ) (٢) .

---

(*) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح ( باسكان الراء والحاء المهملة ) الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى المفسر كان من الزاهدين فى الدنيا المشغولين بالآخرة أوقاته معمورة مابين عبادة وتصنيف له عدد من المؤلفات الناقصة ، أهمها "كتاب التفسير" ، " الجامع لأحكام القرآن " ، " وكتاب التذكرة بأمور الآخرة " ، "والأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى" . توفى بمنية بن خصيب فى شمالى أسيوط سنة ٦٧١ هـ .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٤ ط دار الكتاب العربى بالقاهرة .

(٢) حديث رقم ٤٧٢١ صحيح البخارى نقلا عن فتح البارى جـ ٨ ص ٤٠١

ويبدو لي أن أمر مفرد مضاف يعم . أي من أمور ربي وهي كثيرة فمنها مثلا الكهرباء ، فالكثير من الناس يعرفون أن الخطين اللذين يحملان الطاقة الكهربية أحدهما يسمى سالبا والآخر يسمى موجبا وأنه باتصال أحدهما بالآخر يولد الطاقة الكهربية فما هي هذه الطاقة وما حقيقتها ، ذلك من أمر ربي وهو يعلمها أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) .

وقد نقل الحافظ ابن حجر (*) رحمه الله عدة أقوال عن الروح المسئول عنها في الآية الكريمة وردها كلها بقوله : وقد تنطع قوم فتباينت أقوالهم ... الى أن قال حتى قيل ان الأقوال بلغت مائة ، وزاد الامام الشوكاني (*) أن بعضهم أوصل الأقوال الى ثماني عشرة مائة. وليس من وراء ذكرها ثمرة ، لذلك أضربت عنها صفحا .

والتحقيق انهم سألوه عن الروح — أي روح الانسان — لأن اليهود لاتعترف بأن عيسى روح الله كما أنها لا تجهل أن جبريل ملك وأن الملائكة أرواح . قال

---

(*) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أبو الفضل ابن حجر من أئمة العلم أصله من فلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة له مؤلفات جمة نفع الله بها المسلمين منها : الدرر الكامنة ، لسان الميزان ، تهذيب التهذيب ، تقريب التهذيب ، تعجيل المنفعة ، بلوغ المرام ، فتح الباري شرح صحيح البخاري كلها مطبوعة ، ولد سنة ٧٧٣ هـ وتوفي سنة ٨٥٢ هـ أ.هـ من الاعلام للزركلي .

(*) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان ونشأ بصنعاء وولي قضاءها ومات حاكما بها له ١١٤ مؤلفا منها نيل الأوطار ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الفوايد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، وفتح القدير في التفسير ، وارشاد الفحول في علم الأصول ، والسيل الجرار ، ولد سنة ١١٧٣ هـ وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ .

الامام الرازى (*) : " المختار أنهم سألوه عن الروح الذى هو سبب الحياة ، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه " (١) .

قال الحافظ : وجنح ابن القيم فى " كتاب الروح " الى ترجيح أن المراد بالروح المسئول عنها فى الآية ما وقع فى قوله تعالى " يوم يقوم الروح والملائكة صفا " قال وأما أرواح بنى آدم فلم يقع تسميتها فى القرآن الا نفسا " قال الحافظ ولا دلالة فى ذلك لما رجحه بل الراجح الأول . فقد أخرج الطبرى من طريق العوفى ، عن ابن عباس فى هذه القصة أنهم قالوا عن الروح ، وكيف يعذب الروح الذى فى الجسد ، وانما الروح من الله ، فنزلت الآية (٢) .

قال ابن بطال : معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر. والمراد بالخبر حديث سؤال اليهود عن الروح المذكور آنفا وجوابه (٣) .

أقول: وقد أمسك عن الخوض فى هذه المسألة كثير من أئمة الاسلام من سلف الأمة وخلفها تأدبا مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولقصور علم المخلوق مهما عظم فى جانب علم الله تعالى المحيط بكل شيء علما . فليسعنا ما وسعهم .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن الروح ويرد ردا حاسما أن ذلك من شأن الله تعالى وحده ، ليس مراده الحجر على العقول البشرية عن العمل . لكن فيه توجيها الهيا لهذه العقول أن يكون عملها فى مجالات تستطيع ادراكها ، والروح لما كان غيبا من عند الله لا يدركه أحد سواه ، وسرا من أسراره القدسية أودعه

---

(*) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى : الامام المفسر أصله من طبرستان ومولده فى الرى واليها نسبته سنة ٥٤٤ هـ وتوفى فى هراة سنة ٦٠٦ هـ له عدد من المؤلفات من أهمها : مفاتيح الغيب تفسير القرآن الكريم ٨ مجلدات ، لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات ، معالم أصول الدين ، المسائل الخمسون فى أصول الكلام . المحصول فى علم الأصول ،أ . هـ من الأعلام .

(١) فتح البارى جـ٨ ص ٤٠٢ ط السلفية .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٢ .

(٣) المرجع السابق

هذا المخلوق البشرى وغيره من المخلوقات ، ماكان لأحد من خلقه أن يطلع على حقيقته ، كما أن أسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود .

والانسان ما هو الا عبارة عن البدن والروح معا ، فالبدن بدون روح هيكل لاقيمة له ، والروح وحدها لا يقال لها انسان . وان كان لفظ الانسان بالروح أخص منه بالبدن لكن الروح لابد لها من مطية فالبدن مطية لروح . قال أبو الدرداء رضى الله عنه انما بدنى مطيتى فان رفقت بها بلغتنى وان لم أرفق بها لم تبلغنى ، وقد روى ابن منده وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " لاتزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات ، فيقول البدن للروح أنت أمرتنى ، فيبعث الله ملكا يقضى بينهما . فيقول انما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا ، فقال للأعمى انى أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض اليه ، وقال الأعمى لكنى أستطيع النهوض اليه ولكنى لا أراه ، فقال له المقعد : تعال فاحملنى حتى أقطفه فحمله ، وجعل يأمره فيسير به الى حيث يشاء فقطع الثمرة ، فقال الملك : فعلى أيهما العقوبة ؟ قالا عليهما جميعا فقال قضيتما على أنفسكما "(١) .

أقول: لذا ينبغى للانسان أن لا يبالغ فى العناية بجسمه ويسرف فى المأكولات والمشروبات وأنواع الملذات بل عليه أن يوجه عنايته الى النفس فيهذبها ويروضها على طاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه فالعناية بها ربح للانسان فى حياته وبعد وفاته ، والاهتمام البالغ بالجسم مع ترك النفس واهمالها خسران وشقاء فى الدنيا والآخرة . يقول الشاعر :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

... ... ...

---

(١) الروح لابن القيم ص ١٨٦

# الفصل الثالث

## الانسان ومكانتـــه فـــى الأرض

قبل أن نتحدث عن مكانة الانسان فى الأرض كما جاءت فى القرآن الكريـــم يحسن بنا أن نذكر نبذة عن نظرة الماديين الى الانسان ٠

انه فى نظر الماديين حقير تافه من حيث القيمة الذاتية ، قالوا : هـــو قبضة من تراب هذه الأرض منها نشأ ، وعليها يمشى ، ومنها يأكل ، واليهــا يعود ، هو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب ، والأجهزة والغـــدد والخلايا ٠ وما العقل والتفكير الا مادة يفرزها المخ ٠ كما تفرز الكبد الصفــراء ، أو كما تفرز الكلية البول ، هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره ، هو مـــن جنس الهـــوام والحشرات والزواحف والقرود ٠

أن الماديين لا يميزون الانسان بما يسميه غيرهم " الروح الالهى " الــذ عندهم ليس الا هذا الهيكل المادى وهذا الجسم الحيوانى ، وما قيمة هـــذا الجسم وهذا الهيكل الذى هو الانسان ؟

ان أحد العلماء رد جسم الانسان الى العناصر الأساسية فيه فخـــرج بالنتائج الآتية :

— قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون ٠
— قدر من الكربون يكفى لصنع سبعة أقلام رصاص ٠
— قدر من الفوسفور يكفى لصنع رؤوس ١٢٠ مائة وعشرين عود ثقاب ٠
— قدر من الملح " المغنسيوم " يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات ٠
— قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه ٠
— قدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج ٠

— قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .
— قدر من الماء يملأ برميلا سعته عشر جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى خمسين أو ستين قرشا مصريا . وتلك هى قيمة الانسان المادية (١) .

لا روح ولا نفحة من السماء انه حيوان متطور فقط ولا فرق بين الانسان فى نظرهم وبين الحيوان من الحشرات والقرود سوى فرق التفوق فقط .

" يقول أحد الملاحدة من العرب المعاصرين : " هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ؟ ! نحن لانساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات ، ونحن لا نريد الا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك الحشرات ! والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط . وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان ، لا يفرق كثيرا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان . !

ماذا تفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا (٢) " ؟ ! !

وما ذهب اليه دارون وفرويد وأمثالهما من الماديين لا يبعد عن هذه النظرة الى الانسان انه عندهم أخو الحشرات وصنو القرود انه مخلوق من طبيعته الانجذاب الى أسفل ، من طبيعته الهبوط الى الأرض . انه حيوان متطور ، ان الحيوانية فيه هى قشرته ولبه ، هى لحمته وسداه . ان هذه النظرة الى الانسان تترك أثرا سيئا فى النفس الانسانية تجعله لا يستغرب من نفسه الانحدار والهبوط ، ولا يستنكف من القذارة والأوحال أن يتلوث بها ويتمرغ فيها .

أما الانسان فى القرآن الكريم فهو مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه تعالى بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد

---

(١) كتاب نظرات فى القرآن للأستاذ محمد الغزالى ص ٦٠ .
(٢) كتاب الايمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦٥ .

له ملائكته ، وميزه بالعلم والارادة ، وجعله خليفة فى الأرض ، ومحور النشاط فى الكون ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، وأسبغ عليه نعمه ، ظاهرة وباطنه ، فكل ما فى الكون له ولخدمته . وقد تحدث القرآن الكريم عن الانسان فى مئات من آياته . منها أول فوج نزل من آى الذكر الحكيم وكانت خمس آيات لم تغفل شأن الانسان وعلاقته بربه . قال تعالى : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ) (١) ذكر لفظ الانسان فى هذه الآيات مرتين . وذكرت علاقته بربه من حيث الخلق والتكريم ، ومن حيث الهداية والتعليم ، وذكر لفظ الرب لما فيه من الاشعار بالتربية والرعاية والوصول به الى مدارج الكمال . كما أن السورة التى قبل العلق فى ترتيب المصحف تحدثت عن الانسان من حيث جمال الخلق وحسن القوام ، قال تعالى : ( لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ) (٢) . وتخصيص الانسان هنا وفى آيات قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل (٣) فيه فضل كبير وعناية عظمى بهذا المخلوق . وسواء أكان المراد من قوله تعالى " فى أحسن تقويم " تكوينه الجسمى البالغ فى الدقة والتركيب ، أم تكوينه العقلى الفريد ، أم تكوينه الروحى العجيب كل ذلك يوحى أن الانسان محل العناية الربانية فهو سبحانه وحده الذى أحسن خلقه ، وهو الذى هداه وكرمه وعلمه وأنعم عليه بمعرفته وبث له من الآيات المنظورة ما يجعله يستيقظ من غفلته ويحرك فطرته فيذكر العهد الذى قطعه على نفسه ويوقن أن له خالقا مدبرا . وأرسل اليه رسله مذكرين له بذلك العهد ومبينين له شريعته مفصلين له الفرائض والسنن موضحين له الحلال من الحرام . وحينئذ لم يبق له من عذر يقدمه ، فاما ارتفاع بالفطرة واستقامة على الطريق القويم . واما انحراف بها واندفاع مع النكسة والوصول بها الى دركها فى الجحيم . ( ثم رددناه أسفل سافلين ) (٤) .

---

( ١ ) العلق الآية ١ — ٥ .
( ٢ ) التين
( ٣ ) يا أيها الانسان ماغرك — الى قوله تعالى ماشاء ركبك .
( ٤ ) التين الآية ٥ .

والانسان قريب من ربه جل وعلا لا يحجب بينهما حاجب ، ولا يحـــول دون رحمة الله له أى أحد ممن جعلوا أنفسهم أبوابا لرحمة الله ، ونصبــــوا أنفسهم وسطاء بين الله وبين عباده ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، ذلـــــك لأن الانسان عبد الله وهو جل وعز ربه ومدبر أمره ومعبوده ، وقد شرف تعالـــى بنى الانسان باضافتهم اليه ووعد باجابة من دعاه بقوله : ( واذا سألك عبـادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ) (١) . وأوضح أنه سبحانه قريـــب من هذا الانسان يعلم أسراره وخلجات نفسه وما خفى من أمره ، قال تعالـــى : ( ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه . ونحن أقرب اليه من حبـــل الوريد ) (٢) . وأخبر تعالى أنه مع عباده بالعلم يسمع سرهم ونجواهم . قال تعالى: ( ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ) (٣) .

ويؤكد هذا المعنى ويبينه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربـــه تبارك وتعالى " أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيتـــه هرولة " (٤) . هذا الحديث القدسى الجليل يبين فيه تعالى أنه قادر علـــــى أن يعمل بالعبد ما ظن أنه عامل به ، وأنه تعالى مع عبده بعلمه وهى مثل قولـــه تعالى : ( اننى معكما أسمع وأرى ) (٥) ، قال الحافظ رحمه الله : والمعية المذكورة أخص من المعية التى فى قوله تعالى : ( ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم — الى قوله — الا هو معهم أينما كانوا ) والشاهد من هذا معية الله تعالى لعبده الانسان ، فمتى استشعر هذا الانسان معية الله بهذا المعنى الذى ذكرنـــاه

---

(١) البقرة الآية ١٨٦ .
(٢) ق الآية ١٦ .
(٣) المجادلة الآية ٧ .
(٤) صحيح البخارى كتاب التوحيد رقم الحديث ٧٤٠٥ . ج ٩ ص ١٤٨ .
(٥) طه الآية ٤٦ .

فانه لن ينحرف بفطرته بل سيعمل على مقاومة الشيطان والهوى ولوازع الشر في نفسه ، فيستقيم أمره وتصفو نفسه .

.. ..

## الفرق بين النظرتين الاسلامية والمادية

لعل ماأوضحناه قد ألقى ضوءا على الفرق بين النظرة الاسلامية الى الانسان وبين النظرة المادية اليه ولا يخفى الفرق الشاسع بين من ينظر الى الانسان على أنه حيوان متطور ومجرد موته ينتهى دوره في مسرح الحياة الكبير ، وبين نظرة الاسلام اليه على أنه انسان شرفه الله وفضله وكرمه وأنعم عليه واستخلفه في أرضه وأسجد له ملائكته ، وسخر له ما في الأرض جميعا منه . استخلفه في الأرض لعمارتها ، واقامة الحق ، وافاضة الخير ، فهو في معية الله وحفظه ورعايته ، وأن وجوده لا ينتهى بالموت ، وداره لا ينتهى بالقبر ، فانما خلق للخلود في جنة عرضها السموات والأرض ونعيم لا ينقطع ولا يزول — هذا ان امتثل أمر ربه ولم يرتكس بفطرته — والا فعذاب أليم ونكال وجحيم .

أن الفرق بين النظرتين يبدو جليا في ثلاثة أشياء :

١ — في منزلة الانسان في هذه الأرض .
٢ — في طبيعته التي فطر عليها .
٣ — في غايته وعمله في الحياة .

ولا أرى مانعا من أن أفصل ما أجملته في هذه الأشياء الثلاثة :

### أولا : منزلته في هذه الأرض :

مركز الانسان في هذه الأرض هو مركز الخليفة الذى اختاره الله تعالى وهيأ له كل ما في هذا الكون — وكأن هذه المخلوقات والأجرام السماوية جميعا انما خلقت من أجله ، كرمه الله تعالى وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات

وفضله على كثير من خلقه . ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا )(١) سخر له الشمس والقمر كما سخر له البحار والأنهار وأخرج له من ثمرات الأرض وأنزل عليه من بركات السماء ، يأكل من رزق الله المباح ، ويشكر واهب النعم سبحانه ويتفكر فى آيات الله المبثوثة من حوله .

قال تعالى : ( الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها )(٢) .

وقال تعالى : ( الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون )(٣) .

وبالجملة فقد سخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض فضلا منه ورحمة وأسبغ على هذا الانسان نعما جليلة لا تحصى ولا تعد منها نعمة الخلق والايجاد ، ونعمة الهداية لمن باشر أسبابها ( والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم )(٤) .

قال تعالى : ( ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة )(٥) .

هذه هى مكانة الانسان فى هذا الكون الفسيح العريض وصلته بما فيه .

---

(١) الاسراء الآية ٧٠ .
(٢) ابراهيم الآية ٣٢ — ٣٤ .
(٣) الجاثية الآية ١٢ — ١٣ .
(٤) محمد صلى الله عليه وسلم الآية ١٧ .
(٥) لقمان الآية ٢٠ .

انه السر الذى أودعه الله فى الانسان والنفخة التى فيه من روح الله ، هذه النفخة التى جعلته مهيأ لخلافة الله فى أرضه مستعدا لحمل أمانة التكليف والمسئولية . قال تعالى : ( انا عرضنا الأمانة ـ على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان ) (١) .

هذا الاستعداد فى الانسان الذى أوجده الله له بعد أن يسر له سبل الهداية وأزاح عنه كل الأعذار ، هو الذى جعل له القدرة على التميز بين الخير والشر والصالح والطالح ، والايمان والكفر وترك له حرية الاختيار بعد ذلك ( انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا ) (٢) . وقال تعالى : ( فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ) (٣) ، وقال تعالى : ( قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ) (٤) ، وقال تعالى : ( ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها ) (٥) .

هذه نظرة الاسلام الى الانسان اعتراف بوجوده كله روحه ، جسده ، عقله ، ارادته ، وجدانه وعواطفه وغرائزه ، لم يضع فى رجله قيدا ولا فى عنقه غلا ، ولم يحرم عليه طيبا ولم يغلق فى وجهه باب خير .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله :

" اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الانسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق له كل شيء ، وخصه فى معرفته ومحبته ، وقربه ، واكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سمواته وأرضه ، وما بينهما ، حتى ملائكته ـ الذين هم أهل قربه ـ استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعنه واقامته .. وأنزل اليه وعليه كتبه ، وأرسله ، وأرسل اليه وخاطبه ، وكلمه واتخذ منهم الخليل والكليم والولى ، وجعلهم معدن أسراره ، ومحل حكمته ، وموضع حبه ، فللانسان شأن ليس لسائر المخلوقات " (٦) .

---

(١) الأحزاب الآية ٧٢ .
(٢) الدهر الآية ٣ .
(٣) الكهف الآية ٢٩ .
(٤) الـ الآية .
(٥) ا الآية .
(٦) مدارج السالكين جـ ١ ص ٢١٠ .

اختار الله تعالى للانسان هذه المكانة السامية ( الخلافة في الأرض ) وأسجد له ملائكته فسجدوا كلهم الا ابليس فقد تمرد على أمر ربه ودفعه الحسد والغرور الى أن أبى واستكبر وكان من الكافرين واتخذ من الانسان موقف العداء فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله والوعيد بعذابه الأليم .

قال تعالى : ( اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس استكبر وكان من الكافرين )(١) . قال تعالى فى حق ابليس ( فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين )(٢) !

تلك هى مكانة الانسان على هذه الأرض استخلفه فيها ومكنه من ناصيتها ويسر له سبل السيطرة عليها ، وهداه وعلمه ( من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا )(٣) .

## ثانيا : طبيعة الانسان :

ان طبيعة الانسان فى نظر الاسلام طبيعة مزدوجة عرفها حق معرفتها وقدرها حق قدرها ، خلق الله الانسان جسما كثيفا وروحا شفافا ، جسما يشده الى الأرض التى خلق منها ، وروحا يتطلع الى السماء التى هى مصدره جسما له مطالب وشهوات ، وروحا له آفاق وسبحات .

هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرا طارئا على الانسان ، ولا ثانويا فيه ، بل هى من الفطرة التى فطره الله عليها ، وأهله بها للخلافة فى الأرض . ( ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون )(٤) .

---

(١) سورة ص الآية ٧١ — ٧٤ .
(٢) نفس السورة الآية ٧٧ — ٧٨ .
(٣) سورة الكهف الآية ١٧ .
(٤) سورة السجدة الآيات ٦ — ٩ .

ولم يغفل الاسلام الروح من أجل الجسد ، ولا الجسد من أجل الروح ، بل زاوج بينهما فى وحدة ملتئمة ، وأعطى الروح حقه ، والجسد حقه من غير افراط ولا تفريط ، لم يفعل الاسلام ما فعلته بعض النحل من اغفال الجانب المادى الجسدى فى الانسان ، والعمل على تعذيبه واضعافه ليثمو فيه الجانب الروحى ، كالبرهمية الهندية والرهبانية المسيحية ، ولم يفعل الاسلام ما فعلته النظرية المادية التى تجحد أن فى الانسان روحا وان فى الكون الهـا اذ لا تؤمن الا بما هو محسوس ، لكن الاسلام جمع بين الجزئين وأعطى كلا من الجسم والروح حقه وأخذ بالتى هى أقوم وبذلك كان الانسان أهلا للاستخلاف .

## ثالثا : غاية الانسان ومهمته فى الحياة :

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم قد بين غاية الانسان ومهمته فى هذه الحياة القصيرة على الأرض ، فلم يخلق عبثا ، ولم يترك سدى ، لم يخلق ليعيش ثم يموت ويطويه العدم . وانما خلق ليعرف الخالق ، ورزق العقل ليدرك الاله المعبود وحده لاشريك له فيعبده كما أمره ووهب من الصفات المميزة له عن سائر المخلوقات ليكون خليفة فى الأرض . حمله الأمانة فتحملها ، وكلفه بتكاليف فتقبلها ، وكان على مستوى المسئولية ، يتحمل البلاء فيصبر ، ويستقبل النعماء فيشكر ، يقوم بمهمته فى هذه الحياة استعدادا لحياة الخلود ، يعيش لعبادة ربه ولحياته الباقية الأخرى . ( والآخرة خير وأبقى )[1] يعرف أن متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى . ( قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا )[2] وهو بهذا يشعر بسعادة غامرة تملأ جوانب نفسه ، من صفاء نفس ، وطمأنينة قلب ، وانشراح صدره ، وراحة ضمير ، لأنها — أى السعادة — تنبع من داخل النفس نتيجة لايمانه بالله وقيامه بأوامر الله ، وهذه هى الغاية

---

(١) الأعلى الآية ١٧ .
(٢) النساء الآية ٧٧ .

من وجوده في الحياة عمارة الأرض بالعبادة كما أراد الله منه ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )(١) وارضاء خالقه جل وعز ( رضى الله عنهم ورضوا عنه )(٢) أن السعادة ليست بالمال أو الولد أو الجاه ، أو العلم التجريبي أو غير ذلك من الوسائل المادية كما يتوهم بعض الناس ، بل السعادة كل السعادة بطمأنينة النفس وسكينة القلب . قال تعالى : ( هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم )(٣) وكما قررنا أن السعادة لاتأتى الا من طمأنينة النفس وسكينة القلب ، فما الذى يملأ النفس طمأنينة والقلب سكينة ؟

بتتبعنا لآيات الذكر الحكيم لم نجد سوى الايمان بالله واليوم الآخر مصدرا وحيدا للطمأنينة وملجأ فريدا للسكينة . هذا الايمان الذى لا يكدره شك ولا يفسده نفاق .

هذه السكينة هى روح من الله ونور ( ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور )(٤) يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنده القلق ( الا بذكر الله تطمئن القلوب )(٥) ويتسلى به الحزين ويقوى به الضعيف ( ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين )(٦)

قال ابن القيم رحمه الله :

" فى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله ، وفيه وحشه لا يزيلها الا الانس بالله ، وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه الا الاجتماع عليه ، والفرار اليه ، وفيه نيران حسرات لا يطفئها الا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه ، وفيه فاقة لا يسدها الا محبته ، والانابة اليه ، ودوام ذكره ، وصدق الاخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا "(٧) .

---

(١) الذاريات الآية ٥٦ .
(٢) البينة الآية ٨ .
(٣) الفتح الآية ٤ .
(٤) النور الآية ٤٠ .
(٥) الرعد الآية ٢٨ .
(٦) آل عمران الآية ١٣٩ .
(٧) كتاب الايمان ص ٩٧ للدكتور القرضاوى .

فمن خسر الايمان فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين فلا سعادة فى الدنيا ولا نجاة فى الآخرة ، ومن اهتدى بهدى الله فانما يهتدى لنفسه ويحظى بالسعادة فى الدارين ( من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ) (١) .

ومتى عرف الانسان الغاية الحقيقية من وجوده ، وعرف الطريق اليها استراح قلبه لأنه سلك طريق المنعم عليهم انه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، صراط خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ( وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ) (٢) .

والنفس المؤمنة تعيش فى سعة لأنها ترى بنور الله الذى كشف لها ما حولها ، بعكس النفس المرتابة أو الملحدة فانها تعيش فى ظلام حالك لا ترى سوى شهواتها الجسدية التى تفضى بها فى النهاية الى الكآبة والضيق فالهلاك .

قال تعالى : ( أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ) (٣)
وقال تعالى : ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ) (٤) .

ودلالة الآيتين واضحة فى أن المؤمن يعيش بنور من ربه وهداه ، منشرح الصدر مطمئن النفس . ومن عمى عن الحق وتنكب الطريق السوى يظل فى ضيق ونكد وقلق كمن يلاحق أنفاسه لشدة ما يجده من صعوبة فى التنفس ، فهو فى تعاسة وشقاء وان ملك الدنيا بمن فيها وما فيها .

. . . .

---

(١) الاسراء الآية ١٥ .
(٢) الشورى الآيتان ٥٢ — ٥٣ .
(٣) الزمر الآية ٢٢ .
(٤) الأنعام الآية ١٢٥ .

## معنى خلافة الانسان على الأرض

من المميزات العظيمة التي ميز الله بها الانسان عن سائر المخلوقات العلم الذى علمه ليكون أهلا لخلافته فى عمارة أرضه وسياسة خلقه ، وأفاضة الخير فيها ، واقامة الحق بين سكانها ، وتنفيذ أوامر الله وأحكامه فيهم . هذه الرسالة هى رسالة الكملة من المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من عباد الله الصالحين . فالخلافة لا تنقطع آثارها من الأرض ، ما دام الانسان موجودا على ظهرها .

قال الألوسى فى تفسيره عند قوله تعالى : ( انى جاعل فى الأرض خليفة )(1)
" ومعنى كون آدم خليفة أنه خليفة الله تعالى فى أرضه ، وكذا كل نبى ، استخلفهم فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليه ، لما أنه فى غاية الكدورة والظلمة الجسمانية ، وذاته تعالى فى غاية التقديس ، والمناسبة شرط فى قبول الفيض على ما جرت به العادة الالهية ، فلابد من متوسط ذى جهتين : تجرد ، وتعلق ، ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى ... ولم تزل تلك الخلافة فى الانسان الكامل الى قيام الساعة ، بل متى فارق هذا الانسان العالم مات العالم لأن الانسان روحه الذى به قوامه ، وفائدة قوله تعالى : ( انى جاعل فى الأرض خليفة ) للملائكة تعظيم شأن المجعول واظهار فضله بتعريفه للملائكة وبيان قدره )(2) .

وقال صاحب تفسير المنار(3) :

" والظاهر أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ، ولكن ما معنى هذه الخلافة ؟ وما المراد من هذا الاستخلاف ؟ هل هو استخلاف بعض

---

(1) البقرة الآية ٣٠ .
(2) تفسير الألوسى ج ١ ص ٢٢٠ ط احياء التراث العربى . بيروت .
(3) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج ٨ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ بتصرف .

الانسان على بعض؟ أم استخلاف النوع على غيره ؟

جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس ، وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك ، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما فى كل ما ميز الله به الانسان على سائر المخلوقات ، وقد أعطى الانسان قوى معنوية تتصرف بشعوره واحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة التى يسمونها العقل ولا يعقلون سرها ولا يدركون حقيقتها ولا كنهها .

فالانسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ، ولا محدود الرغائب ، ولا محدود العلم ، ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعة فى الكون تصرفا لاحد له باذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته ، وملكه الأرض ، وسخر له عوالمها أعطاه أحكاما وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهى تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذى كان له كل تلك المزايا ، فلهذا جعله الله خليفته فى الأرض وهو أخلق بهذه الخلافة ، أليس من حكمة الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، أن جعل الانسان بهذه الموهبة خليقته فى الأرض يقيم سنته ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه ، وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الانسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، فلا عجب أن يكون الانسان خليفة الله فى الأرض " .

ويوجه الزمخشرى الآية فى خلافة آدم فى الأرض وفى علمه الأسماء الى عموم الجنس الآدمى اذ قال : " الخليفة من يخلف غيره، والمعنى خليفة منكم لأنهم كانوا — أى الملائكة — سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته " .

ثم يقول بعد ذلك : واستغنى بذكر آدم عن ذكر بنيه كما يستغنى بذكر القبيلة فى قولك مضر وهاشم "(١).

كما أن الشيخ محمد عبده قد عمم فقال : " فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما فى كل ما ميز الله به الانسان على سائر المخلوقات " فكل حى من الأحياء المحسوسة ، والغيبية له استعداد محدود وعلم الهامى محدود وعمل محدود وأما الانسان فقد خلقه الله ضعيفا وخلقه جاهلا ، ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ، ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء "(٢).

وخلاصة القول فى استخلاف الله لآدم وأمر الملائكة بالسجود له ينحصر فى ثلاثة أشياء :

الأول : تكريم الانسان الأول بأمر الله تعالى الملائكة بالسجود له والمسوغ لذلك التكريم هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة .

الثانى : أن أبوة آدم للنوع الانسانى هى موضع التكريم والاستخلاف فى الأرض وبالتالى تسرى وظيفة الاستخلاف فى ذريته على النحو الذى أراده الله ، ذلك أن الخطاب فى صدر الآية عام لبنى الانسان ، والعموم مستفاد فى ضمير المخاطبين فى قوله تعالى " خلقناكم ثم صورناكم " " وأن المراد ليس آدم فحسب ، اذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة "" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " فانهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا بعلم خاص "(٣).

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٥٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٠ ط مكتبة النهضة الحديثة .

الثالث : أن الخلافة فى الأرض اقتضاها ما يحتمله النوع الانسانى من أمانة وما يترتب عليه من مسئولية عمله ، وكسبه ، وتبعة الابتلاء التى أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق . وهذا القول هو الذى تطمئن اليه النفس لكثرة الأدلة عليه وترجيح معظم المفسرين له ، والله أعلم .

وأخذ الامام أبو عبد الله القرطبى من هذه الآية وجوب نصب امام ، قال رحمه الله :

" هذه الآية أصل فى نصب امام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة ... ثم قال : " دليلنا قول الله تعالى : ( انى جاعل فى الأرض خليفة ) ، وقوله تعالى : ( ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض ) ، وقوله تعالى : ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ) أى يجعل منهم خلفاء الى غير ذلك من الآى [1] " .

قال شيخنا الدكتور الصادق عرجون مد الله فى عمره : " ولما كان آدم باعتباره الفرد الكامل فى حقيقة الانسانية — كنموذج ممثل لها فى حقيقة الخلافة فى الأرض — هو البذرة الأولى لدوحة البشرية ، كانت جميع الحقائق التى تظهر فى مستقبل الحياة على أيدى ذريته كامنة فيه كما تكمن خصائص الدوحة العظيمة قبل وجودها فى بذرتها التى تنبت منها .

وقد أظهر الله للملائكة ما أودعه فى نفس آدم من الحقائق الكونية ، والسنن الالهية ، والعلوم والمعارف التى ستظهر على أيدى ذريته من بعده تدريجا تبعا لمقتضيات الحياة ليكون ذلك جوابا تفصيليا عمليا مشهودا للملائكة الذين استخبروا عن شأن الخلافة فى الأرض وحال الخليفة القائم عليها ، بعد

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٦٤ .

الاجابة الاجمالية التى ردت العلم المحيط الى الله تعالى وحده ( انى أعلم ما لا تعلمون ) [١] وفى هذه الاجابة الى جانب الاعلام والتعليم تعريف بقدر من اصطفاه الله لخلافته ، وابراز لفضله وشرفه [٢] " .

وبهذا القدر يتبين لنا مهمة الانسان على هذه الأرض ومكانته فيها وعناية الله له وتفضيله على سائر المخلوقات .

*** *** ***

---

(١) البقرة الآية ٣٠ .

(٢) الموسوعة فى سماحة الاسلام جـ ١ ص ١٦٧ .

## الفصل الرابع

### الانسان والغرائز المختلفة فيه

خلق الله في الانسان غرائز شتى ، وهي فطرية أوجدها فيه كي يستطيع أن يعيش ويحفظ نفسه ، ويبقى نسله على الأرض . وأهم الغرائز التي نسود ذكرها هنا هي :

١ ـ غريزة البحث عن المطعم والمشرب .
٢ ـ غريزة الادخار .
٣ ـ غريزة الدفاع عن النفس والمقاتلة .
٤ ـ غريزة الخوف .
٥ ـ غريزة الجنس .
٦ ـ غريزة الأبوة والأمومة .
٧ ـ غريزة حب الظهور والثناء .
٨ ـ غريزة حب الاستطلاع .
٩ ـ غريزة المحاكاة والتقليد .
١٠ ـ غريزة الاجتماع .

ولا يخفى أنه من الثابت لدى علماء النفس أن الغرائز لا يمكن اخمادها لأنها ضرورية لبقاء الحياة . ولا يمكن كبتها ولا محاولة ذلك لأن الكبت قد يولد عقداً نفسية خطيرة .

لكن الغرائز يجب كبح جماحها والحد من سورتها ، كما يجب تحويلها ، والانتفاع بها بأساليب التربية الصحيحة تحت حكم القرآن والسنة والعقل .

والعقل السليم هو الذى يميز الخير من الشر ، وهو لا يكفى وحده اذ لابد من مساعدته بالوحى السماوى الذى يبين الأخلاق الحسنة والعادات السيئة ثم يضع أساليب التربية الناجحة للنفس الانسانية على أكمل وجه وأيسره ، وهذا ما فعله القرآن الكريم وسيأتى بيانه ان شاء الله .

## ■ الغرائز نعمة أو نقمة :

هذه الغرائز فى الانسان اما نعمة عظيمة ان احتكمت بالعقل والدين وتوجهت بتوجيههما اذ لولا غريزة البحث عن الطعام والشراب لمات الانسان جوعا أو عطشا ، ولولا غريزة الجنس لانقرضت البشرية من الوجود ، ولولا غريزة حب الثناء والظهور لم يحصل تنافس وسباق على الفضيلة ، ولولا غريزة الادخار للمستقبل لم يحصل سعى ولا كسب وتعطلت طاقات بشرية كثيرة عن العمل ، ولولا غريزة الدفاع عن النفس والمقاتلة لما حصل دفاع عن الذات والعرض والولد والضعيف والدين ، ولولا غريزة حب الاستطلاع لما حصل اكتشاف ولا علم .

لكن هذه الغرائز اذا تركت وشأنها ولم يكبح جماحها ويسيرها العقل السليم والدين القويم لما خلقت له من الخير والصلاح والاصلاح ، لصالح الفرد وصلاح المجتمع ، انقلبت شرا مستطيرا على الفرد نفسه وعلى المجتمع الذى يعيش فيه ، اذ تصبح غريزة الجوع مثلا شرها وبطنة . وغريزة الجنس فجورا وفسقا واعتداء على أعراض الناس ، وغريزة الادخار طمعا وشحا وسرقة ونهبا . وغريزة حب الظهور علوا واستكبارا واستبدادا وخيلاء ، وغريزة حب الاستطلاع بحثا عن عيوب الناس ، وتجسسا دنيئا .

والله سبحانه وتعالى الذى خلق فى الانسان هذه الغرائز ووهبه العقل ليحكمها ويوجهها الوجهة الحسنة جعل الانسان حر الارادة حتى لا يكون مكرها فيما يلزمه به العقل والدين ، وقد عبر القرآن عن هذه الحرية بأوضح تعبير :

قال تعالى : ( ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا )(١) .

وقال تعالى : ( انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا )(٢) .

وقال تعالى : ( وهديناه النجدين )(٣) .

وقال تعالى : ( ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها )(٤) . كما قال تعالى : ( لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى )(٥) .

والقرآن الكريم عبر عن وجود الغرائز فى الانسان تعبيرا بينا قبل أربعة عشر قرنا وقبل أن يظهر الى الوجود علماء النفس الذين اكتشفوا هذه الغرائز والطبائع والميول فى الانسان .

قال تعالى : ( وكان الانسان قتورا )(٦) ، ( وتحبون المال حبا جما )(٧) ، ( واحضرت الأنفس الشح )(٨) . وهذه الآيات وغيرها تبين غريزة الادخار وطبيعة الشح فى النفس البشرية .

وعن غريزة الخوف والضعف البشرى يقول تعالى : ( ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا )(٩) .

ويقول تعالى ( وخلق الانسان ضعيفا )(١٠) ، ( فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين )(١١) .

---

(١) ، (٢) الدهر الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .
(٣) البلد الآية ١٠ .
(٤) الشمس الآية ٧ — ١٠ .
(٥) البقرة الآية ٢٥٦ .
(٦) الاسراء الآية ١٠٠ .
(٧) الفجر الآية ٢٠ .
(٨) النساء الآية ١٢٨ .
(٩) المعارج الآية ١٩ .
(١٠) النساء الآية ٢٨ .
(١١) آل عمران الآية ١٧٥ .

ومن غريزة حب الظهور والاستعلاء وحب الثناء • يقول تعالى : ( ان الله لا يحب كل مختال فخور )(١) • ويقول تعالى : ( ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى )(٢) • ويقول تعالى : ( لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب )(٣) •

ومن ما ينشأ عن غريزة الأبوة والأمومة من حب الولد والخوف عليه ، يقول تعالى : ( وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا )(٤) •

ومن فطرة الايمان المركوزة فى النفس البشرية وظهورها عند الخوف ، يقول تعالى : ( واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه )(٥) ، ( واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه )(٦) ، ( واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين )(٧) •

ومن غريزة الاجتماع يقول تعالى : ( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا )(٨) •

الى غير ذلك من الآيات الدالة على وجود الغرائز فى النفس الانسانية ، ومع اعتراف القرآن الكريم بوجود هذه الغرائز لم يتركها بدون ضوابط وقيود، تضبط مسارها وتحد من جموحها • بل وجهها الى الوجهة الصالحة التى خلقت من أجلها ، والأمثلة على ذلك فى الوحى الالهى كثيرة منها على سبيل المثال : غريزة الجنس ، يقول تعالى : ( زين للناس حب الشهوات من

---

(١) لقمان الآية ١٨ •
(٢) العلق الآية ٦ — ٧ •
(٣) آل عمران الآية ١٨٨ •
(٤) النساء الآية ٩ •
(٥) الزمر الآية ٨ •
(٦) الروم الآية ٣٣ •
(٧) لقمان الآية ٣٢ •
(٨) الحجرات الآية ١٣ •

النساء ... الى قوله تعالى : ( ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب )(١) . فالانسان يحب الشهوات بل هي مزينة له ومع هذا لم يترك للانسان الحبل على الغارب ينطلق مع الشهوات يعب منها عبا مفرطا حتى ينزل من مرتبته الانسانية الى مرتبة البهيمية ، كلا . ان القرآن يحدد له ذلك : قال تعالى في وصف المؤمنين : ( والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون )(٢) .

ومعنى ذلك أن الشهوة التي زينها الله للانسان وأوجدها فيه جعل لها مجالا محصورا فيما أباحه الله من الزوجات أو الاماء ذات ملك اليمين ، وما عدا ذلك فهو حرام ، وبهذه القيود التي وضعها القرآن الكريم في مجال غريزة الجنس تنظمت هذه الشهوة ولم تكبت ، وحفظت ولم تهمل ، وضبطت فلم تسيب ، وحددت لها ميادينها المباحة التي تكون فيها آمنة مطمئنة ، وهذه الميزة في القرآن الكريم لم يسبقها اليه أحد فالمسيحية مثلا تنظر الى الشهوة الجنسية على أنها رجس من عمل الشيطان . وعلى الذين يرغبون في التطهر والدخول في ملكوت الله أن ينزهوا أنفسهم عن الاحساس — مجرد الاحساس — بالشهوة الى المرأة . وهذه النظرة في الواقع صادمة للفطرة ، لأن الشهوة عميقة في النفس الانسانية ، ولابد أن يشعر بها الانسان شاء أم أبى لأن الذي خلقها في الانسان لم يخلقها عبثا ، بل أوجدها لحفظ النوع الانساني ، فالنتيجة لهذه النظرة هي الكبت الذي يولد صراعا عنيفا داخل النفس الانسانية سواء في ذلك الرجل والمرأة ، ومن ثم ينتج عن هذا الصراع الاضطرابات النفسية والعصبية ، وبالتالي الوقوع في الجريمة .

ومثل آخر عن عناية القرآن الكريم بالغرائز النفسية وتهذيبها انه يعترف بحق النفس أن تجمع المال وتتملكه لأن ذلك ليس من نوازع الشيطان بل هو طبيعة

---

(١) آل عمران الآية ١٤ .
(٢) المؤمنون الآية ٥ — ٧ .

بشرية ، لكن هذا الاعتراف بغريزة حب التملك والادخار لا يعنى أن يترك للانسان الحبل على الغارب لجمع المال بأى وجه اذ لو ترك له ذلك لجمعه بشتى الوسائل من سرقة ونهب وغش ورشوة واختلاس وربا ونحو ذلك . بل قيده بقيود ووجهه فى جمع المال الى المجالات المشروعة المباحة . اذ لا يكون المال حلالا الا من هذه الطرق ثم فرض عليه فى هذا المال الحلال حقا يدفعه الى مصارف معينة ، وندبه الى الانفاق على السائل والمحروم ( وفى أموالهم حق للسائل والمحروم )(1) وهذه القيود الشرعية ليست كبتا ، كما فعلته المسيحية حين حاربت جمع المال ووصفته بأنه اطاعة للشيطان ومجلبة لغضب الرب . فهى بهذه النظرة تقاوم غريزة مركوزة فى النفس البشرية فنتج عن ذلك الكبت الذى تولد عنه سلوك منحرف(2) .

وبهذين المثالين نكتفى للتدليل على أن القرآن الكريم اعترف بالغرائز ولم يكبتها وسلك بها مسالكها المشروعة وهذبها وبذلك استقامت النفس على هدى من الله وسلكت الطريق الأقوم . ( ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم )(3) .

ولابد لنا أن نوضح معنى الغريزة ونعرج على بعض أقوال الباحثين فى الغرائز كى نعطى القارئ الكريم صورة عن هذه القوى الكامنة فى النفس البشرية .

فالغريزة فى اللغة هى الطبيعة والقريحة والسجية من خير أو شر ، وقال اللحيانى "هى الأصل والطبيعة" . قال الشاعر :

ان الشجاعة فى الفتى ∴ والجود من كرم الغرائز

وهى مشتقة من غرز الابرة فى الشىء غرزا ، وغرزها أدخلها ، وكل ما سمر فى شيء فقد غرز(4) . وهى دوافع فطرية تولد مع الكائنات الحية مجهزة

---

(1) الذاريات الآية ١٩ .
(2) من كتاب الانسان بين المادية والاسلام للأستاذ محمد قطب "بتصرف" .
(3) الاسراء الآية ٩ .
(4) لسان العرب مادة غرز .

بها ، ويرى "مكدوجل"(١) أن جميع الدوافع التى تثير نشاط الفرد يمكن أن ترد الى دوافع أساسية نهائية هى الغرائز . فالغرائز هى المحركات الأولى لكل نشاط حركى ، أو عقلى ، فردى أو جماعى ، يقوم به الفرد ، وهى لا تزوده بالقوة الدافعة فقط ، بل وتحدد غايات سلوكه أيضا(٢) .

ويعرف بعض الباحثين الغريزة بأنها استعداد فطرى نفسى جسمى يدفع الفرد الى أن يدرك وينتبه الى أشياء من نوع معين ، ويشعر ازاءها بانفعال خاص ، ثم يسلك نحوها سلوكا معينا ، أو يحاول ذلك على الأقل(٣) . فالفأر أن رأى قطا انتبه اليه انتباها خاصا ، ثم شعر بانفعال الخوف ، فاندفع هاربا . والغرائز توجد عند الخليقة بأسرها من الحشرات الى الثدييات والانسان . ويشترك الانسان مع الثدييات العليا فى الغرائز الآتية : غريزة التماس الطعام ، التماس الراحة ، النوم ، الاخراج ، التنفس ، الهرب ، المقاتلة ، الغريزة الجنسية ، الوالدية ، الغريزة الاجتماعية ، الاستطلاع ، السيطرة ، الخضوع ، التملك والادخار ، الاستغاثة ، الهجرة وغيرها . ولكل غريزة مثير ينشطها ، وانفعال يصاحبها ، وسلوك يصدر عنها .

وتتعدل الغرائز وتتحور من ناحية مثيراتها ومن ناحية السلوك الصادر عنها ، اما الانفعال فهو الجانب الأساسى المركزى للغريزة ، وهو الجانب الذى لا يتحور ولا يتعدل من الغريزة . فغريزة التماس الطعام انفعالها الجوع ، وغريزة الهرب انفعالها الخوف ، والمقاتلة انفعالها الغضب ، والوالدية انفعالها الحنو ، والغريزة الجنسية انفعالها الشهوة .

---

(١) هو وليم مكدوجل ولد فى لانكشير بانجلترا وتعلم فى جامعات كيمبردج واكسفورد وجوتنجن ، كان أستاذا فى علم النفس بجامعة هارفرد سنة ١٩٢٠ — سنة ١٩٢٧م قام ببحوث ممتازة فى علم النفس الاجتماعى والفسيولوجى ، توفى سنة ١٩٣٨م أ ٠ هـ ، الموسوعة العربية الميسرة .

(٢) أصول علم النفس لأحمد عزت راجح ص ٨٥ ط ٩ سنة ١٩٧٣م .

(٣) المصدر السابق .

والغرائز عند الانسان تتعدل فتشتق منها العواطف والعادات والميول والحاجات الفرعية المختلفة • فهي ليست المحركات الوحيدة للسلوك لكنهــا المحركات الأساسية الأولى •

" والغرائز عامة يشترك فيها الناس جميعا ، وهذه الغرائز دفعـت الباحثين الى القيام بدراسات واسعة عن الطيور والحيوانات ، فذكروا مثـلا : أن الطيور في هجرتها تسير في جموع زاخرة لا يحصيها عدد وراء قائد واحــد يقودها كأنها فرقة مدربة ، وتدور وتنعطف دون أن يفارق واحد منها ترتيبـه في هذا السرب • فكأن السرب وحدة واحدة يحركها عقل واحد • وضربوا مثـلا آخر بالبط البرى فانه لا ينزل في مكان قبل أن يرسل مجموعة منه للاستطلاع ، فاذا ما أحست بالخطر صرخت صرخة عالية هب على أثرها السرب دفعـة واحدة محلقا في الفضاء مبتعدا عن الخطر ، وهذه الظاهرة يسمونها غريـزة التجمع حيث تغلب على الحيوانات الهادئة ، ويتم لها التزاوج والبحث عن الغذاء والاشتراك في الدفاع والهجوم وقت الخطر (١) • "

"لكن الغريزة عند الانسان تختلف اختلافا كبيرا عنها لدى الحيـوان ، ذلك أن غريزة الانسان مرنة قابلة لأن تخلع ثوبها الفطرى لتلبس ثوبا آخـر تظهر فيه بعيدة عن أصلها الطبيعـى ، ولا تكاد تشاهد الغريزة بشكلهـا الفطرى لدى الانسان الا عند الطفل ، أو الانسان البدائي ، أما الراشـد المتحضر فغرائزه تغطى بعوامل البيئة المختلفة (٢) • "

والغرائز كثيرة حصرها بعض الباحثين بسبع عشرة غريزة والبعض أوصلها الى خمس وأربعين غريزة ولست أرى جدوى للخوض في حصرها أو التعمـق في تفاصيل تأثيرها لكني سأذكر بعضا منها وطرفا من تأثيرها على السلـوك الانساني فيما يتعلق ببحثنا •

---

(١) لمحات في التربية الاسلامية لشيخنا د • محمد أمين المصرى رحمه اللـه ص ٥٤ ط دار الفكر "بتصرف" •

(٢) المصدر السابق •

فغريزة الغضب لها مثيرات عدة . فحينما يرى الانسان عدوا له ، أو يجد ظلما يحيق به أو يواجه شخصا يستثيره ، تثور ثائرته فيستعد لمهاجمة عدوه ويترقب الفرصة لازاحة الظلم عن نفسه والانتقام ممن ظلمه ، والرد على من استثاره . هذا الانسان قد تتعدل غريزة الغضب عنده بفعل مؤثر من المؤثرات ، فلا يغضب اذا تطاول عليه جاهل يشتم أو اعتداء . وهذا لا يعنى أن الغضب قد انمحى نهائيا فى نفسه ولكنه كظم غيظه ، ولم ينتصف لنفسه، وقد تثور ثائرته اذا رأى ظلما يحيق بغيره ، أو رأى حرمات الله تنتهك . هذا هو الانسان السوى الذى تعدلت فطرته بأهم العوامل وأصدقها ، واستجابت لقول الله تعالى : ( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين )(١) ولقوله تعالى : ( واذا ما غضبوا هم يغفرون )(٢) . ولقوله صلى الله عليه وسلم " لا تغضب "(٣) فتعدل الغريزة معناه أن تستبدل الغريزة بمثيراتها الطبيعية مثيرات أخرى تتجه بها الى السمو والكمال حيث يستبدل المرء بسلوك الطيش والجهالة سلوك الاناة والروية .

ويرى " فرويد " ، أن الانسان يولد مزودا بغريزتين هما الغريزة الجنسية وغريزة العدوان ، وتوسع فى مفهوم الغريزة الجنسية اذ جعلها أصل كل محبة وصداقة .

والغريزة الجنسية عنده تشمل كل ما من شأنه أن يخفظ التوتر ، ويجلب اللذة ، وهى تظهر منذ ميلاد الطفل وتأخذ فى التطور حتى تصل الى طورها الناضج عند البلوغ ، وأما العدوان فهو ميل فطرى فى الانسان يكره أخاه بالفطرة ، ووراء المحبة الظاهرة بين الناس عداء كامن مستور ، فالظلم والعدوان من شيم النفوس ، ومهمة المجتمع تهذيب هذه الميول العدوانية "(٤) أما الغريزة

---

(١) آل عمران الآية ١٣٤ .
(٢) الشورى الآية ٣٧ .
(٣) حديث صحيح رواه البخارى جـ ٨ ص ٨٥ .
(٤) مقالات فى علم النفس لمحمد مصطفى الشعيبى ص ٨ ط ٢ مكتبة النهضة المصرية . بتصرف .

الجنسية فى نظره فلا يمكن الحد من سورتها أو اعتراض طريقها بأى قيد لأن ذلك يؤدى الى الكبت أو القمع — كما يسميه — وهذا يتنافى مع حرية الانسان على حد زعمه (١) .

وما دمنا قد عرضنا لرأى " فرويد " فى الغريزة الجنسية كان لزاما علينا أن نعرض رأى الاسلام فيها ليتميز الحق من الباطل . تقول هذه الغريزة المندفعة كالسيل لو تركت وشأنها كما يريد لها " فرويد " لاهلكت الحرث والنسل وأفسدت المجتمعات ودمرت كل شىء يقف فى طريقها .

لكن الاسلام لم يترك هذه الغريزة الخطيرة وشأنها فى الانسان كما هى فى الحيوان ولم يكبتها أو يخمد ثارها كما ادعى " فرويد " بل جعل لها مسارب مشروعة تتصرف فيها ومصارف خاصة تستقربها لا تتعدى أماكنها ولا يمتدى على محارمها ، وبذلك تعدلت هذه الغريزة الجامحة من غريزة حيوانية مجنونة الى غريزة انسانية هادئة مهذبة ، وبذلك تنتظم المجتمعات فى سلك من الأخلاق الكريمة ، فتصان الأنساب ، وتحفظ الأعراض ويقام للحرمات وزنها وللآداب شأنها ذلك أن الشريعة قد تكفلت بحفظ الضرورات الست وهى الدين ، النفس ، العقل ، المال ، العرض ، النسب .

فحرم الاسلام الزنى ، قال تعالى : ( ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا ) (٢) . وشدد فى العقوبة على مرتكبه ، فقال تعالى : ( الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ) (٣) .

وحرم عددا من النساء القريبات ، قال تعالى : ( ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم

---

(١) مقالات فى علم النفس لمحمد مصطفى الشعبى ص ٨ ط ٢ مكتبة النهضة المصرية . بتصرف .
(٢) الاسراء الآية ٣٢ .
(٣) النور الآية ٢ .

أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم )(١) .

ثم بعد أن انتهى من ذكر المحرمات فتح الباب المشروع لهذه الغريزة فيما وراء ذلك بالطريق المشروعة ، قال تعالى : ( وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين )(٢) .

فحيث حرم ما حرم بحكمته العظيمة وأباح ما أباح بعلمه المحيط بما يصلح لهذا الانسان ويؤهله لخلافته فى الأرض . ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير )(٣) هذه المحال التى أباحها الله للانسان ليلبى دوافع فطرته بالزواج هى الطريق التى يحب الله أن يلتقى عليها أفراد الجنسين لتكوين الأسر الطاهرة واقامة البيوت العامرة ( محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة )(٤) . أى أن الابتغاء بالأموال مقيد بشرط الاحصان وهو الزواج ونفى السفاح ولذلك قال تعالى : ( فآتوهن أجورهن فريضة ) والأجور هى المهور المفروضة ، وهذا ينفى شراء الأعراض بالأموال ويؤكد أن الصداق فرض لا يحل النكاح الا به ولو كان شيئا رمزيا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " التمس ولو خاتما من حديد "(٥) .

---

(١) النساء الآية ٢٣ — ٢٤ .

(٢) نفس السورة الآية ٢٤ .

(٣) الملك الآية ١٤ .

(٤) النساء الآية ٢٤ .

(٥) رواه البخارى ج ٧ ص ١٧ ورواه غيره .

ولنأت الى نوع ثالث من أنواع الغريزة المودعة في النفس الانسانية وهو الخوف أو حب البقاء ، فالخوف تثيره عدة عوامل كالقتل والظلم والتعذيب ونحو ذلك مما يجعل الانسان قلقا مضطرب النفس مهزوز الشخصية ، مرتبكا في أموره مترقبا مصيره .

فيأتي القرآن الكريم ويزيح عنه هذا الكابوس المروع ، ويسوق اليه الطمأنينة ، قال تعالى : ( ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ) (١) ، ويحض الانسان على الصبر عند الشدائد والجد عند احتدام المعارك بين الحق والباطل ، ( يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ) (٢) . وقال تعالى : ( فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ) (٣) ، وبذلك نزع الله من قلوب أحبائه الخوف من غيره ، وأيد لهم الخوف منه وحده ، فمتى اعتدلت غريزة الخوف الى هذا الحد شعر الانسان بالسعادة الحقيقية . ولا يعني ذلك أن غريزة الخوف قد انمحت ، لكن الاسلام حد من سطوتها على النفوس ، وضراوتها على القلوب فتعدلت واستقامت . ولنضرب لذلك مثلا بالصحابية الجليلة سمية زوج ياسر ، وأم عمار رضي الله عنهم أجمعين . كان يثار خوفها لأتفه الأسباب ، لكنها بعد ايمانها بالله ابتليت بصنوف من العذاب لتنطق بكلمة الكفر ارضاء لرؤوس الكفر — وما كان يضيرها ذلك ما دام قلبها مطمئنا بالايمان — لكنها رضي الله عنها آثرت أن تموت تحت العذاب مستعذبة له على أن تحرك لسانها بكلمة كفر .

تلك ثلاثة أمثلة من أنواع الغرائز بينا فيها كيف تكون جامحة حين تترك بدون تقويم ، وذكرنا أثرها في هذه الحالة على الفرد نفسه وعلى المجتمع حوله ، ثم تبين من عرضنا لتوجيه الاسلام لها وتعديلها فاستقامتها استجابة للفطرة السليمة المركوزة في النفس البشرية التي فطر الله الناس عليها . " لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " .

... ... ...

---

(١) آل عمران الآية ١٣٩ .
(٢) نفس السورة الآية ٢٠٠ .
(٣) نفس السورة الآية ١٧٥ .

## الفصل الخامس

## الاسلام دين الفطرة

والفطرة لغة : هي الجبلة والطبيعة والخليقة والغريزة بمعنى واحد ، من فطر البعير عن نابه اذا انشق ، تقول بجبلة الله على كذا فطره عليه ، وكذا السجية لما سجى عليه الانسان من قولهم عين ساجية أى فاترة خلقة ، وأكثر ما يستعمل ذلك فيما لا يمكن تغييره (١) .

والفطرة التى فطر الله الناس عليها هى الاسلام ، ومعنى ذلك أنه الدين المتفق مع ما جبل عليه الانسان بصفته انسانا ميزه الله على غيره من المخلوقات بالعقل وركز فيه استعدادا لتقبل المعلومات ووهبه قدرة على اكتساب المعارف . قال الشوكانى : " وهى الاسلام والتوحيد " (٢) .

والخليقة ما كان لها أن تستقل بنفسها لادراك قواعد الفطرة ، والاهتداء الى العمل لتطبيق العهد الربانى الذى أخذه الله على بنى الانسان ، فكان لابد أن يرسل الله لها من يذكرها بذلك الميثاق ويبين لها ما يترتب عليه من واجبات جملة وتفصيلا ، ويهديها عن طريق التربية والتعليم ، والنظر الى اكتشاف معالم الفطرة ، فتأخذ نحو الرشد الكامل .

ولم تزل البشرية تخطو فى مراحل الترقى والمعرفة حتى تم رشدها الدينى بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فجاءها صلوات الله وسلامه عليه بخلاصة ما جاء به الأنبياء والرسل قبله وبما لم يأتوا به مما اقتضته درجة الرشد وحاجة الكمال ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ) (٣) .

---

(١) لسان العرب مادة فطر .
(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٢٢٤ .
(٣) المائدة الآية ٣ .

وقد اختلفت آراء الباحثين من قدماء ومحدثين حول الفطرة التى جبل عليها الانسان (::) • فذهب البعض ومنهم " سقراط (*) " الى أن الفطرة خير • ونفس الطفل وعاء لكل كمال • وذهب البعض الآخر ومنهم " أفلوطين (*) " الى أن الفطرة شر ، والنفس انما هبطت من عالمها الروحى الى العالم المادى للابتلاء والاختبار ولا تطهر وتزكو الا بالرياضة والمجاهدة •

وهذا الرأى سار عليه كثير من الفلاسفة والشعراء المتشائمين •

يقول أبو العلاء المعرى (*) :

وتحن فى عالم صيغت أوائله ∴ على الفساد ففى قولنا فسدوا

وقال أيضا :

والشر فى الجد القديم غريزة •• فبكل نفس منه عرق ضارب

---

(::) نقلا من كتاب القرآن والطبائع النفسية لأستاذنا الشيخ على محمد حسن العماوى ص ١٨ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية •

(*) سقراط : فيلسوف يونانى من أثينا ولد سنة ٤٦٩ وتوفى سنة ٣٩٩ ق • م لم يترك أثرا مكتوبا لكن سجل حياته وتعاليمه تلميذه أفلاطون ، اتهم بافساد عقائد الشباب فحوكم وحكم عليه بالموت أ • هـ باختصار من الموسوعة العربية الميسرة — ط دار الشعب بالقاهرة مؤسسة فرانكين ص ٩٨٥ •

(*) هو مؤسس الأفلاطونية الجديدة ولد بأسيوط سنة ٢٠٥ وتوفى سنة ٢٧٠ م ، وألم بفلسفة الهند وفارس ، تأثر بفلسفة أفلاطون ومن نظرياته أن كمال الانسان يتحقق بتجرده من الجسد واندماجه مع الواحد الذى هو " الله " •

(*) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى شاعر فيلسوف ولد بمعرة النعمان سنة ٣٦٣ هـ وتوفى بها سنة ٤٤٩ هـ أصيب بالجدرى وهو فى الرابعة من عمره فعمى ، قال الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة له عدد من الدواوين الشعرية منها لزوم ما لا يلزم ط وسقط الزند ط وعبث الوليد نقد فيه ديوان البحترى •

ويصف المتنبي (*) النفس بأن من طبيعتها الظلم اذ يقول :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ∴ ذا عفة فلعله لا يظلم

ويرى فريق ثالث من الباحثين أن الفطرة مستعدة للخير والشر ، ومنهم ( أفلاطون ) .

ومن الفلاسفة الغربيين من يرى أن الطفل منذ ولادته الى سن محدودة ليس له حياة أدبية ، فلا تنسب فطرته الى الخير ولا الى الشر لأنه لا يعقل مايفعل (١) .

بعد هذا العرض الموجز لأقوال الباحثين في الفطرة نقف وقفة مع القرآن الكريم حيث يقرر في آية واحدة تقريرا صريحا بينا أن الفطرة كلها خير ، قال تعالى : ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) (٢) . وأن الشر طارئ عليها من خارجها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (٣) هذا الشر الطارئ انما يأتي بتوجيه المربين وعوامل البيئة المختلفة وإغواء الشياطين من الانس والجن " ( شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ) (٤) . والدليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : " خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا" (٥) .

---

(*) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن حسن الجعفي الكندي الكوفي شاعر حكيم ولد في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ ونشأ بالشام مدح سيف الدولة الحمداني وكافور الاخشيدي ثم غضب على الأخير وهجاه لعدم توليته وقتل وهو عائد الى بلده في مكان يسمى النعمانية ببادية الشام سنة ٣٥٤ هـ له ديوان حافل بالحكم والغرر من شعره مشروح ط .

(١) القرآن والطبائع النفسية ص ١٩ .

(٢) الروم الآية ٣٠

(٣) صحيح رواه الشيخان . خ - جنائز ٩٣ م - قدر رقم الحديث ٢٢

(٤) الأنعام الآية ١١٢ .

(٥) صحيح مسلم جنة رقم ٦٣ جـ ٤ ص ٢١٩٧ ورواه أحمد جـ ٤ ص ١٦٢ .

وقد ذهب كثير من المفسرين الى أن معنى الفطرة أن الله خلق البشر قابلين للتوحيد ، ودين الاسلام ، غير نائين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجاريا للعقل منسجما مع النظرة الصحيحة ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر. فالله سبحانه قد أودع في النفس الانسانية العقل الذى يدرك طريق التقوى كما يدرك طريق الفسوق والعصيان. ويؤيد هذا قول الله تعالى : ( قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها )(١) . فقد نسب الفعلين " زكى ، ودسى " الى الانسان . وبذلك تكون الحجة قد قامت على القائلين بأن الفطرة هي الاستعداد للخير والشر

وما ذكروه من أدلة فتوجيهها :

أن الالهام ، في قوله تعالى : ( فألهمها فجورها وتقواها )(٢) والهداية ، في قوله تعالى : ( وهديناه النجدين )(٣) وفي قوله تعالى : ( انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا )(٤) ، ليس المراد منه أن الفجور والكفر في فطرة الانسان وجبلته بل ان معنى الالهام الافهام بواسطة العقل الذى يدرك الطريقين كما أسلفنا ، ومعنى الهداية الارشاد الى الطريقين الخير والشر ، والانسان هو الذى يختار طريق الخير ان أحسن الاختيار ، ويسلك طريق الشر ان أساء بفعل العوامل الآنفة الذكر . وهذا هو الذى عليه معظم المفسرين ، وهو الصواب في نظرى . والله أعلم .

ولابد من دعم هذا القول بذكر أقوال المفسرين في تفسير الآية وذكر أقوال العلماء في الأحاديث الواردة في هذا المعنى . قال العلماء من المفسرين والنحاة معناه الزموا واتبعوا دين الله الذى خلق الناس له ، ولهذا نصب على المصدر(٥) . ومعنى ذلك فطر الله الناس على ذلك فطرة . وفطر الناس عليها أى لها ، وهذه الفطرة أضافها الله اليه اضافة مدح لا اضافة ذم فعلم

---

(١) الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٢) نفس السورة الآية ٨ .
(٣) البلد الآية ١٠ .
(٤) الدهر الآية ٣ .
(٥) الرسالة التاسعة من الرسائل المنيرية ص ١٩٢ .

أنها فطرة محمودة لا مذمومة ، يبين ذلك قوله تعالى : ( فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ) . فدل على أن اقامة الوجه للدين حنيفا هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، مثل قوله ( كتاب الله عليكم ، وسنة الله ) .

ثم اختلف المفسرون فى تفسير الفطرة على أقوال : وكذلك الخلاف فى قول النبى صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة ..." .

قال أبو هريرة ، وابن شهاب ، ومجاهد ، وقتادة الفطرة المراد بها الاسلام . ثم قال مجاهد : ( لاتبديل لخلق الله ) أى لا تبديل لدين الله .. وقال سعيد بن جبير وقتادة والنخعى وروى عن ابن عباس وعكرمة فى احدى الروايتين . عنهما كذلك (١) .

والقول بأن الفطرة هى الاسلام هو احدى الروايات عن الامام أحمد رحمه الله . وذكره ابن عبد البر فى التمهيد (٢) ، وذكر القرطبى تعقيبا على هذا القول بقوله : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل .... ثم قال : ومعنى هذا أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه . وأنهم اذا ماتوا قبل أن يدركوا فى الجنة ، أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار (٣) . انتهى .

وقال أبو بكر النقاش (*) : اختلف أهل التأويل فى الفطرة فقيل على ملة ابراهيم ثم ذكر قريبا مما ذكره القرطبى .

---

(١) الرسالة التاسعة من الرسائل المنيرية ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٥ .

(*) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون ، أبو بكر النقاش : عالم بالقرآن وتفسيره . أصله من الموصل ، ومنشأه ببغداد ، من تصانيفه : سفاء الصدور — خ فى التفسير و "الاشارة "فى غريب القرآن ، والموضح فى غريب القرآن ومعانيه ، والمعجم الكبير فى أسماء القراء ولد سنة ٢٦٦ وتوفى سنة ٣٥١ هـ أ . هـ أعلام .

واحتج لهذا القول بأدلة منها :

حديث أبى هريرة فى الصحيحين " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء . ثم قال أبو هريرة : ( اقرءوا ان شئتم قول الله تعالى : ( فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ) (١) ، وما ثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل " خلقت عبادى حنفاء مسلمين فاجتالتهم الشياطين عن دينهم — وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا (٢) " .

وقال بعضهم : كل مولود يولد على ما سبق له فى علم الله أنه سائر اليه (٣) . وهذا القول لا يتمشى مع النصوص الآنفة الذكر لأن جميع ما خلق الله وجد حين وجد على ما سبق له فى علم الله أنه سائر اليه من حيوان وحشرات ونبات وجماد ونحو ذلك وقد رد هذا القول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله : " ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة فجميع البهائم هى مولودة على ما سبق فى علم الله . وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقا على الفطرة ، وأيضا فلو كان المراد بذلك لم يكن لقوله : " فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " معنى فانهما فعلا به ما هو الفطرة التى ولد عليها فلا فرق بين التهويد والتنصير وبين تلقى الاسلام وتعليمه وبين تعلم سائر الحرف والصنائع ، فان ذلك كله واحد فيما سبق به العلم . ثم قال : " فتمثيله صلى الله عليه وسلم بالبهيمة التى ولدت جمعاء ثم جدعت يبين أن أبويه غيرا ما ولد عليه " . ثم رد على القائلين بأن كل مولود يولد خاليا من المعرفة والانكار من غير أن تكون الفطرة تقتضى واحدا منهما ، بل يكون القلب كاللوح الذى يقبل كتابة الايمان والكفر وليس لأحدهما أقبل منه للآخر .

---

( ١ ) أخرجه الشيخان .
( ٢ ) رواه مسلم فى باب الجلسة رقم ٦٣ وأحمد ج ٤ ص ١٦٢ .
( ٣ ) الرسائل المنيريــــة الرسالة التاسعة ص ١٩٣ .

قال رحمه الله : فهذا قول فاسد جدا فحينئذ لا فرق بالنسبة الى الفطرة بين المعرفة والانكار والتهويد والتنصير والاسلام وانما ذلك بحسب الأسباب ، فكان ينبغى أن يقال فأبواه يسلمانه ، أويهودانه ، أوينصرانه ، فلما ذكر الملل الفاسدة دون الاسلام علم أن حكمه فى حصول سبب مفصل غير حكم الكفر ، ثم قال : ففى الجملة كل ماكان قابلا للمدح والذم على السواء لا يستحق مدحا ولا ذما .

والله تعالى يقول : ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فأمره بلزوم فطرته التى فطر الناس عليها ، وأيضا فالنبى صلى الله عليه وسلم شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق وشبه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف ، ومعلوم أن كمالها محمود ، ونقصها مذموم ، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة (١) .

قال الواحدى (*) : " والمراد بالناس هنا : هم الذين فطرهم الله على الاسلام ، لأن المشرك لم يفطر على الاسلام ، وهذا القول ليس بشيء ، قال القرطبى باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما فى حديث أبى هريرة " ما من مولود الا يولد على الفطرة " وساق الحديث ، فكل فرد من أفراد الناس مفطور أى مخلوق على ملة الاسلام ، ولكن لا اعتبار بالايمان والاسلام الفطريين ، وانما يعتبر الايمان والاسلام الشرعيان .

---

(١) الرسالة التاسعة من الرسائل المنيرية ص ١٩٤ .

(*) هو على بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدى مفسر ، عالم بالأدب ، نعته الذهبى بامام علماء التأويل أصله من ساوة ( بين الرى وهمذان ) ومولده ووفاته بنيسابور ، له من المؤلفات الوسيط خ والبسيط خ والوجيز ط كلها فى التفسير ، وأسباب النزول ط أ . هـ بتصرف من الأعلام لخير الدين الزركلى .

وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق .(١) وقد سئل الزهري عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزيه رضيع يعتقه ؟ قال نعم لأنه ولد على الفطرة وهي الاسلام . وقال الزهري أيضا : يصلى على كل مولود يتوفى وان كان لقية لأنه ولد على فطرة الاسلام .(٢) والاسلام هو قول لا اله الا الله ، وذلك في قوله تعالى : " أفمن شرح الله صدره للاسلام " قال ابن عباس : وأكثر المفسرين : لقول لا اله الا الله ، ولهذا كان معلوما بالفطرة أنه لابد لكل موجود من موجد ، ولكل مصنوع من صانع ، كما قال تعالى : " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون "(٣) يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم خلقوا أنفسهم مع اعترافهم ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله )(٤) ، ( قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله )(٥) . الى غير ذلك من الآيات الدالة على اعترافهم ومعرفتهم بوجود الخالق اعترافا فطريا . ذلك أنه لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم الى الاله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان اقرارهم بالله اقرارا فطريا من جهة ربوبيته أسبق من اقرارهم من جهة ألوهيته ، ولهذا انما بعثت الرسل تدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، فتفاصيل الأمر والنهي انما تعرف من جهة الرسل .

وأما الرب تعالى فهو معروف بالفطرة ( قالت رسلهم أفي الله شك )(٦) فالمشركون مقرون معترفون بأن الله ربهم وخالقهم ورازقهم وأنه رب السموات والأرض والشمس والقمر ، وأنه المقصود الأعظم . ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) .

---

( ١ ) الرسالة التاسعة من الرسائل المنيرية ص ١٩٦ .
( ٢ ) المصدر السابق .
( ٣ ) الطور الآية ٣٥ .
( ٤ ) لقمان الآية ٢٥ .
( ٥ ) المؤمنون الآيتان ٨٦ ، ٨٧ .
( ٦ ) ابراهيم الآية ١٠ .

فتبين من هذا أن الله تعالى فطر البشر كلهم على معرفته فطرة توحيد •

وكذلك فى قول الله تعالى : ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) ، لا شك أن فى هذه الآية دلالة واضحة على تكريم الانسان وتفضيله على كثير ممن خلق الله تعالى فهو أفضل من الجمادات والحيوانات ، وقد فطر الله الحيوانات والجمادات على تسبيحه ، وتنزيهه نطقا لا يفهمه أحد غير الذى أنطقها به • قال تعالى : ( تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا )(١) • وقال تعالى : ( ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه )(٢) • وقوله تعالى عن داود عليه السلام : ( انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق )(٣) ، الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل شيء يسبح بحمد الله حتى الجماد وأنها تطيع وتخشع ، كما أخبر تعالى عن سجود المخلوقات له ، قال تعالى : ( ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب )(٤) •

والمقصود اذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على تسبيح الله وتنزيهه والانسان أشرف منها فلأن يفطر هو على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى لما ركب الله فيه من العقل والتمييز والفطنة لاسيما وقد نطق الكتاب العزيز والسنة المطهرة بأنه تعالى فطره على الاسلام(٥) • والاسلام كلمة التوحيد لأنه المراد هنا •

---

(١) الاسراء الآية ٤٤ •
(٢) النور الآية ٤١ •
(٣) سورة ص الآية ١٨ •
(٤) الحج الآية ١٨ •
(٥) الرسالة التاسعة من الرسائل المنيرية بتصرف يسير ص ١٩٥ •

قال ابن القيم رحمه الله : " وليس المراد من ولادته على الفطرة أو على الاسلام خروجه من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده لقول الله تعالى : ( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا )(١) ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الاسلام لقربه ، فنفس الفطرة تستلزم الاقرار بخالقه ومحبته واخلاص الدين له " ثم قال : وليس المراد أيضا مجرد قبول الفطرة فان هذا القبول يتغير بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها ، وأيضا فان هذا القبول ليس هو الاسلام ، وليس هو هذه الملة ، وليس هو الحنيفية ، وأيضا فانه شبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء ، ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله ، ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بارسال الرسل وانزال الكتب ، بل المراد أن كل مولود فانه يولد على محبته لفاطره ، واقراره له بربوبيته ، وادعائه له بالعبودية ، فلو خلى وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك الى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، فيشتهى اللبن الذى يناسبه ويغذيه ، وهذا من قوله تعالى : ( ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى )(٢) وقوله : ( الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ) .

فالفطرة هى الاقرار بالكمال المطلق الذى لا نقص فيه للخالق سبحانه ، وكذلك فى الفطرة الاقرار بسعادة النفوس وشقاوتها وجزائها بكسبها فى غير هذه الدار ، وكذلك فى الفطرة معرفة العدل ومحبته وايثاره ، لكن تفصيل كل ما ذكر يتوقف على ارسال الرسل فلا يعلم التفصيل الا بهم ، فالرسل تذكر بما فى الفطر ، وتفصله ، وتبينه .

ولهذا كان العقل الصريح موافقا للنقل الصحيح ، والشرعة مطابقة للفطرة "(٣)

---

(١) النحل الآية ٧٨ .
(٢) الأعلى الآيتان ٢ — ٣ .
(٣) شفاء العليل لابن القيم ص ٦٣٠ .

والذى تبين لى فى هذا المبحث أن الانسان فطر على معرفة ربه وخالقه ورازقه وهى معه منذ ولادته مركوزة فى غريزته ، وأنها تظل نقية صافية مالم تطرأ عليها عوامل الانحراف فتؤثر فيها . وعوامل الانحراف كثيرة منها : المربون ، والبيئة ، والمربون قسمان : الأبوان ومن فى حكمهما "البيت" والمدرسون ومن فى حكمهم "المدرسة" . والبيئة : تؤثر بمجموعها أو ببعض عناصرها كالزملاء ، والجلساء ، والأصدقاء ، والاغراء المادى ، والجنسى ، كل هذه وغيرها عوامل تأثير على الفطرة ، فان تسلط عليها عامل من عوامل الشر صدها عن مسارها الصحيح "وهو الاسلام" وأفسدها . ولو بقيت سليمة من الانحراف ، بعيدة عن مؤثرات الفساد لعرفت ربها معرفة لا تحتاج معها الى نظر ، لكن تعرضها لما يفسدها أحوجها الى النظر . ولهذا أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام لاصلاح النفوس البشرية ، وردها الى الفطرة النقية التى تعرف بها ربها ، وهى فى هذه الحالة فى حاجة الى النظر ، ولهذا أنزل الله الكتب على لسان الرسل ، فكانت السعادة بهداية الله للبشرية من شاء الله له الهداية ( فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ) ، وكان الشقاء والحرمان لمن أعرض عن الاستجابة لرسل الله ( ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ) .

ودليلنا على أن الفطرة النقية تعرف ربها ما جاء فى القرآن الكريم عن قصة خليل الله ابراهيم أبى الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تحدث القرآن عن حواره مع قومه والزامه لهم الحجة ، باثبات ما هم عليه من الشرك وما هم فيه من الضلال . لم تستطع عوامل الانحراف من حوله أن تؤثر فيه كيف لا وقد آتاه الله رشده . ( ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين )[1] ولم يستطع قومه أن يردوا جوابا على حجج ابراهيم القوية أو يدفعوا عن أنفسهم تهمة الشرك والضلال ( وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه )[2] عرف ربه بفطرته ( وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين )[3] . وقف

---

(١) الأنبياء الآية ٥١ .
(٢) الأنعام الآية ٨٣ .
(٣) نفس السورة الآية ٧٥ .

وحيدا يدعو قومه الى الايمان بالله ، وقام فريدا يثبت لهم عمليا أن ما هم عليه من عبادة غير الله لا يجدى فتيلا ولا يساوى نقيرا ، وأن معبوداتهم لاتستطيع الدفاع عن نفسها فضلا أن تعطى نفعا أو ترفع ضرا عن غيرها ، بدأهم بالحوار مع أبيه ثم ثنى بقومه ، حوار هادئ هادف ، انه حوار الفطرة السليمة ، ( واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين )(١) نجد فى هذه الآية الكريمة مشهد الفطرة السليمة من عوامل الانحراف تنكر تصورات الجاهلية فى عباداتهم للأصنام وتدمغ أصحابها بالضلال المبين الضلال الذى لا خفاء فيه ، ثم يطرح ابراهيم عليه السلام على قومه عددا من مشاهد الكون العظيمة مما قد يخيل اليهم أنها تصلح للعبادة حيث كانوا يعبدون الكواكب والأصنام .

( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى )(٢) فهو بلمعانه وارتفاعه يبدو لهم أنه يستحق العبادة فأثبت لهم بطريق التدرج أن هذا الكوكب المضئ ما يلبث أن يغيب عنكم والمعبود الحق لا يغيب عن المخلوقات فبغياب معبودكم هذا من يرعاكم ويدبر أمركم اذا فليس ربا وهو بالتالى لا يستحق العبادة ( فلما أفل قال لا أحب الآفلين )(٣) .

فالفطرة السليمة لا تحب الآفلين ولا تتخذ آلهة منهم فألزمهم الحجة بذلك . وهكذا تدرج معهم فى ابطال ما هم عليه من عبادة القمر ثم من عبادة الشمس ( فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برئ مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين )(٤) وفى هذه الآيات تبرز الى

---

(١) الأنعام الآية ٧٤ .
(٢) نفس السورة الآية ٧٦ .
(٣) نفس السورة ونفس الآية .
(٤) نفس السورة الآيات ٧٧ - ٧٩ .

الوجود حقائق ناصعة فى فطرة ابراهيم عليه السلام " لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين " معرفته أن الهداية من ربه الذى هو الحق المبين ، ربه الذى ملأ عليه جوانحه كلها ، ربه الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ، ثم براءته من شرك قومه ( انى برئ مما تشركون ) وتقريره بأن ماهم عليه من عبادة الكواكب وغيرها شرك ، ثم التوجه بوجهه لفاطر السموات والأرض مائلا اليه متبرئا من الشرك والمشركين مقررا مرة أخرى أن ماعليه قومه شرك وضلال . كما تظهر حقيقة ناصعة أيضا هى دعوة ابراهيم عليه السلام قومه الى عبادة الله وحده ، وترك ماهم عليه من عبادة الكواكب والأصنام . لكن المنحرف عن الفطرة ليس من السهل ارجاعه الى جادة الصواب فقد تألب قوم ابراهيم وجاءوا اليه يجادلونه ويحاجونه رغم ماهم عليه من فساد الفكرة وانعدام الحجة ، جاءوا يجادلونه فيما انشرح له صدره ، ويخوفونه آلهتهم الباطلة ، لكن ابراهيم المطمئن الموقن قال لهم : ( أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ) فهدايته لى أعظم دليل على وجوده واستحقاقه للعبادة وحده ( الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين )(١) هدانى لمعرفته ووفقنى لعبادته وأمننى من الخوف . وما تعبدونه من دون الله من الكواكب والأصنام لا تخيفنى لأنها لا تستطيع دفع الضر عن نفسها ( ولا أخاف ما تشركون به )(٢) ، ثم هو مع هذا يكل مشيئته الى ربه ويرد أمره اليه ، ويعلم انه لا يصيبه الا ما شاء ربه وخالقه ، فعلمه تعالى يسعه لأنه وسع كل شئ علما ، ( الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما )(٣) ثم يندد بما هم عليه ، ويستغرب من منطقهم كيف يخوفونه آلهتهم التى لا تملك لأنفسها ضرا ولا نفعا ، ولا يخافون هم أنفسهم من بطش الله وعقابه لشركهم به تعالى ماليس لهم به قوة ولا برهان ثم يقول لهم : أينا أحق بالأمن الذى عرف ربه ووحده ولم يشرك به شيئا ،

---

(١) الشعراء الآيات ٧٨ — ٨٢ .
(٢) الأنعام الآية ٨٠ .
(٣) نفس السورة ونفس الآية .

أم الذين أشركوا به وتنكروا له وانحرفوا بفطرهم عن جادة الصواب وعقولهم عن التفكير السوى . ( وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون )(١) ، ثم ختم الآيات بقضاء الله تعالى الحكم العدل فى هذه القضية ، يقول تعالى : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون )(٢) الذين آمنوا به تعالى وأخلصوا أنفسهم له ولم يخلطوا بايمانهم شركا فى العبادة لهم الأمن وهم مهتدون ، الأمن من الخوف فى الدنيا ، والأمن من الفزع فى الآخرة والحال انهم مهتدون يعيشون فى هدى من ربهم فهم المهتدون حقا .

هذه هى الحجة البينة القوية التى ألهمها الله ابراهيم عليه السلام ليدحض بها حججهم التى جاءوا يحاجونه بها فسقطت حججهم وعلت حجته ، وكانت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، وارتفع ابراهيم على قومه بعقيدته وحجته ( وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم )(٣) .

كما أنه عليه السلام قد أنكر عليهم عبادة التماثيل قائلا ( ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون )(٤) فسماها تماثيل ولم يسمها آلهة كما يزعمون وكان جوابهم وحجتهم أن ( قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين )(٥) مما يدل على تحجر عقولهم وعجبهم تقليد الآباء والأجداد بدون دليل ، ومتى كانت عبادة الآباء الباطلة تكسب التماثيل حق العبادة وترفعها الى درجة القداسة ؟ انما ذلك تحجر فى العقول ، وانحراف عن الفطرة المركوزة فى النفوس وعن مسارها الصحيح . وحينئذ قرر ابراهيم ما هم عليه من الضلال وكذا آباؤهم ( قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين )(٦) ويستمر الحوار معهم حتى يبلغ نهايته فيسألونه سؤال المهتز

---

(١) الأنعام الآية ٨١ .
(٢) نفس السورة الآية ٨٢ .
(٣) نفس السورة الآية ٨٣ .
(٤) الأنبياء الآية ٥٢ .
(٥) نفس السورة الآية ٥٣ .
(٦) نفس السورة الآية ٥٤ .

العقيدة الشاك في عبادته ومعبوده قائلين ( قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين )(١) ويجيب عليه السلام اجابة الواثق بخالقه المطمئن بمعتقده العارف لمعبوده الموقن بايمانه : ( قال :بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين )(٢) . ثم يعلن لهم مقسما بربه انه قد عقد العزم على أن يبت في أمر هذه الأصنام ولم يفصل ما أجمله ، ولعلهم تجاهلوا هـذا الانذار مطمئنين انه لن يستطيع أن يمسها بسوء ، ( وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين )(٣) ثم ينفذ ما عزم على فعله ويحطم تلك الأصنام وكان حكيما في تنفيذه فقد ترك كبير الأصنام ليلفت أنظار قومه الى حقيقة جليـة لو تدبروها وأعملوا عقولهم فيها ، تلك هى رجوعهم الى ذلك الكبير فيسألونه عمن أصاب الآلهة بسوء ولماذا لم يدافع عنهم ، وبذلك يدركون ما كانوا عليه من الضلال حينما لا يجدون الا الصمت المطبق ( فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون )(٤) .

وحسبنا من هذا الحوار ما وصلنا اليه كدليل ناصع على الفطرة السليمة البعيدة عن عوامل الانحراف أو بالأحرى التى لم تتأثر بعوامل الانحـراف وبهذا نكون قد انتهينا من مبحث الاسلام دين الفطرة ، والله أعلم .

... ... ...

---

(١) الأنبياء الآية ٥٥ .
(٢) نفس السورة الآية ٥٦ .
(٣) نفس السورة الآية ٥٧ .
(٤) نفس السورة الآية ٥٨ .

# الباب الثاني

■ ويشتمل على ثلاث مباحث :

( ١ ) الحالة الاجتماعية قبل الاسلام .

( ٢ ) نظرة فى التشريع السماوى عموما وأثره فى تربية النفوس .

( ٣ ) الفرق بين التشريعين السماوى والوضعى .

: :

## الفصل الأول

## الحالة الاجتماعية قبل الاســـلام

خيم على البشرية ظلام دامس قبل بعثة محمد صلى الله عليه وســـلم ، وأطبق عليهم ليل طويل ثقيل شمل جميع نواحي حياتهم الاجتماعية حيـــث نشطت الخرافات ، ودب الجهل ، وعم اليأس ، وأوشكت الانسانيـــة أن تفقد كل مقومات الحياة الصالحة الهادئة . ذلك أن حكم الغاب كان يسود جميع المجتمعات البشرية ، فساد الظلم ، وانتشر الفساد في الأرض ، وطغت على النفوس الانسانية عبادة غير الله . ولكي ندلل على هذا القول ينبغي أن نعرض بعضا من أحوال تلك المجتمعات المختلفة عرضا موجزا لكل مجتمـــع على حدة .

### أولا : اليهوديـة :

لا يخفى ما خص الله به بني اسرائيل من النعم وأهمها ارسال عدد مـــن الرسل ليكونوا مصدر هداية لهم ، لكن اليهود كانوا بطبيعتهم الفاسدة يميلون الى الشر ويتبعون أهواءهم ، ففسقوا واستمرءوا الفجور ، واعتدوا على الأنبيـــاء وأنزلوا بهم أقسى العذاب فمنهم من قتل ، ومنهم من كذب ، قال تعالـــى فيهم : ( كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون )(١). فلم تستطع أنبياء بني اسرائيل تغيير تلك النفوس المنحرفة ، وكانت الهدايـة التي يحملها الأنبياء محصورة على قلة ممن تأثروا بها ، حتى هؤلاء القلة كـــان البعض منهم يعود الى الضلالة من جديد لأن نفوسهم الشريرة تهفوا الـــى

---

(١) المائدة الآية ٧٠ .

العمى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور )[١] . ويقص علينا القرآن الكريم خبر أولئك الذين اتبعوا نبى الله موسى عليه السلام فأنقذهم الله من جبروت الطاغية " فرعون " فما أن وصلوا الى بر الأمان حتى قلبوا لموسى عليه السلام ظهر المجن واتخذوا عجلا فعبدوه ، بعد أن كانوا قد طلبوا من موسى أن يجعل لهم الها يعبدونه أسوة بقوم رأوهم يعبدون الأصنام فجهلهم موسى وسفههم وبين لهم أن هذا العمل باطل وأن ما عليه أولئك القوم شرك قال تعالى واصفا حالهم : ( قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين)[٢] فلما لم يستجب نبى الله موسى لمطلبهم السخيف تمادوا فعبدوا العجل وكفروا بالله . قال تعالى متوعدا لهم ( ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحيوة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين )[٣] .

وأراد موسى عليه السلام أن يستغفر لهم فاختار من نقبائهم سبعين رجلا لكنهم صاحوا به قائلين : ( لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة )[٤] .

هذا بالاضافة الى تحريفهم لكلام الله الى غير ذلك من الضلالات التى لا نهاية لها حتى خلا التاريخ من هداية أو منقبة يقدمونها — غير الأنبياء — للبشرية ، وأنى لهم ذلك وقد تركوا الهداية الربانية التى جاء بها أنبياؤهم ووطنوا أنفسهم على الشر والفساد فى الأرض ولا تزال شرورهم منتشرة فى أنحاء المعمورة وفسادهم يفتك بالبشرية الى اليوم .

---

(١) الحج الآية ٤٦ .
(٢) الأعراف الآيات ١٣٨ — ١٤٠ .
(٣) نفس السورة الآية ١٥٢ .
(٤) البقرة الآية ٥٥ .

ثانيا : المسيحية :

ولما كان اليهود مشهورين بالجشع ، والتكالب على المال ونظرتهم اليه نظرة الولهان بل نظرة المستميت فى تحصيله ، اذ يرون فيه كل مقومات الحياة دون النظر الى القيم والأخلاق ، لذلك تفننوا فى ايجاد الطرق المختلفة للحصول على المادة وتنميتها بشتى الطرق الملتوية والوسائل المحرمة أيا كان نوعها ، لأن " الغاية تبرر الوسيلة " هذه القاعدة التى ينطلقون منها ، ويبنون حساباتهم عليها فهانت بذلك القوى الروحية والمثل العليا . فأرسل الله المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام لمعالجة هذا الداء الخطير ، فدعاهم عليه الصلاة والسلام الى الصفاء الروحى ، والرحمة والتسامح ، والزهد ، وهذا هو الجانب الهام الذى ركزت رسالة المسيح عليه السلام عليه. ولم يكن فى المسيحية من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية شيء كبيرا الالمحات ضئيلة ، ولأن رسالة المسيح عليه السلام جاءت مؤيدة لما فى التوراة ، ومصححة لما طرأ عليها من تحريفات فى المعتقدات ، ومهذبة للنفوس المنحرفة المتلهفة فى خضم المادة ، ومحاربة للمال والجسم معا .

يقول فى انجيل متى الاصحاح الخامس : " سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين "(1) .

وقال : " لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ولا لأجسامكم بما تلبسون "(2) .

---

(1) انجيل متى الاصحاح الخامس ف ٣٨ — ٤٠ .

(2) المصدر السابق الاصحاح السادس ف ٢٥ .

وقال : " يعسر أن يدخل غني ملكوت السموات ، وأقول لكم : ان مرور جمل فى ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله "(١) .

كان هذا هو اتجاه المسيحية ، العمل على تطهير الروح وتقوية صلة الانسان بخالقه ، أما تنظيم الحياة بين الفرد والفرد وبين الفرد والجماعة ، وعلاقة كل بالآخر ، فلم تتطرق اليه المسيحية ، ولما كان منشأ المسيحية فى الشرق وعبرت الى أوربا عن طريق عدد من أفرادها ووجدت هناك شعوبا شغلتهم الحروب وحملات السلب والانتقام والتمايز الطبقى الرهيب ، ولما لم يكن فى المسيحية سوى الاهتمام بالجانب الروحى كما أسلفنا بادر الأوربيون الى اعتناقها ، واتخذوها وسيلة للصلة الروحية بالله تعالى ، وما عدا ذلك فبقى خاضعا للقانون الأرضى الذى كان سائدا فيهم قبل ذلك . وعلى هذا اتخذ المسيحيون الأوربيون شعار " ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " ومعنى ذلك أن الدين صلة بين الانسان وخالقه وأن القانون صلة بين الفرد والدولة .

ولم يستمر الحال على ذلك بل استهوت السلطة من تسموا برجال الدين فتدخلوا فى حياة الناس العامة ، ليستفيدوا من جهل العوام لا لاصلاح الحياة العامة ، بل لجلب المصالح الخاصة بهم ، فثارت لهذا التدخل ثائرة الملوك والأمراء فقام نزاع بين السلطة والكنيسة أدى الى اقتسام المصالح بينهما ، فالكنيسة لها سلطة بيع صكوك الغفران ، واصدار قرارات الحرمان ، واستقل الملوك بالسيادة يملكون الأرض والرقاب ، وبذلك بدأ يخبو ضوء الطهر والزهد الذى جاءت به المسيحية ودخلت التحريفات عليها من أوسع الأبواب فظهرت الخرافات والأباطيل حتى أصبحت ديانة وثنية وتفرق النصارى الى طوائف منهم من يقول عيسى ابن الله ، ومنهم من يقول أن المسيح وأمه والله اله واحد من ثلاثة أقانيم وتفلسفوا فى عقيدة التثليث هذه والأقانيم بما لا مجال لذكره هنا ، وعبدوا الصور والقديسين ، هذا من الناحية الدينية .

---

(١) انجيل متى الاصحاح التاسع عشر ف ٢٣ وانجيل لوقا الاصحاح الثامن عشر ف ٢٠ .

أما الجوانب الأخرى فى حياة الغرب المسمى — زورا — بالمسيحى فقد كانت كلها متدهورة فالاقطاع مهيمن على غالبية الشعوب ، وفى ظله يمارس أبشع الظلم والاستعباد فالأمراء يملكون الأرض وما فيها من رقيق ،ويتمتعون بخيراتها ، والعبيد يعملون دون أن يكون لهم أى حق ، أو يقام لهم وزن ، وكانت الحروب تقوم بين الأمراء وكان ضحيتها هم هؤلاء العبيد والجنود الذين يخدمون ويحمون السادة ، وهكذا كانت أوربا بأسرها تعيش فى ظلم وظلام (١) .

ثالثا : الحياة فى فارس :

كانت الحياة فى فارس لا تقل عن مثيلتها فى أوربا من حيث الاقطاع والطبقية وتسلط الأمراء والملوك بل زاد الأمر سوءا أن ملوك فارس يدعون أن دما الهيا يجرى فى عروقهم مما جعل الفرس يقدمون لهم القرابين ويعتقدون فيهم القداسة ، وينشدون لهم أناشيد العبودية ، ومن حيث المعبودات فقد كانت متعددة ومتنوعة كالشمس ، والأنهار ، والأشجار الى القرن السابع ق ٠ م ، فظهر مصلح اجتماعى فى نظرهم اسمه " زرادشت " فأدمج الأديان القديمة فى بعضها ، ووصل بتفكيره الى القول بالهين اثنين هما اله الخير ، واله الشر ، وتصور ان الحرب قائمة بين الالهين وأنها ستنتهى بانتصار اله الخير الذى أسماه " أهورامازدا " على اله الشر " أهرمان " كما سماه هو أيضا ٠ وسيكون وحده فى النهاية وقد رمز له " زرادشت " بالنار لصفائها ، لكن هذه التعاليم الزرادشتية انهارت بعده فعبد الناس النار ، واعتقدوها الهـا ، وتدخل الكهنة كواسطة بين الناس والآلهة ، وسرعان ما أحيوا الطقوس التى كانت موجودة من قبل كعبادة الأصنام ، وتقديم القرابين ٠ ثم بعد فترة من الزمن ظهر " مانى " مناديا بالعزوبة وتحريم النكاح محاربة للشهوة الجامحة التى كانت سائدة حينذاك ٠ فقتل سنة ٣٧٦ م ٠ وظهر " مزدك " بعد ذلك بنحو

---

(١) مقتبس من كتاب المجتمع الاسلامى للدكتور أحمد شلبى ص ٢٦ ، ٢٩ ٠

مائة سنة سنة ٤٨٧ م فنادى بالاباحية المطلقة ، والاشتراك فى المـــال والنساء بين الناس جميعا متفلسفا فى ذلك بأن الناس ولدوا سواء فينبغـى أن يعيشوا سواء (١) . وهذا ما يسميه الناس اليوم الشيوعية وتعتنقه بعض الـــدول الالحادية ، ولقد لقيت دعوة مزدك هذه قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة بل أيدها وباركها القصر الامبراطورى .

يقول الطبرى رحمه الله : كاتف السفلة " مزدك " فى دعوته وشايعوه ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونـــه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا " قبـــادا" على تزيين ذلك ، وتوعدوه ان رفض ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صـــاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به (٢) .

وكانت الطبقية قبل ذلك سائدة ، كل طبقة تختص بعمل معين ولا يمكن للفـــرد من طبقة معينة أن يقوم بعمل فرد فى طبقة أخرى ، مهما أوتى من مقدرة وكفاءة .

## رابعا : الحياة فى الصين :

فى القرن السادس ق . م ظهر فى الصين حكيمان هما " لاءوتس " و " كونغ فوتس " والأول أسن من الثانى ، وقد تقابلا وكان الأول يدعو الــى القناعة والزهد والتسامح المطلق ، والى مقابلة السيئة بالحسنة . أما الثانـى فكان يدعوا الى العدالة ، والاستقامة ، ومقابلة السيئة بمثلها ، وهو أكثـــر انتشارا وذيوعا فى الصين . ولم يقل انه نبى ولا رسول ، وقد تناولت أبحاثـــه الحكومة ، والسياسة ، والأخلاق ، والمرأة . وكان شديد التأثر بعقائد قومـــه

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى . جا ص ٢٤٩ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٨٨ .

الأقدمين ، فاتجه الى عدم القول بالجنة والنار والعقاب والثواب . ولم يدرس مشكلة ما بعد الموت معللا أن مشكلات الحياة يصعب فهمها فكيف مشكلات ما بعد الموت .

وكان الصينيون يربطون بين الحوادث الكونية وبين أخلاق الملوك والشعوب فالعواصف والفيضانات ، والزلازل ، والأوبئة ، وما ماثلها ليست عندهم الا عقابا لانحراف الأمراء والملوك ، وانحراف الناس .

وكانت دعوة "كونفوشيوس" في العموم دعوة الى الخير . لكن الصينيين انحرفوا بدعوته من بعده . فبنوا له الهياكل ، وعبدوه ، وقدموا له القرابين ، والذبائح . وبالاضافة الى هذا شاعت في الصين قبيل الاسلام عبادة الأرواح ، وبخاصة أرواح الآباء والأجداد . اذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الارواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها ، وكانوا يحبون النسل ، وخاصة الذكور ، ويرون في ذلك عزهم ومتعتهم ، أما الاناث فيرون فيهن الذل ، والخضوع ، ولهذا اذا بشر أحدهم بمولود ذكر علق على بابه القوس والنشاب واذا بشر بأنثى علق على الباب المغزل .

ومن أهم الأديان التي كانت سائدة في الصين قبيل الاسلام البوذية وكانت قد فقدت بساطتها وتحولت الى وثنية ، تنصب التماثيل لبوذا وتحمل معها الأصنام وتعبدها ، وبالتالي اندمجت في البرهمية وذابت فيها[1] " .

خامسا : الحياة في الهند :

منذ القرن السادس الميلادي والهند مصدر من مصادر التدهور الخلقي والاجتماعي الذي شمل الكرة الأرضية وبلغت الوثنية أوجها في هذه الفترة ،

---

(١) المجتمع الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ص ٣٣ بتصرف .

ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليونا ، وقد أصبح كل شيء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة الها يعبد . فمنها أشجار تاريخية ، وأبطال ، وجبال ، ومعادن كالذهب والفضة ، وأنهار وآلات حرب ، وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها عندهم البقرة ، وغير ذلك .

وقد ارتفعت صناعة التماثيل في هذه الفترة حتى فاق هذا العصر في ذلك جميع العصور الماضية . ثم عكف أهل الهند على عبادة هذه التماثيل من الملوك الى الصعاليك . وظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صورة : فقبل المسيح بثلاثة قرون ازدهرت الحضارة البرهمية ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسميا ، ومرجعا دينيا في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ " منوشاستر " ويقسم هذا القانون الناس الى أربع طبقات هى :

١ ــ البراهمة : الكهنة ورجال الدين .
٢ ــ الكشتريا : وهم رجال الحرب .
٣ ــ الوشيا : وهم التجار والصناع .
٤ ــ الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

فالطبقة الأولى لهم امتيازات وحقوق الحقتهم بالآلهة فهم الصفوة وليس في العالم ملك لهم لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض .

والطبقة الثانية : هم طبقة الملوك والجيش ، والثالثة طبقة الزراع ورعاة الماشية والتجار ونحوهم . والرابعة الخدم والعبيد ومهمتهم خدمة الطبقات الثلاث الآنفة الذكر . وجميع الطبقات الثلاث الأخر تعمل لخدمة الطبقة الأولى وارضائها (١) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى ص ٣٨ ــ ٤١ . بتصرف .

## سادسا : حياة العرب قبل الاسلام :

أما العرب فلم تكن الحالة الاجتماعية لديهم بأحسن من غيرهم ، فكانت معبوداتهم متعددة ومتنوعة ، كهبل واللات والعزى ومناة التى كانت قريش وثقيف وغيرها من القبائل العربية المجاورة تعبدها ، وكذا الكواكب والأشجار ونحوها . وكان هناك قلة ممن كانوا على الحنيفية — دين ابراهيم عليه السلام — . كما أن الحروب لا تكاد تنقطع لأتفه الأسباب ، بدافع الولاء للقبيلة وحب للسلب والغزو ، وامتهان للمرأة ، ويتمثل فى وأد البنات — دفنهن أحياء — والاستيلاء على النساء بعد وفاة أزواجهن والاستمتاع بهن دون النظر الى صون كرامتهن وحفظ حقوقهن ، كما يتمثل فى السبى ووجوه النكاح المتعددة التى تحدثت عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : "روى عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن النكاح كان فى الجاهلية على أربعة أنحاء ، فكان منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها ارسلى الى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فاذا تبين حملها أصابها زوجها ان أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد . فكان هذا يسمى نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت ، وهو ابنك يافلان تسمى من أحبت منهم باسمه ، فيلحق به ولدها . ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة ولا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن دخل عليهن ، فاذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطبه —أى التصق به— ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم هدم نكاح أهل الجاهلية

كله الا نكاح أهل الاسلام اليوم"(١) .

ولعل أدق تصوير لحياة العرب قبل الاسلام هو ذلك الشرح الموجز الذى ضمنه جعفر ابن أبى طالب خطبته أمام النجاشى اذ قال : "كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، وتقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف"(٢) .

وبالجملة فقد كان واقع الناس فى الجزيرة العربية — بل فى الأرض كلها — واقعا اجتماعيا مؤلما من التصورات والمعتقدات ، والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع ، والمصالح ، والعصبيات ، كانت المعتقدات الفاسدة ترين على ضمير البشرية ، وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة ، وكانت المصالح القبلية والاقتصادية ، تقوم على كواهل هذه الآلهة الزائفة الممثلة فى سدنتها وكهانها ، وما يترتب على ذلك من أوضاع مستمدة من توزيع خصائص الالوهية بين العباده وا عطاء السدنة والكهنة حق التشريع للناس ووضع مناهج الحياة . هذا الواقع الاجتماعى كان وراءه مصالح طبقية وعنصرية مادية ومعنوية وليس حوله أى اعتراض من أحد لأن المنتفعين به يحققونه ، والخاضعين له لا ينكرونه لأنه أصبح مألوفا عندهم ، من ذلك مثلا كانت قريش تسمى نفسها "الحمس" وتفرض لنفسها حقوقا ليست لسائر العرب فتقف فى الحج بمزدلفة دون سائر الناس الذين يقفون بعرفات ، ويفرضون على كل من يطوف بالبيت أن يخلع ملابسه ويشترى منهم غيرها والا طاف عاريا ، لهذا كان كثير من العرب يطوفون بالبيت عراة ، رجالا ونساء .

هذا عرض موجز تاريخى لحالة البشرية قبيل الاسلام ، وجاء الاسلام واستمعت الفطرة الى الله سبحانه وتعالى يقول للناس جميعا : ( يا أيها النا س

---

(١) رواه البخارى فى كتاب النكاح جـ ٧ ص ٢٠ ، وأبو داود فى كتاب الطلاق جـ ٢ ص ٥٢٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٦ .

انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) (١) واستمعت اليه قريش وهو يقول : ( ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ) (٢) واستمعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول للناس جميعا : " أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، الا لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر الا بالتقوى " (٣) .

استمعت الفطرة الى هذا النداء الكريم فاستيقظت من غفلتها ، ونهضت من سباتها ، وأزاحت عنها ذلك الركام من الواقع الثقيل ، وانطلقت الدفعة الأولى من الرعيل الأول مع المنهج الربانى .

كان محمد صلى الله عليه وسلم : يقف وحيدا فى وجه الدنيا كلها ، وقف وقفة الواثق المطمئن بمنهجه الذى يدعو الناس اليه — كيف لا وهو من عند الله — وقف أمام تلك العقائد والتصورات ، والموازين ، والأنظمة ، والأوضاع والمصالح والعصبيات ، ثم انتصر على ذلك كله وبدل ذلك بنظام الهى فريد .

لم يتملق لأحد منهم فى العقائد والتصورات ، ولم يداهن أحدا منهم حرصا على المشاعر والعواطف ، ولم يهادن قيادتهم ، وآلهتهم . انه أمر أن يقول لهم : ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين ) (٤) . انها المفاصلة بين الحق والباطل ، مفاصلة كاملة لالقاء فيها ، رفض تام للحلول الوسط التى نادى بها قادتهم ، ودعوة الى الفطرة بلا اله الا الله لأنها — أى الفطرة — لا تعرف الها غير الله ، عرف النبى صلى الله عليه وسلم الناس بربهم الحق

---

( ١ ) الحجرات الآية ١٣ .
( ٢ ) البقرة الآية ١٩٩ .
( ٣ ) رواه أحمد جـ ٥ ص ٤١١ .
( ٤ ) الكافرون بتمامها .

وخصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم ، فلا اله الا الله منهج كامل لحياة البشرية ولن تسعد البشرية مالم تطبق هذا المنهج في حياتها وتحتكم اليه ، ( ان الحكم الا لله ، أمر أن لا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم )(١) ولن تجد طعم الراحة مالم تطع رسول الله ( من يطع الرسول فقد أطاع الله )(٢) ومن أطاع الله ورسوله فقد فاز . نزل الوحي السماوي على رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينا صفات المعبود الحق قال تعالى : ( قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل انى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، قل أى شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى .. ؟ قل لا أشهد ، قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون )(٣) .

( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ، وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ، وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ، الا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ، قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف تصرف الآيات

---

(١) يوسف الآية ٤٠ .
(٢) النساء الآية ٨٠ .
(٣) الأنعام الآيات من ١٤ — ١٩ .

لعلهم يفقهون ) [1] .

" استمعت الفطرة الى هذا الصوت الذى يخاطبها رغم الحجب التى كانت تحجبها عن هذا الصوت من الواقع السائد فى حياة الناس فنفضت عن نفسها ركام الواقع وثابت الى الهها الواحد وبذلك انتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل [2] " .

... ... ...

---

(١) الأنعام الآيات من ٥٩ — ٦٥ .

(٢) هذا الدين لسيد قطب ص ٥٣ بتصرف .

## الفصل الثانى

### نظرة فى التشريع السماوى عموما وأثره فى تربية النفوس

مما ينبغى التنبه له ولفت نظر القارئ الكريم اليه هو أن الاسلام دين الأنبياء والرسل كافة من آدم عليه السلام الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة الخاتمة وهو الدين الذى ارتضاه الله تعالى لعباده ( ان الدين عند الله الاسلام )(١) أى لادين مرضى عند الله تعالى سوى الاسلام . أخرج ابن جرير عن قتادة : قال :" والاسلام : شهادة أن لا اله الا الله تعالى والاقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه ، وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى الا به "(٢) وقد أكد الله تعالى هذا المعنى فى القرآن العظيم على لسان أنبيائه ورسله ، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ( وأمرت أن أكون من المسلمين )(٣) وعلى لسان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ( ربنا واجعلنا مسلمين لك )(٤) وفى وصية يعقوب لأولاده : ( ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون )(٥) ، وعلى لسان موسى عليه السلام : ( فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين )(٦) ، وفى الحديث عن التوراة ( يحكم بها النبيون الذين أسلموا )(٧) ، وعلى لسان يوسف عليه السلام ( توفنى مسلما

---

(١) آل عمران الآية ١٩ .
(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٢١٢ ط الحلبى .
(٣) يونس الآية ٧٢ .
(٤) البقرة الآية ١٢٨ .
(٥) نفس السورة الآية ١٣٢ .
(٦) يونس الآية ٨٤ .
(٧) المائدة الآية ٤٤ .

وألحقني بالصالحين )[١] وعلى لسان سحرة فرعون بعد إيمانهم بموسى عليه السلام وتهديد فرعون لهم ( ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين )[٢] . وعن حواريي عيسى عليه السلام ( آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون )[٣] ، وعن ملكة سبأ حينما آمنت بسليمان عليه السلام : ( وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين )[٤] ، وفي دعاء الانسان الصالح ( وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين )[٥]. وعلى لسان فرعون حينما أدركه الغرق ( قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين )[٦] . وان كان لا ينفعه اسلامه في ذلك الوقت لأن الله تعالى رد عليه بقوله ( آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ) . وقد ورد في الحديث الصحيح " والأنبياء أولاد علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد "[٧].

وقال تعالى : ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه )[٨].

والاسلام الذي أراده الله تعالى لعباده هو الاذعان والخضوع ظاهرا وباطنا لأوامر الله تعالى ونواهيه ، والاسلام هو الايمان وهما بمعنى واحد وهو الدين والمراد به الوحدانية لله تعالى ، والتصديق بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام . قال الشوكاني رحمه الله : " ذهب الجمهور الى أن الاسلام هنا بمعنى الايمان ، وان كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل .. وهو في الصحيحين وغيرهما ، ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد

---

(١) يوسف الآية ١٠١ .
(٢) الأعراف الآية ١٢٦ .
(٣) آل عمران الآية ٥٢ .
(٤) النمل الآية ٤٤ .
(٥) الأحقاف الآية ١٥ .
(٦) يونس الآية ٩٠ .
(٧) خ أنبياء ٤٨ ج ٤ ص ٢٠٣ ، م فضائل ١٤٣ ج ٤ ص ١٨٣٧ ، د سنة ١٣ ج ٢ ص ٥٢٢ .
(٨) الشورى الآية ١٣ .

ذلك فى الكتاب والسنة "(١) والاسلام والايمان اذ افترقا اجتمعا ، واذا اجتمعا افترقا كما يقول العلماء ومعنى ذلك أن لفظ الاسلام اذا جاء فى الكلام منفردا فهو يتضمن معنى الايمان أيضا وكذا لفظ الايمان اذا ورد منفردا فى الكلام فهو يتضمن معنى الاسلام . أما اذا اجتمعا كما فى حديث جبريل حيث كان السؤال عن لفظ كل على حده فكانت الاجابة عن كل بمعنى يخالف معنى الآخر .

وشرع الله تعالى انما يعرف بواسطة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبلغين عن الله ، والله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان تائها على هذه الأرض ، بل ركز فيه فطرة لمعرفته ، وأخذ عليه عهدا فى عالم الذر على ذلك ولم يترك أمة من الأمم الا وأرسل اليها رسولا ( وان من أمة الا خلا فيها نذير )(٢) هؤلاء الرسل يذكرون بعهد الله ، وينبهون الفطرة الى معرفة الله ، ويدعون الى عبادة الله وحده ورد الناس اليه وترك ما ألفوه من المعبودات الزائفة التى تواضعوا عليها ( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت )(٣) . وخص كل أمة برسول منهم يدعوهم بلسانهم ليبين لهم ما شرعه الله فيهم ( وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم )(٤) .

والاسلام يطلق ويراد به النصوص التى يوحى بها الله مبينا دينه ، وبهذا الاطلاق تختلف الشرائع من حيث السعة والشمول من رسول الى آخر مع اتفاق فى الأصول لأن دين الله تعالى الذى أرسل به رسله واحد فى أصوله ومقاصده ، أما الاختلاف فهو حاصل فى صورة العبادة أو المعاملة بحسب الظروف الزمانية والمكانية ، ومدى الاستعداد لدى الأمم المختلفة . فالشريعة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام أوسع من الشريعة التى أنزلت على نوح عليه السلام ، قال تعالى ( وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء )(٥) ، والشريعة التى جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أوسع

---

(١) فتح القدير ج ١ ص ٢٢٦ ط الحلبى .
(٢) فاطر الآية ٢٤ .
(٣) النحل الآية ٣٦ .
(٤) ابراهيم الآية ٤ .
(٥) الأعراف الآية ١٤٥ .

وأشمل من أى شريعة سابقة ، قال تعالى : ( ونزلنا عليك الكتاب تبيانـــا لكل شئ وهدى ورحمة )[(١)] وقال تعالى : ( ما فرطنا فى الكتاب من شئ )[(٢)] كيف لا تكون كذلك وهى الشريعة الخاتمة الشاملة لأمم الأرض جميعا ، ورسول اللـه محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ( قال تعالى :(وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا )[(٣)] وفى حقه عليه صلوات الله وسلامه قال تعالــى : ( ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين )[(٤)] فاقتضى ذلك أن تكون شريعته أكمل الشرايع وأتمها وأوسعها وأشملها وخاتمتها أيضـــا . وقال عليه الصلاة والسلام : ( مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتـــا ، فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتـم النبيين )[(٥)] وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بهدى الأنبياء من قبـــله ( أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده )[(٦)] وأكمل لنا الدين الذى ارتضاه ، وأتم النعمة على البشرية بهذه الشريعة الخاتمة ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممـت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا )[(٧)] فكانت هذه الشريعة منقذا للبشريـــة من السقوط فى حضيض الوثنية ، وهادية لها لاصلاح حالها ومآلها ، واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة .

وبهذا الكمال والتمام التى أصبحت عليه الشريعة الخاتمة كان لزاما عـــلى البشرية الاستجابة لها ، والعمل بمقتضاها لأنها نسخت جميع الشرائع قبلهـــا ،

---

( ١ ) النحل الآية ٨٩ .
( ٢ ) الأنعام الآية ٣٨ .
( ٣ ) سبأ الآية ٢٨ .
( ٤ ) الأحزاب الآية ٤٠ .
( ٥ ) رواه الشيخان واللفظ للبخارى ج ٤ ص ٢٢٦
( ٦ ) الأنعام الآية ٩٠ .
( ٧ ) المائدة الآية ٣ .

قال تعالى : ( ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين )(١) اذ لا يخفى أن الشرائع السابقة قد حرفت وبدلت بل طمست معالمها الأصيلة بما فعلته فيها أيدى الأهواء من أهل الباطل ، وما أدخلوه عليها من الخرافات فى العقائد ، والعبادات ، فاستقر بها الباطل وظهر ذلك فى سلوك أممها ومعاملاتهم وعقائدهم وعباداتهم .

فلزم من ذلك على الانسانية الايمان بهذه الشريعة الخاتمة ونبيها الخاتم صلوات الله وسلامه عليه وتطبيق ما جاءت به هذه الشريعة فى العقائد والعبادات ، فى شعائرها ومشاعرها ، فى سلوكها ومعاملاتها ، فان فعلت ذلك سعدت فى الدارين ، فى الدنيا بالأمن والرخاء والاطمئنان ، وفى الآخرة بالنجاة من النار والفوز برضا الله تعالى ، قال عليه الصلاة والسلام : " والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ، ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار "(٢) وقال تعالى : ( يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ) ، والله على كل شيء قدير )(٣) .

والتشريع لغة(٤) : مصدر شرع — بتشديد الراء — من شرع بتخفيفها بمعنى سن وبين ، وهو مأخوذ من الشريعة . وتأتى فى اللغة لمعنيين : الأول مورد الماء للاستسقاء(٥) ، والثانى الطريقة المستقيمة(٦) ، وكلا المعنيين له ارتباط وثيق بالمعنى الذى اصطلح عليه فى سن القوانين ، وبيان الأحكام التى تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، فارتباط المعنى الاصطلاحى بمورد الماء قائم لأن الشريعة بمعنى الدين اصطلاحاً(٧) ، وهى شبيهة بمورد الماء

---

(١) آل عمران الآية ٨٥ .
(٢) حديث صحيح رواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ١٣٤ .
(٣) المائدة الآية ١٩ .
(٤) القاموس المحيط .
(٥) المصباح المنير مادة شرع .
(٦) القاموس المحيط .
(٧) المصدر السابق .

من وجهين :

الأول : أن الشريعة سبيل الى حياة النفوس كما أن الماء سبيل الى حياة الأبدان .

الثاني : أن الشريعة واضحة جلية ، كما أن مورد الماء واضح ظاهر .

وارتباط المعنى الاصطلاحى بالطريقة المستقيمة واضح من حيث أن الدين هو الصراط المستقيم محكم الوضع قائم بالعدل فهو يشبه الطريقة المستقيمة من هذا الوجه ، قال تعالى : ( وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ) (١) والتشريع على ذلك هو سن القواعد وبيان الأحكام فى العقيدة والعبادة والمعاملة قال تعالى : ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ) (٢) أى بين من التوحيد ما وصى به نوحا .. الخ ، وقال تعالى : ( أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ) (٣) أى سنوا لهم من الأحكام والنظم مالم ينزله الله " فهم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والانس " (٤) .

وعلى ذلك فالتشريع الاسلامى هو بيان لأحكام الله من الأوامر ، والنواهى ، التى تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض وعلاقاتهم بربهم ، وهو بهذا يهدف الى سعادة البشرية ورقيها ، وطمأنينتها واستقرارها ، كما تؤدى وظيفة الاستخلاف التى كلفت بها على هذه الأرض ، وهذا التشريع هو الدين وهو الشريعة الخاتمة الشاملة الكاملة التى اكتملت قواعدها ، ووضحت معالمها ، وشملت أحكامها وأنظمتها شئون البشر كافة ، ورضيها الله تعالى لخلقه خاتمة للشرائع .

---

(١) الأنعام الآية ١٥٣ .
(٢) الشورى الآية ١٣ .
(٣) نفس السورة الآية ٢١ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١١٩ ط مكتبة النهضة الحديثة ط الأولى .

والتشريع من أهم الضرورات لحياة الانسانية كافة . فبدونه تصبح الحياة فوضى فقد تكفل بنظام يحكمهم وينظم شئونهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ذلك أن الانسان بطبيعته ميال الى التعاون مع أخيه ، ولأن المصالح لا تتحقق الا بذلك ، ولا يستطيع أن يعيش وحده ، " فهو مدنى بالطبع " كما قيل .

" والمجتمعات البشرية تتكون من أفراد ثم تنشأ بينهم عادات وتقاليد ، ويقوم بينهم عرف عام يتعارفون عليه ، وتعامل يحتاجون اليه ، وبالتالى يحتاجون الى ما ينظم شئونهم . لذلك كان التشريع ضروريا لهم (١) . "

اذ لو ترك كل انسان وشأنه لفسد نظام الحياة ، لأن كل واحد منهم يستبد برأيه ، ويحاول أن يحقق لنفسه ما تشتهيه ، ولاسيما أن النزعات والرغائب تختلف من شخص لآخر ، وتتباين المصالح ، وتتحكم الشهوات فيطغى فرد على آخر ، ويسطو القوى على الضعيف ، وهذه هى الفوضى المدمرة التى لاتستقيم معها الحياة .

وكما أن العلاقة تنشأ بين الأفراد والجماعات والمجتمعات اذن فلابد للبشرية من نظام يقيد جموح الأقوياء ضد الضعفاء ، ويحد من طغيان المستبدين ، وظلم الظالمين ويحقق العدل والأمن للجميع ، ويحمى الحريات ، ويصون الحرمات ، ولا يتأتى ذلك الا بتشريع سماوى ، تخضع له النفوس طواعية ، وتستجيب لأوامره ونواهيه راضية ، وتدافع عنه وتحميه طائعة مختارة ، وتطبقه فى حياتها مطمئنة ، لأن هذه النفوس تعلم يقينا أن سعادتها تكمن فى استجابتها لتشريع الله . قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (٢) ) . والتشريع السماوى هو النظام الشامل الذى عالج قضايا البشرية كلها ولم يترك قضية الا وتصدى لها ووجه البشرية الى وجه

---

(١) المجتمع المتكافل فى الاسلام د . عبدالعزيز الخياط ص ٤٩ بتصرف يسير .
(٢) الأنفال الآية ٢٤ .

الحق فيها اذ هو محيط بحاجات البشرية فى كل زمان ومكان • كيف لا يكـــون كذلك وهو منزل من لدن حكيم عليم ، أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كــــل شيء عددا ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير )(١) فهو سبحانه عليم بمـــا دق وجل فى السموات والأرض ( لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاهـــــا )(٢) ( يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور )(٣) ، ( أن الله لا يخفى عليه شـــيء فى الأرض ولا فى السماء )(٤) لهذا كان التشريع السماوى هو الذى يضمن للبشريـــة سعادتها ان استجابت اليه وطبقته فى حياتها ، ولأنه أمسك بزمام النفـــس البشرية ، ونظم العلاقة من جميع جوانبها المختلفة بحيث لا يطغى جانب عـــلى آخر ، بمعنى أن الجانب الروحى له مقوماته ، والجانب الجسدى له متطلباتـــه بحيث لا يترك فيسيطر على بقية الجوانب ، وهذه من أهم مميزات التشريـــــع السماوى •

## أسس التشريع الاسـلامى :

قام التشريع الاسلامى على ثلاثة أسس هى :

١ — عدم الحرج • ٢ — قلة التكليف • ٣ — التدرج فى التشريع •

<u>الأول : عدم الحرج :</u>

ليس المراد من عدم الحرج فى الشريعة الاسلامية انتفاء أصل المشقـــة ، لأن المشقة نوعان :

<u>النوع الأول :</u> مشقة معتادة لا تعتبر فى العرف مشقة • فهذه ليســـت مقصودة الشارع برفعها عن المكلفين ، لأن أى عمل لا يخلو من مشقة اذ لامانع

---

(١) الملك الآية ١٤ •
(٢) الكهف الآية ٤٩ •
(٣) غافر الآية ١٩ •
(٤) آل عمران الآية ٣ •

من وقوعها فى التكاليف الشرعية ، ولا يتحقق التكليف الا بها ، لأن التكليف هو الزام بما فيه كلفة وهى وسيلة لأداء العبادة اذ ليست المشقة مقصودة لذاتها .

<u>والنوع الثاني</u> : مشقة زائدة تضيق بها الصدور وتحتاج الى جهود كبيرة قد تؤثر على صحة الانسان ، وعلى ماله وطريقة حياته ، فينقطع عن كثير من الأعمال التى تنفع الفرد والمجتمع ، وهذا النوع هو الذى جاء الاسلام برفعه عن الناس تيسيرا لهم ، وتسهيلا عليهم ، قال تعالى : ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر )(١) وقال تعالى : ( يريد الله أن يخفف عنكم )(٢) وقال تعالى : ( ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج )(٣) وقال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج )(٤) ، وقال تعالى : ( ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم )(٥) .

واذا أنعمنا النظر فى أحكام الشريعة الاسلامية وجدنا مظاهر رفع الحرج واضحة جلية ، ووجدنا أن جميع التكاليف قد روعى فيها التخفيف واليسر .

ففريضة الصلاة واجبة على المكلف خمس مرات فى اليوم والليلة يؤديها قائما وهو أمر سهل لكن مع هذه السهولة راعى الشارع الحكيم أهل الأعذار فرخص لمن كان له عذر عن أدائها قائما أن يؤديها قاعدا ، أو كيفما استطاع رفعا للحرج عنه ، والصيام فريضة شهر فى السنة ، وليس فيه مشقة زائدة على قدرة الانسان . الا أن الله تعالى أباح الفطر للمكلف فى حالات السفر والمرض ، والحمل والرضاع ، هذه الحالات التى تعظم فيها المشقة غالبا ،

---

(١) البقرة الآية ١٨٥ .
(٢) النساء الآية ٢٨ .
(٣) المائدة الآية ٦ .
(٤) الحج الآية ٧٨ .
(٥) الأعراف الآية ١٥٧ .

وأمره بالقضاء في أيام أخر ( ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر )(١) ، والقاعدة الفقهية تقول : " المشقة تجلب التيسير "(٢) وأصلها قوله تعالى : ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) .

والتشريع الاسلامي حينما وقف بالتكليف عند حدود طاقة العباد انما راعى مصالحهم فلم يتجاوز بهم الى الحرج والعنت كي لا تتراكم آثار المشقة على النفس فتقعدها عن أداء ما كلفت به ، وبالتالي تورثها البغض للتكاليف(٣) .

الثاني : قلة التكاليف :

امتازت الشريعة الاسلامية عن غيرها من الشرائع السماوية بقلة التكاليف حتى يسهل على الأمة المكلفة الامتثال ، وحتى لا تقع في المشقة والعنت ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ، وان تسألوا عنها حتى ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ، والله غفور حليم ، قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين )(٤) .

" وفي الحديث النبوي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا على سؤال الأقرع بن حابس رضي الله عنه حين سأله عن الحج قائلا : أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال " لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ذروني ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم "(٥) ، والزيادة في الدين مما لم يأذن به الله ، ممنوعة في الشريعة الاسلامية ، يقول المصطفى عليه صلوات الله وسلامه : " من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد"(٦) وبالنظر الى ما ورد في الشريعة الاسلامية من التكاليف نجدها قليلة ميسرة لا عنت فيها ، ولا ارهاق يمكن أداؤها في زمن يسير .

---

(١) البقرة الآية ١٨٥ .
(٢) ايضاح قواعد الفقه ص ٣١ للشيخ عبدالله بن سعيد اللحجي .
(٣) كتاب ضوابط المصلحة ص ١١٠ للدكتور محمد سعيد البوطي بتصرف يسير .
(٤) المائدة الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ .
(٥) رواه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٩٧٥ رقم الحديث ٤١٢ من كتاب الحج
(٦) رواه الشيخان خ : الصلح ج ٣ ص ٢٤١ ، م : الأقضية ج ٣ ص ١٣٤٣ .

الثالث : التدرج فى التشريع :

لما كانت النفوس البشرية قد فطرت على معرفة الحق وقبوله غالبا ، ولما كان انحرافها عن هذه المعرفة وعن هذا القبول هو عوامل خارجة عنها تغطيها ، كان لابد من تهيئة لهذه النفوس أولا حتى يتسنى لها دفع الركام والنهوض من بين أنقاض عوامل الفساد ومعاول الهدم التى تراكمت عليها طويلا وهذه التهيئة للنفس البشرية رعاها القرآن الكريم ، اذ جاء الاسلام والناس فى اباحة واسعة يكرهون كل ما يقيد حريتهم ، ويحد من شهواتهم ، وكانت قد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة وغرائز متنوعة ، لا يستطيعون التحول عنها دفعة ، فاقتضت الحكمة الالهية انزال القرآن منجما وحسب الوقائع والحاجات ، وتهيئة للنفوس كى تكون مستعدة لقبول الأحكام ، اذ لو كانت الأحكام تأتى جملة مفاجأة لثقل عليهم ونفرت نفوسهم ، لذلك وردت الأحكام التكليفية شيئا فشيئا ليكون السابق من الأحكام ممهدا للنفوس ، ومهيئا لقبول اللاحق . وكان معظم الأحكام ينزل لسبب يقتضيه فيكون أوقع فى النفس وأقرب الى الانقياد .

فمن ذلك على سبيل المثال :

تحريم الخمر : فالخمر كانت قد تمكنت من نفوس الناس تمكنا خطيرا ، بحيث لو نزل تحريمها مفاجأة دفعة واحدة لن يقبلوا تركها ، وأنى لهم ذلك فاقتضت حكمة الله العليم الخبير أن ينزل على نبيه صلوات الله وسلامه عليه التشريع التدريجى فى تحريم أم الخبائث ، فبدأ بقوله تعالى : ( يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما )(١) أى الخمر والميسر ، ففى هذه الآية الكريمة حث ضمنى على تركها لأن ما كثر اثمه ينبغى تركه . ثم جاءت الآية الثانية بعد فترة زمنية مناسبة كان الناس قد تهيأوا لتلقى الحكم الذى تتضمنه ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون )(٢) وفى هذه الآية نهى عن الصلاة

---

(١) البقرة الآية ٢١٩ .
(٢) النساء الآية ٤٣ .

فى حال السكر ، وفى هذا النهى تضييق للوقت الذى يشرب فيه الناس عادة وتعويد لهم على تركها معظم الأوقات ، اذ الصلاة موزعة على مدى نحو أربع عشرة ساعة في كل يوم تقريبا ، النهار كله وطرفا من الليل ، وبهذا لايستطيع أحد أن يشرب فى خلال هذا الوقت لأن فريضة الصلاة ستدركه وهو سكران وقد نهى أن يصلى وهو على تلك الحال .

وبعد أن تهيأت النفوس لقبول الحكم النهائى ، واستعدت لترك العادة المستحكمة فى المجتمع جاء النهى الصريح عنها نهيا عاما مؤكدا ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون )(١) أى انتهوا ، فما ان سمعوا هذا النداء يتردد فى جنبات المدينة حتى بادروا بالامتثال لأمر الله قائلين انتهينا واهرقوا كل ما عندهم من الخمور حتى سالت به السكك .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : " انى لقائم أسقى أبا طلحة وفلانا وفلانا ، اذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا وما ذاك ؟ قال حرمت الخمر . قالوا اهرق هذه القلال يا أنس . قال فما سألوا عنها ، ولا راجعوها بعد خبر الرجل " وفى رواية عنه أيضا قال كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة ، فنزل تحريم الخمر ، فأمر مناديا فنادى . فقال أبو طلحة : أخرج فانظر ما هذا الصوت ، قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادى ألا ان الخمر قد حرمت ، فقال لى اذهب فاهرقها قال فجرت فى سكك المدينة "(٢) ونكتفى بهذا المثال للتدليل على أن التشريع الاسلامى سلك مسلك التدرج عناية منه بالنفس الانسانية يردها الى جادة الحق وطريق الصواب .

---

(١) المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

(٢) رواه البخارى ج ٦ تفسير ص ٦٧ ، ٦٨ ط الشعب .

لأن التشريع الاسلامي في جميع مراحله انما يهدف الى الاصلاح الخلقي والنفسي والفكري في الفرد والمجتمع ، ويشمل جوانب الحياة كلها الاجتماعية والسياسية ، والأخلاقية ، وغاياته من ذلك هي ايجاد مجتمع سليم نظيف قوى متماسك يقوم بوظيفة الاستخلاف خير قيام فينتشر العدل وتتحقق المساواة ويسود السلام على هذه الأرض .

## أثر التشريع السماوى على النفوس البشرية :

مما لا يخفى أن التشريع الاسلامي بسعته وشموله قد أثر على النفوس البشرية تأثيرا كبيرا فغير مجرى حياتها رأسا على عقب ، فالنفوس التي استجابت لداعي السماء وتقبلت تشريع الحكيم العليم تغيرت لديها المفاهيم والقيم وانعكست عندها الموازين التي كانت سائدة وانتقلت من الشرك الى التوحيد ، ومن الغزو والسلب ، الى المسالمة ، ومن الفوضى القبلية والعصبية لها بحق أو بباطل الى الالتزام بأوامر الله والخضوع له والولاء له وحده ولاء كاملا . ومن احتقار المرأة وامتهانها الى احترامها واجلالها ، ومن الاباحية الجنسية الى الطهر والعفة والنكاح المشروع ومن نظام الطبقات واستعلاء بعضها على بعض والمفاخرة بالأنساب الى المساواة ، فأصبح الناس سواسية كأسنان المشط ، ومن الانزواء داخل حدود الجزيرة الى الخروج للجهاد لاعلاء كلمة الله ، فالسيطرة على الفرس والروم . فالشخص الذى كان يسجد للأصنام أصبح يسجد لله وحده ، بل ويضع نفسه وما يملكه في سبيل الله دفاعا عن دين الله الذى وهبه قلبه وحياته ، والرجل الذى كان يحكم السيف في كل مشكلة تعترضه دون ترو أو تفكير ، أصبح لا يرد على الاعتداء عليه ، بل يصبر ويحتسب امتثالا لأمر الله حتى جاءه الاذن من الله فكم فتى عذب وكم امرأة ظلمت فصبروا واحتسبوا حتى أذن الله لهم بالهجرة ثم بالقتال بعد ذلك . ( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق )(١) ، والمسرى

---

(١) الحج الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

الذى كان ديدنه القوة فى التعامل مع الناس أصبح يدين لنظام الله وشرعه وأضحى العدل رائده وطلب الحق مقصده ، والانصاف مطلبه ، نبذ هواه ظهريا وأصغى بقلبه الى قول الله تعالى : ( وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم )(١) ، ولقوله تعالى : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون )(٢) .

وأولئك الذين كانوا يعيشون على النهب والسلب والعدوان أصبحت الأمانة شعارهم . فقد روى أن أحد جنود المسلمين عثر على تاج كسرى عقب هزيمة الفرس ، فأحضره الى القائد دون أن يخرم منه جوهرة واحدة لأنه استمع الى قوله تعالى : ( ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة )(٣) أشربت نفسه القناعة والزهد بما عند الناس وامتزج قلبه بحب الله لأنه أصغى الى توجيه النبى الكريم والمربى الحكيم عليه صلوات الله وسلامه حيث يقول : " ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبوك "(٤) .

والشخص الذى كان يدين لقاعدة الجاهلية فى الأخذ بالثأر وكانت هذه الصفة تجرى فى عروقهم جريان الدم هذه القاعدة التى تبيح له قتل أى شخص من قبيلة القاتل يقوم بذلك أى شخص من قبيلة المقتول " ولا يهمه بعد ذلك أكان على حق أو باطل لأنه يردد شعار :

وما أنا الا من غزية ان غوت ∴ غويت وان ترشد غزية أرشد

هذا الشخص بعد أن عرف أن أمر الدماء فى الاسلام يتولاها ولى الأمر ويأمر بالقصاص متى تبين له ذلك بالوجه المشروع حتى لا تصبح الأمور فوضى والحياة مضطربة . بعد أن عرف ذلك استسلم لقوله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون )(٥) " أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره ، والاهمال فى المحافظة

---

(١) المائدة الآية ٤٩ .
(٢) نفس السورة الآية ٤١ .
(٣) آل عمران الآية ١٦١ .
(٤) رواه ابن ماجه وفى اسناده خالد بن عمر وهو ضعيف لكن النووى قال رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة ، سنن ابن ماجه — الزهد — ج ٢ ص ١٣٧٤ .
(٥) البقرة الآية ١٧٨ ، ١٧٩ .

عليه ، والحكم به ، والاذعان له ، أو في القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى اليه "(١) .

بل استمع الى صفة كريمة سامية لا يتصف بها الا من سمت نفسه ولا يرقى اليها الا من بلغ درجة من الكمال النفسى والاستعداد الخلقى ، هذه الصفة السامية استهوت المسلم حين سمعها في قول الله تعالى : ( وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين )(٢) فآثر الذى هو خير وتحلى بالصبر وبادر بالعفو عند المقدرة .

أما في قضية الولاء للقبيلة فقد ركز عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة تركيزا مباشرا فحطم كيانها من أساسها ، وحول ذلك الولاء المتأصل في النفوس من الولاء للقبيلة الى الولاء لله وحده ثم للمؤمنين ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون )(٣) ، وقال تعالى : ( لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم )(٤) وقال تعالى : ( انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون )(٥) وكما أن الاسلام أمر بطاعة الوالدين والاحسان اليهما الا أنه نهى عن اتباعهما وطاعتهما في معصية وأمر بمخالفتهما واتباع سبيل المؤمنين المنيبين الى الله . قال تعالى : ( وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الي )(٦) .

---

(١) تفسير " أبو السعود " ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) النحل الآية ١٢٦ .
(٣) التوبة الآية ٢٣ .
(٤) المجادلة الآية ٢٢ .
(٥) المائدة الآية ٥٥ ، ٥٦ .
(٦) لقمان الآية ١٥ .

ونتيجة لهذه التربية الربانية كان يحرص المسلم على قتل الكافر من أقربائه . ومن أجل هذه التربية أيضا يقف الصحابى الجليل عبد الله بن عبد الله ابن أبى بن سلول على باب المدينة المنورة سالا سيفه " فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال له مالك ويلك ؟ فقال والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه العزيز وأنت الذليل" (١) رادا عليه مقالته فى رسول الله والمؤمنين التى جحدها عبد الله ابن أبى وفضحه القرآن الكريم بقوله تعالى : ( يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ) (٢) .

أما أثر التشريع فى حياة المرأة فحدث عنه ، ولا حرج ، فقد كانت المرأة فى كثير من القبائل العربية قبل الاسلام محتقرة ممتهنة فهى فى نظر كثير منهم سلعة لقضاء الوطر ، وليس لها أى حقوق انسانية ، كما أنه ليس لها نصيب فى الارث بل كانت سلعة أيضا تورث كسقط المتاع فقد كان الوارث يذهب بعد موت زوجها ، فيلقى عليها رداءه ، وله بعد ذلك أن يتزوجها أو يزوجها ، ويقبض مهرها . قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ) (٣) ، وقال تعالى : ( ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ) (٤) فضلا عما شاع بينهم من وأد البنات " دفنهن أحياء " فقد روى أن قيس ابن عاصم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى وأدت بنات لى فى الجاهلية ، قال : " اعتق عن كل واحدة منهن رقبة" ، وفى بعض الروايات " وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية" ، وفى أخرى " انى وأدت اثنتى عشرة ابنة لى فى الجاهلية أو ثلاث عشرة " (٥) وبهذا يتضح لنا ما كانوا عليه من كراهة للمرأة واحتقار لها .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٥ ط مكتبة النهضة .
(٢) المنافقون الآية ٨ .
(٣) النساء الآية ١٩ .
(٤) نفس السورة الآية ٢٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٦ .

وجاء الاسلام ورفع المرأة من وهدتها ، وساواها بالرجل من حيث الانسانية وأزاح عليها ما كانت الجاهلية قد أثقلتها به من المظالم والاحتقار ونظم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة على أساس الزواج الشرعى ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة )(١) فبين سبحانه وتعالى علاقة الرجل بالمرأة فى هذه الآية أحسن بيان بأوجز عبارة يمكننا أن نلتقط جواهرها وننظمها فى تاج نتوج به رأس المرأة المسلمة .

فالجوهرة الأولى هى لفت أنظار الرجال الى أن هذه المرأة التى تمتهنونها هى من جنسكم ، وعبر بالنفس كناية عن القرب القريب ليدلل بأنها ليست بعيدة عنكم ولا مغايرة لخلقكم ومصدتكم الذى خلقتم منه .

والثانية كونها زوجة للسكن والاطمئنان فكأنه يستحث النفوس البشرية ، ويحرك مشاعرها نحو المرأة بهذا الأسلوب الفريد الرفيع أى ما دامت بهذه المثابة فلماذا تحتقرونها .

والثالثة وهى واسطة التاج ، هى جعله تعالى بين الزوجين المودة والرحمة فهو تعالى يذكرهم تلك العواطف الجياشة ، والمشاعر الفياضة بين الزوجين ، وما ينبنى عليها من الاستقرار والاطمئنان ، والانجاب .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : " والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ، ومشاعرهم ، تلك الصلة بين الجنسين ، وتدفع خطاهم ، وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة ... والتعبير القرآنى اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقة تصويرا موحيا وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب ، وأغوار الحس ، " لتسكنوا اليها " .. " وجعل بينكم مودة ورحمة " .. " ان فى ذلك

---

(١) الروم الآية ٢١ .

لآيات لقوم يتفكرون " ... فيدركون حكمة الخالق فى خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر ، ملبيا لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة ، والاستقرار ، ويجد أن فى اجتماعهما السكن ، والاكتفاء ، والمودة ، والرحمة "(١).

وبهذا التاج القرآنى فى التشريع الاسلامى تبرز عناية التشريع بالمرأة فضلا عما كفله من حقوقها فى الارث والتملك وحرية التصرف فى مالها ، وما لها من حقوق الزوجية فى النفقة والمسكن وحسن العشرة ، وبالجملة فقد رفعها التشريع الاسلامى من الحضيض الى القمة من متاع يورث ويحتقر ويمتهن الى انسان كامل له كل حقوق الانسانية ، وجعل الاسلام النسب والمصاهرة والولاء هى الصلات المعتبرة ، وحرم نكاح الجاهلية بأنواعه ماعدا النكاح القائم على الزوجية الشرعية والمهر ، وشنع على وأد البنات وجعله من الجرائم البشعة وتوعد عليه بسؤال الوائدين يوم القيامة " ومن نوقش الحساب يوم القيامة عذب "(٢) قال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى هذا المعنى الذى اخترناه " وقد يتوجه معنى ذلك الى أن يكون : واذا الموءودة سئلت قتلتها ووائدوها ، بأى ذنب قتلوها ؟ ثم رد ذلك الى مالم يسم فاعله ، فقيل : بأى ذنب قتلت "(٣).

وحث التشريع الاسلامى على العدل بين الزوجات التى حددت بأربع بعد أن كن بلا حصر وحذر من الجور ، قال تعالى : ( فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا )(٤) أى لا تجوروا يقال عال فى الحكم اذ قسط وظلم وجار ، وفى هذا المعنى يقول أبو طالب فى قصيدته :

بميزان قسط لا يخيس شعيرة .. له شاهد من نفسه غير عائل(٥)

---

( ١ ) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٤٤٧ وما بعدها ط ٧ دار احياء التراث العربى .
( ٢ ) البخارى ومسلم واللفظ لمسلم ج ٤ ص ٢٢٠٤ .
( ٣ ) ابن جرير الطبرى ج ٣٠ ص ٧٢ ط الحلبى .
( ٤ ) النساء الآية ٣ .
( ٥ ) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٥ ط النهضة .

وخص الأم بمزيد من العناية والرعاية ، قال تعالى : ( حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لى ولوالديك ) (١) ، وحث الرسول الكريم على برهما وتقديمها على غيرها فقد سأله أحد الصحابة قائلا من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك وفى الرابعة قال ثم أبوك " (٢) .

وأولئك الذين عاشوا على الفسوق والعهر ، جاء الاسلام فكساهم حلة من الطهر والعفاف حينما استمعوا الى آيات الله تتلى عليهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ) (٣) فغضوا أبصارهم عن محارم الله ممتثلين لأمر الله فان زل أحدهم وغلبه الشيطان بادر معترفا مختارا مطالبا بتطهيره بحد الله مؤثرا الموت رجما على رؤوس الأشهاد على أن يبقى متلبسا بالخطيئة ، فالخوف من الله ملك عليه أمره وسيطر على جميع جوارحه ، والندم على الذنب استولى على مشاعره فلم يجد يهدأ له بال أو يقر له قرار ، جاء فى الحديث أن ماعزا الأسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله انى قد ظلمت نفسى وزنيت وانى أريد أن تطهرنى ، فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال : يارسول الله انى قد زنيت ، فرده الثانية . فأرسل رسول الله الى قومه فقال : " أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ " فقالوا ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا ، فيما نرى . فأتاه الثالثة . فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه : أنه لا بأس به ولا بعقله . فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم " (٤) وفى رواية أخرى ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس — أى الصحابة — فسلم ثم جلس . فقال " استغفروا لماعز بن مالك " قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك . قال : فقال رسول الله

---

(١) لقمان الآية ١٤ .
(٢) رواه الشيخان واللفظ للبخارى ج ٨ ص ٣ ط الشعب ورواه الترمذى وابن ماجه ، د ، حم .
(٣) سورة النور الآية ٣٠ .
(٤) رواه الشيخان واللفظ لمسلم ففى البخارى ج ٧ م ٣ ص ٥٩ ط الشعب ، وفى مسلم ج ٣ ص ١٣٢٣ ط دار احياء التراث العربى .

صلى الله عليه وسلم " لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم " (١) .

ومثله فعلت الغامدية وكانت حبلى جاءت الى رسول الله فقالت : يارسول الله انى قد زنيت فطهرنى . وانه ردها ، فلما كان الغد قالت : يارسول الله لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا . فوالله انى لحبلى . قال : " اما لا فاذهبى حتى تلدى " فلما ولدت أتته بالصبى فى يده كسرة خبز . فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه أياها فقال : " مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة ، لو تابها صاحب مكس لغفر له " ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وهكذا سما الطهر بالمسلم سموا رفيعا فصفت نفسه ، وحلقت فى عليين .

أما أولئك الذين كانوا يؤمنون بالطبقية ، ويخضعون لها ، وممنا هما ان الناس أسر وقبائل بعضها أفضل من بعض من حيث العرق والنسب ، جاء الاسلام فغير تفكيرهم وتصورهم فى هذا المجال فما ان استمعوا الى قول الله تعالى : ( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) (٣) حتى لبوا النداء وألغوا التفاوت الطبقى الذى كان سائدا بينهم بهذا المفهوم ، وأصبح فى أذهانهم ومشاعرهم أن لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى " .

---

( ١ ) رواه مسلم فى المصدر السابق ص ١٣٢٢ .

( ٢ ) رواه مسلم ج ٣ ص ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، والمكس هو جباية الضرائب من بائعى السلع وهو من الظلم ، قال النووى رحمه الله : فيه أن المكس من أقبح المعاصى والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده وتكرر ذلك ، وانتهاكه للناس وأخذ أموالهم بغير حقها وصرفها فى غير وجهها أ . هـ من شرح النووى على مسلم ج ١١ ص ٢٠٣ ط ٢ بيروت . دار الفكر .

( ٣ ) الحجرات الآية ١٣ .

فاتحدت كلمتهم وتوحدت صفوفهم ، وانطلقوا يجاهدون فى سبيل اللـه لاعلاء كلمة الله ، فاحتلوا عرش كسرى وأبادوا دولة الروم ، وما ذلك الا لأنهم كانوا مع الله فكان الله معهم .

كل ذلك التغيير الذى حدث فى الصفوف ، وكل ذلك التأثير الذى سرى فى النفوس كالكهرباء ما هو الا ثمرة من ثمرات هذا التشريع السماوى الـذى ختم الله به الشرائع بمبادئه السمحة ، وشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الفريدة التى كانت خير قدوة للناس . ( لقد كان لكم فى رسول اللـه أسوة حسنة ) (١) .

... ... ...

---

(١) الأحزاب الآية ٢١ .

# الفصل الثالث

## الفرق بين التشريعين السماوى والوضعى

قبل أن نقارن بين التشريع السماوى وما يسمى بالتشريع الوضعى نقول ان اطلاق لفظ تشريع على ما يصدره البشر من القوانين والنظم فيه تجوز لأن المشرع الحقيقى هو الله ، والشريعة الحقيقية هى ما شرعها الله لعباده فهو وحده العليم بما يصلحهم فى شئون معاشهم ومعادهم ( الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)(١) أما التشريع الوضعى فهو مجموعة التنظيمات التى يضعها البشر لضبط العلاقات البشرية فتتخذ منها الدول قوانين تفرضها على شعوبها ، وتلزمها بالتقيد بها والعمل بمقتضاها ، والبشر مهما أوتوا من الحكمة والفكر فالخطأ حاصل بهم ، لعدم معرفتهم بأحوال النفوس البشرية ومتطلباتها معرفة حقيقية • ولسنا فى حاجة الى الاستطراد بعرض نماذج من هذه التشريعات الوضعية ولكنا سنذكر الفرق بين التشريعين ليتبين الحق ويظهر ، ويزهق الباطل ويدحر ( ان الباطل كان زهوقا )(٢) ذلك أن التشريع الاسلامى يعتمد على أمرين :

١ — الترغيب ٢ — الترهيب

فالترغيب يدعو الى الايمان بالله بما أعده الله من ثواب لامتثال أوامره واجتناب نواهيه • وبذلك تحصل للانسان قوة الايمان التى ينتج عنها تقوى الله عز وجل فتجعله يلتزم بتشريع الله تعالى استجابة لأمره ، وطمعا فيما عنده من الثواب •

---

(١) الملك الآية ١٤ •
(٢) الاسراء الآية ٨١ •

أما الترهيب فقد جاء على نوعين :

الأول : ما فرضه الله من العقوبات فى الدنيا لمن لم يستجب لأمره .

الثانى : ما توعد به من الجزاء الأخروى الذى يرهب النافرين عن الله فيردهم الى صوابهم ، خشية من الله ورهبة منه .

والفرق بين التشريعين نجمله فى الفقرات التالية :

أولا : التشريع السماوى — كما قررنا — دين . فامتثاله تعبد لله وتقرب اليه سبحانه وتعالى ، والانسان فى ذلك ينتظر الثواب الأخروى . فالوازع على امتثاله نابع من داخل النفس البشرية . أما القوانين الوضعية فليس فيها أى تعبد اللهم الا عبادة غير الله — لقوله تعالى : ( اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله )(١) فهم يشرعون لهم مالم يأذن به الله ، ولا يوجد فيه الباعث الداخلى على التقيد به ، لأنه لا يربط النفس الانسانية بخالقها ، ولذا كان الاحتيال عليه يدخل من أوسع الأبواب ، لأنه مفروض بالقهر والسيطرة .

ثانيا : يعنى التشريع السماوى بالانسان من جميع جوانبه ، ويؤكد على طهارة النفس من الحقد والحسد وينظم العلاقة بين الانسان ونفسه ببيان ما يحل له وما يحرم عليه ، كما ينظم علاقتهم بغيره على مستوى المجموعة الانسانية بينما التشريع الوضعى محصور على العلاقات بين الدولة والشعب — أى الرعية — وبين الأفراد ببعضهم فحسب .

ثالثا : التشريع السماوى يحاسب على الأعمال الباطنة كما يحاسب على الأعمال الظاهرة فمتى عمل الانسان شيئا مخالفا لأوامر الله عاقبه الله ، فالله سبحانه يعلم السر وأخفى ، ( يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور )(٢) ( لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا )(٣) بهذه النصوص وغيرها من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول

---

(١) التوبة الآية ٣١ .
(٢) غافر الآية ١٩ .
(٣) الكهف الآية ٤٩ .

الله صلى الله عليه وسلم يتضح منها للانسان أن أى عمل يقوم به سيكون محل جزاء وعقاب ( فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره )(١) وبهذا استجاب الانسان لتشريع الله وامتثل لأوامره ونواهيه ، وكف عن الأعمال المنافية لذلك . بينما نجد أن التشريع الوضعى لا يحاسب الا على الأعمال الظاهرة فقط لهذا كان الاحتيال عليه سهلا ، والتهرب من الزاماته بشتى الوسائل أمرا مألوفا ، لأن الانسان متى استطاع أن يفلت من العقاب الذى ينص عليه القانون يشعر بنشوة النصر على القانون . كما يشعر اللص لدى الافلات من الحراس .

رابعا : التشريع السماوى شامل وكامل أحاط بشئون الانسان فى دنياه وأخراه ، ومن صفاته العدل فلا يكون فيه الا ما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد لأنه من لدن عليم خبير ، بينما التشريع الوضعى من وضع البشر ، وهم يتأثرون بالأهواء والحسوبيات والمصالح الخاصة ، وبذلك يكون تشريعهم ناقصا وقاصرا غير مستوف لحاجات الناس .

خامسا : التشريع السماوى يدعو الناس الى الفضيلة ويحميها ويحذر من حمأة الرذيلة ويعاقب عليها لتظل النفوس البشرية طاهرة نقية وبه يكون المجتمع الاسلامى نظيفا صافيا ، أما التشريع الوضعى فيجيز فى معظم الأحيان المحرمات تبعا لأهواء واضعيه واستجابة لشهواتهم وذلك يؤدى الى المفاسد وانتشار الرذائل وطغيان الشهوات .

سادسا : التشريع السماوى يربط الانسان بالله وحده ويرفعه عن عبودية غيره ، ويبعده عن استغلال فرد لفرد أو أمة لأخرى ، بينما التشريع الوضعى يربط الانسان بانسان هو صاحب القانون ، أو بالدولة التى تفرضه وتحميه ، فتظل العبودية قائمة بالانسان ، وهذا هو واقع الأفراد

---

(١) الزلزلة الآيتان ٧ — ٨ .

والجماعات عندما تنحسر من حياتها تشريعات السماء .

سابعا: التشريع الاسلامى له مصدران أساسيان هى الكتاب والسنة ، ومصدران آخران يعتمدان على المصدرين الأولين هما الاجماع والقياس ، بينما التشريع الوضعى يستمد تشريعاته من العرف والعادات السائدة فى المجتمع ويعتمد على عقل الانسان وحده ، ولا يخفى أن الانسان مهما ارتقى عقله ونضج فكره فانه يظل عاجزا عن ادراك كثير من القضايا ، والمجتمع اذا كانت الأعراف والعادات فيه فاسدة فان القانون سيكون فاسدا كمصدره .

وما أنه قد ذكرنا المصادر التى يستقى منها التشريع الاسلامى نصوصه وهى القرآن والسنة ، والاجماع ، والقياس ، كان لزاما علينا أن نعرف كل قسم تتميما للفائدة فنقول :

١ — القرآن : " هو كتاب الله المنزل على نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم المتحدى بأقصر سورة منه المتعبد بتلاوته المنقول الينا نقلا متواترا "(١) .

٢ — السنة : " هى ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير "(٢) فمنها المتواتر اليقينى ، والصحيح ، والحسن ، فيؤخذ بها فى التشريع وما كان دون ذلك فلا يؤخذ به فى التشريع .

٣ — الاجماع : " وهو اتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى بعد وفاة رسول الله كاجماعهم على جعل أرض العراق أراضى خراج تملك منفعتها ولا تملك عينها ، واجماعهم على جمع القرآن . وهو فى عرف الأصوليين : " اتفاق المجتهدين من هذه الأمة فى عصر على أمر من الأمور "(٣) .

---

(١) ارشاد الفحول للشوكانى ص ٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٧١ .

٤ — والقياس : " هو استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما "(١)
"ولا يخفى أن القياس يستند على نص ، وهو يجعل المسلمين دائما قادرين على ايجاد الحلول واستنباط الأحكام لكل مسألة أو مشكلة تعترضهم ، وبهذا يظل التشريع الاسلامى ناميا متطورا ملبيا لحاجات الناس فى كل زمان ومكان ، دون أن يتأثر بالعوامل البشرية والأهواء والرغبات والشهوات ، لأنه يعتمد على القواعد الكلية التى أنزلها الله تعالى فى كتابه ووضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنته "(٢) .

وبذلك نكون قد أوجدنا مقارنة بسيطة بين التشريعين بايجاد الفرق بينهما ، وبهذا يتبين أنه ليس على وجه الأرض قانون ينظم علاقات البشر بربهم وعلاقات بعضهم ببعض كقانون السماء لأنه — كما قررنا — دين ، " وليس على وجه الأرض قوة تساوى قوة التدين فى كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع البشرى كله واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه "(٣) .

أقول : ذلك أن الانسان يساق من باطنه ، لا من ظاهره ، وليست القوانين البشرية ولا سلطان الحاكمين بقادرين على اقامة الفضيلة بين الناس وليس فى استطاعتهما دفعهم الى احترام الحقوق وأداء الواجبات على الوجه الأكمل لأن كل من يقوم بواجبه رهبة من العقاب البدنى أو المالى لا يلبث أن يهمله ، ويحتال للتخلص منه ، ولنضرب على ذلك مثلا يصور لنا الفرق بين وازع الايمان ، ووازع السلطان العاجز .

مما لا يخفى أن الخمر شراب مسكر يغيب العقل ويفسد الجسم ومضاره كثيرة لا تخفى على أحد ، وقد انتشرت عادة الناس لشربه خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان انتشار هذه العادة السيئة واسعا على مستوى طبقات

---

(١) ارشاد الفحول ص ١٩٨ .
(٢) المجتمع المتكافل فى الاسلام ص ٥٤ للدكتور عبد العزيز الخياط . بتصرف .
(٣) كتاب الدين ص ٩٨ للدكتور محمد عبد الله دراز . بتصرف يسير .

الشعب كله مما حدى بالمسئولين بعد دراسة ما أحدثته هذه العادة من ضرر على الفرد والمجتمع فحصل اقتناع أن لابد من اصدار قانون يمنع تلك العادة " وبذلك أصدرت الحكومة الأمريكية قانونا يمنع الخمر وأعدت لتنفيذه شتى الوسائل ، وتأهبت لذلك الامكانات الضخمة التالية :

١ — جند أسطول كامل لمراقبة الشواطئ منعا للتهريب .

٢ — جند الطيران لمراقبة الجو .

٣ — شغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والاعلام لمحاربة الخمر ، وبيان مضارها ، وجندت كذلك المجلات ، والصحف ، والكتب والنشرات ، والصور والسينما ، والأحاديث والمحاضرات وغيرها .

ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات ، وأن ما أصدرته من الكتب والنشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم — في مدة أربعة عشر عاما — لا يقل عن مائتين وخمسين مليون جنيه ، وقد أعدم في هذه المدة ثلاثمائة نفس وسجن خمسة وثلاثون وثلاثمائة واثنان وثلاثون وخمسمائة ألف نسمة وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه ، وصودر من الأملاك ما بلغ أربعمائة مليون وأربعة بلايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية الا غراما بالخمر ، وعنادا في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٢ الى الغاء هذا القانون ، واباحة الخمر اباحة مطلقة "(١) .

هذه القصة الواقعية تبرز لنا فشل القانون وعجز السلطان ، وافلاس أجهزة الدولة الضخمة في منع الخمر رغم الاقتناع العقلي بالضرر الحاصل من تعاطيها والذى كان سائدا بين كافة الطبقات ، لكن الاقتناع العقلي شيء وقوة الارادة النابعة من قوة الايمان شيء آخر والتي تتمثل في الصورة التالية :

---

(١) ذكر هذه الاحصاءات الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٨٣ نقلا عن كتاب " تحقيقات " للأستاذ أبو الأعلى المودودي . " هامش "

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وللخمر في نفوس العرب مكانة كبيرة يتمدحون بشربها ، ويتفننون في وصفها ، ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها حتى قال شاعرهم :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة ∴ تروى عظامي بعد موتي عروقها

كما أن تجارة الخمر كانت في نماء وازدهار ، والحاصل أن حبهم للخمر كان يسرى في نفوسهم سريان الدم في العروق ، فجاء التشريع السماوى وتدرج في تحريمها رفقا بهم وتيسيرا عليهم وتمهيدا للتحريم القاطع ، ولما نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة بالتحريم ( يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون )(١) ، ما أن سمعوا هذا النداء يجلجل في أنحاء المدينة حتى بادروا بتحطيم كئوسهم ودنانهم واراقة ماكان عندهم من الخمر ، حتى فاضت به طرق المدينة .

عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله تعالى حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية — يعني آية المائدة — وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبع ، قال أبو سعيد فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها — أى صبوها "(٢) .

وروى ابن جرير رحمه الله .. عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : " بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة — أى حلالا — اذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر " يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر — الى قوله — فهل أنتم منتهون " فجئت الى أصحابي فقرأتها عليهم .. قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضا وبقي بعض في الاناء ... فقال بالاناء تحت شفته العليا

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

(٢) رواه مسلم جـ ٣ باب المساقات ص ١٢٠٥ رقم الحديث ٦٧ .

كما يفصل الجحام ثم صبوا ما فى باطيتهم[1] فقالوا : انتهينا ربنا .. انتهينا ربنا "[2].

هذه الصورة المشرقة المتغلغلة فى أعماق النفس الانسانية لم يأت بها قانون أو يفرضها سلطان ، ان الذى غرسها فى النفوس هو تشريع السماء وان الذى غذاها هو الايمان بهذا التشريع فكانت الثمرة سرعة الاستجابة لأوامر الله وانتصارا على العادات والشهوات . وبهذا المثال يتضح المقال وبذلك ينتهى هذا البحث والله من وراء القصد .

... ... ...

---

(١) الباطية ناجود الخمر وهى اناء عظيم من زجاج يغرفون منها ويشربون .

(٢) ابن جرير الطبرى فى تفسير آية المائدة ، رقم الحديث ١٢٥٢٣ ج ١٠ ص ٥٧٢ بتحقيق محمود شاكر .

# الباب الثالث

## دور القرآن الكريم فى تربية النفوس وتهذيبها

■ ويشتمل على ثلاثة مباحث :

(١) العقائد .
(٢) العبادات .
(٣) الأخلاق .

• •
• •

فى هذا الباب سنتحدث عن تربية النفوس وتهذيبها فى ظل القرآن الكريم ، وقد قسمنا هذا المبحث الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المقائد .

الفصل الثاني : المبادات .

الفصل الثالث : الأخلاق .

ولنشرع بعون الله تعالى فى الكلام عن الفصل الأول ، فنقول :

ان القرآن الكريم يعرض العقائد الالهية عرضا وافيا جامعا بأدلة واضحة سهلة لا تعقيد فيها ولا غموض ، فمن عرضه لعقيدة الألوهية حشد الأدلة الكونية حشدا هائلا بما يجعل النفس الانسانية تقف عند كل مشهد من مشاهد السموات والأرض متأملة خاشعة تخرج من هذا التأمل وهذا الخشوع بايمان تشرق شمسه على جوانب النفس كلها فتصبح عقيدة تنفذ الى العقل فتقنعه وتطمئنه ، والى القلب فتهزه وتحركه ، والى الارادة فتدفعها وتوجهها واذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب ، واتجهت الارادة ، استجابت الجوارح ، واندفعت للعمل طائعة راضية .

ذلك أن الايمان بالله تعالى هو القاعدة الأساسية التى يقوم عليها التصور الصحيح ، بمعنى أن الايمان به عز وجل ربا وخالقا ومعبودا واحدا لا رب سواه ولا معبود غيره هذا الايمان هو المنطلق الذى يتفق مع الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، ولم يحدث أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة أى حقيقة وجود واجب الوجود منذ أزمان طويلة تعاقبت فيها الأجيال جيل بعد جيل . الا فى هذا العصر حيث ظهرت فئة من الناس تحاول قطع صلتها بأصل الفطرة فأنكرت وجود الله ، وقولى " تحاول قطع صلتها بأصل الفطرة " ولم أقل قطعت صلتها .. ذلك أن الفطرة شيء مركوز فى النفس البشرية ، وقطع الصلة به من قبيل العبث ، لأن الانسان يشعر

- بالضعف البشرى ويشعر

بالتالى بوجود قوة خفية يلجأ اليها عند الشدة تلك القوة هى التى تنقذه من الأزمات ، هذه القوة القادرة المهيمنة المسيطرة على جميع المخلوقات هى : " الله تعالى " وسواء عرفها أو جحدها ، فهى موجودة فى نفسه يعرفها بأثرها عند الشدائد ، لذلك فالقرآن الكريم لم يعنى بقضية اثبات وجود واجب الوجود عناية كبيرة لأنها قضية مسلمة من جميع المخلوقات تقريبا .

ولكنه اتجه الى قضية حشد لها الأدلة فى الآفاق وفى الأنفس ووجه النفوس البشرية اليها ألا وهى وحدة الألوهية لأنها القضية الأساسية فى حياة البشرية كافة اذ من فهمها على حقيقتها تتفرع سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية والسلوك الفردى والجماعى . فمن وحدة الألوهية يتجه الخلق الى الاله الواحد فيعبدونه وحده لاشريك له ، ويستجيبون لأوامره فيطيعونه ، ويتجنبون نواهيه فلا يعصونه ، بهذه الطاعة المطلقة للاله الواحد المعبود الحق ينتظم السلوك البشرى بين الأفراد والجماعات على هدى من الله فتتوحد وجهتهم كما توحد منهجهم .

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله " من وحدة الألوهية يتوحد المعبود الذى يتجه اليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق[1] " .

وسنختار بعضا من الآيات الدالة على وحدة الألوهية نتفيأ ظلالها ونستروح عبيرها ونستلهم توجيهها ونستوحى من خلالها ما يحرك النفس البشرية ويهزها ويردها الى خالقها ومدبر أمرها :

---

(١) فى ظلال القرآن م ١ ص ٢١٢ .

قال تعالى : ( والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم )[١] ففى هذه الآية الكريمة تقرير لوحدة الألوهية وتأتى بعدها مباشرة الأدلة الكونية التى تثبتها فى النفوس . قال تعالى ( ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون )[٢] .

هذه الآيات الواضحة الدالة على وحدة الألوهية انما يستفيد منها العاقلون أما من لم ينتفعوا بنعمة العقل فتعاموا عن الحق وسلكوا سبل الغواية ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل لأنهم لم يستفيدوا من هذه النعمة التى ميزهم الله بها على جميع المخلوقات وهى نعمة العقل فكانوا أضل سبيلا من الأنعام وكانوا كمن لا عقل له " ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " .

والقرآن الكريم حينما يلفت حس البشرية الى هذه الآيات ويحثها على التدبر فى عظمة الخلقة ودقة الصنعة يذكر مع ذلك أن لا ينتفع بهذا الكتاب المنظور الا أولو الألباب " وما يذكر الا أولوا الألباب "[٣] ، " لآيات لأولى الألباب " فأولو الألباب هم الذين لا يغمضون أعينهم أمام هذه الآيات الباهرة ، ولا يصرفون وجوههم عن هذه الأدلة الواضحة ، ولا يغلقون عقولهم عن تدبر آيات الله وعجائب صنعه فى هذا العرض الكبير ، فأولو الألباب هم الذاكرون الله عز وجل فى كل أحوالهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم المتفكرون فى عجائب مخلوقات الله القائلون : " ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك " ، قال تعالى : ( ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار )[٤] .

---

(١) البقرة الآية ١٦٣ .
(٢) نفس السورة الآية ١٦٤ .
(٣) آل عمران الآية ٧ .
(٤) نفس السورة الآيتان ١٩٠ — ١٩١ .

هذه الآيات التى توجه القلوب والأنظار الى مشاهد الكون توجيها مكررا لا يدرك معنى هذا التوجيه الربانى منها الا أولوا الادراك الصحيح الذين يفتحون بصائرهم فيتدبرون ، ولا يقيمون حواجز بينهم وبين هذه المشاهد التى تشهد بالوحدانية فهم يستمتعون بالمشاهد المختلفة العظيمة الدالة على الاله الخالق العظيم .

يالله! ما أعظمها من مشاهد ! وما أروعها من عجائب ! وما أوضحها من أدلة ! ، السموات — الأرض — اختلاف الليل والنهار — هذه المشاهد لو تدبرها الانسان لوجد أن وراء هذا التنسيق العجيب المحكم وما فيه من نظام دقيق خالقا مدبرا حكيما .

وتبرز فى هذه الآية الكريمة كما يقول سيد قطب رحمه الله : حقيقتان :

الأولى : أن التفكر فى خلق الله والتدبر فى هذا الكون العظيم هو عبادة لله من أكبر العبادات ، وذكر لله من صميم الذكر ، وبذلك لو وصل علماء العلوم الكونية هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره والشعور بجلاله وفضله ، لتحولت من فورها الى عبادة لخالق هذا الكون ، وتحول بالتالى معظم سكان الأرض الى عبادة الله وحده ، واستقامت الحياة بهذه العلوم ، واتجهت الى الله ، وبذلك يتحول العلم الى نعمة عظيمة من الله للانسان بدلا من حياة الجحيم ، حياة القلق التى سببها الخواء الروحى الذى يطارد الانسان اليوم .

الثانية : أن آيات الله فى الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية الا للقلوب الذاكرة العابدة ، وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، هم الذين تتفتح بصائرهم للحقائق ، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الالهى الموصل الى النجاة والخير والصلاح [١] " .

---

(١) رفى ظلال القرآن جـ ٤ م ٢ ص ١٩٠ جـ ٧١ دار احياء التراث العربى بيروت .

ومن سورة الرعد ننصت خاشعين متدبرين الى آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره . قال تعالى : ( الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون )(١) هذه السموات المرفوعة بهذا العمد الهائل معروضة للأنظار ظاهرة للعيان ، انها عظيمة حقا حين يتأملها الانسان وتتدبرها العقول وهى لا تستند الى شيء . نراها مرفوعة بغير عمد مكشوفة .

حين يتأمل الانسان ويعمل فكره يهتز وجدانه ، ويدرك أن لا أحد يقدر على رفعها بعمد أو بغير عمد الا الله . وحين يعرف الانسان قدرة الله حق قدرها بهذا الخلق العظيم وهذا الاتقان العجيب من هذه الآية الكريمة ينقله السياق القرآنى الى ما وراء ذلك الى عالم الغيب الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار ، " ثم استوى على العرش " يرتقى به السياق القرآنى الى العلو المطلق ، علو الله تعالى على العرش ، فان كان فى السموات علو فالله أعلى وأجل وان كان فيها عظمة فى الخلق فالله أعظم لأنه الخالق جل وعز سبحانه ، فله الاستعلاء المطلق والعظمة المطلقة . ولا يخفى ما فى الاستشعار بهذه العظمة وهذا الاستعلاء من المهابة فى النفس البشرية للخالق العظيم وما ينتج عن ذلك من السلوك القويم .

وتنتقل الآية الكريمة بالنفس البشرية الى تسخير الكوكبين النيرين " الشمس والقمر " وفق سنة مقدرة يجريان فى الفلك ، والى الأمد المقدر لهما " وكل فى فلك يسبحون "(٢) ومع هذا التسخير الحكمة والتدبير " يدبر الأمر " ان الأمر كله بيده ، والكون كله تحت تصرفه ، والخلق جميعا فى قبضته ( انما أمره

---

(١) الرعد الآية ٢ .

(٢) يس الآية ٤٠ .

اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (١) ) ، وفى تدبير الأمر تفصيل الآيات أى تنظيمها وتبيينها " يفصل الآيات " كل ذلك يدل على أن من قدر على هذه الأشياء يقدر ولاشك على الاعادة ، وهذا كله يوحى بأنه لابد من عودة الى الخالق العظيم بعد فناء هذه الحياة الدنيا ، لذلك ختم الآية بقوله تعالى : " لعلكم بلقاء ربكم توقنون " .

وبعد أن بين آيات السماء ينقلنا السياق القرآنى الى آيات الأرض ، قال تعالى :

( وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢) ) .

فامتداد الأرض وبسطها وسعتها وتثبيتها بالجبال الرواسى كى لا تميد وتضطرب ، وجعل الأنهار تجرى فيها فتسقيها فتخرج ثمرات متزاوجة " ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين " . قال أبو السعود فى تفسيره " أى اثنينية حقيقية ، وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع (٣) " ومشهد الزوجية فى النبات لم يكن معروفا فى القدم ، فجاء القرآن يقرر هذا قبل أربعة عشر قرنا والناس ظلوا فى غفلة عن هذه الحقيقة الى أن اكتشفت قريبا هذه الزوجية فى النبات وغير ذلك من الأحياء ، قال الباحثون فى ذلك " ان كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونا أن ليس فى جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة أو متفرقة فى العود . وهى حقيقة تتضامن مع المشهد فى اثارة الفكر الى تدبر أسرار الخلق بعد تملى ظواهره (٤) ( سبحان الذى خلق

---

( ١ ) يس الآية ٨٢ .
( ٢ ) الرعد الآية ٣ .
( ٣ ) تفسير أبو السعود " جـ ٣ ص ١٩٨ .
( ٤ ) فى ظلال القرآن جـ ١٣ ص ٧٣ م ٥ .

الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون )[١] وغشيان الليل النهار أى يغطى نوره ويعقبه ثم يأتى النهار فيبدد ظلام الليل وهكذا يعقب أحدهما الآخر على مر الدهور ، كل ذلك دلالات واضحات وعلامات بينات لمن يعمل فكره ويتدبر فى القدرة المبدعة ، والدقة المحكمة ان هذا المشهد الكونى الكبير ليوقظ الغافلين فتهتز القلوب لروعته .

ويأتى بنا السياق القرآنى الى الآية الثالثة التى تلفت أنظارنا الى شيء جزئى فى صفحة هذا الكون ، ولكنه دقيق للغاية ، ولست أعنى بالدقة الغموض ولكن أعنى به شدة غفلة الناس عنه ، يمرون عليه ولا تتحرك فيهم حتى رغبة التطلع اليه " لهمود الحس بطول الألفة " كما يقول سيد قطب ، لكن القرآن الكريم — كما هو شأنه فى التربية — يحرك النفس الانسانية ويردها الى الفطرة ويصلها بالكون الذى هى قطعة منه . قال تعالى :

( وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون )[٢] .

هذه الأرض قطع متجاورات الخصب والسبخ ، العامر والغامر ، الحى والميت كلها متجاورات تسقى بماء واحد ، وتربتها واحدة ، والهواء اللازم للنبات واحد فكان الأقرب الى التصور العقلى أن تنبت كلها نوعا واحدا من النبات يخرج منه ثمر واحد ، فما هو السر الذى يجعلها تختلف فى النبات والثمرات كما وكيفا وطعما ( ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ) البعض ثمره كثير والآخر ثمره قليل ، وهذا حجمه صغير وذاك حجمه كبير ، وهذا طعمه حلو ، وذلك طعمه مر ، فمن غير الخلاق العليم المدبر الحكيم يفعل ذلك ؟

---

(١) يس الآية ٣٦ .

(٢) الرعد الآية ٤ .

واكتفى القرآن الكريم بذكر ثلاثة أنواع من النبات فى هذه الآية لمجـــرد التمثيل فقط لمختلف أشكال النبات ، ولعل فيه اشارة الى أهم المواد الغذائية التى يحتاج اليها الانسان ، ففى الأعناب والنخيل تستخرج المواد السكرية ، ومـــن الزروع التى تنتج البقول والحبوب تستخرج المواد النشوية ، كما أن المـــواد الدهنية تستخرج من الزيت والبروتينية تستخرج من الحيوانات ، وسيأتى ذكرهـا ان شاء الله ، " ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " فالقرآن الكريم يخاطـــب الناس بأشياء يعرفونها ، ومن عليهم بنعم يدركونها . خاطب الانسانية كلهـا وحرك وجدانها بما يسوقه من الحجج البالغة على وجود الله وقدرته بمختلـــف الآيات الدالة على أن هذا التكوين العجيب أثر من آثار العناية الالهيـــة والحكمة الربانية . فان من عقل هاتيك الأحوال العجيبة ، وخروج الثمـــار المختلفة فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينـــة المتلاصقة مع اتحاد ما تسقى به وسائر أسباب نموها لا يتلعثم فى الجـــزم بأن لذلك صانعا حكيما قادرا مدبرا لها لا يعجزه شيء ، وفى قوله تعالــى: " ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون" تعريض بأن المشركين غير عاقلين . وذكـــر الرجاز هذه الأبيات :

والأرض فيها عبرة للمعـــتبر ∴ تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارهـــا ∴ وبقعة واحدة قرارهـــا
والشمس والهواء ليس مختلـف ∴ وأكلها مختلف لا يأتـــلف
فما الذى أوجب ذا التفاضلا .. الا حكيم لم يرده باطـــلا

ونأتى الى ثلاث آيات من سورة ابراهيم نجدها تفتح كتاب الكون عـــلى مصراعيه . فتدلفنا الى نعم الله الجليلة التى لا يحصيها العد ، قال تعالى : ( الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمـرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار )(١) .

---

(١) سورة ابراهيم الآيات ٣٢ — ٣٤ .

في هذه الآيات الكريمة يوجه القرآن النفس الانسانية الى ربها وخالقها ، ويذكرها بنعم الله عليها لتذكره سبحانه وتعبده ، فالسموات وعلوها ، والأرض وانبساطها ، والشمس وحرارتها وضياؤها ، والقمر ونوره وجماله ، والماء النازل من السماء ووقعه في النفوس وأثره في الأرض الميتة واحياؤها ، وما يخرج به بعد ذلك من الثمرات الطيبة رزقا حسنا أباحه الله لبني الانسان ، وتسخير الفلك لتجري في البحر بأمر الله وما يترتب على هذا الجريان من نعم جمة منها الانتقال من بلد الى آخر ونقل الخيرات والمنتجات بين الشعوب فيعم الخير الجميع ، وتسخير الأنهار بجريانها بالأرزاق لأنها تغذى منابع المياه وتروى المساحات الواسعة من الأرض ، وتسخير الليل والنهار ، الليل وهدوءه وسكنه للراحة والاستقرار ، والنهار وضياءه لابتغاء الرزق وعمارة الأرض ، هذه كلها صفحات مشرقة معروضة أمام الانسان يمن الله بها عليه ويلفت نظره اليها ثم يعقبها بمسن آخر عام ضخم يتضمن جميع النعم صغيرها وكبيرها "وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها" ثم يذيل هذه الآيات بتقرير حاسم " ان الانسان لظلوم كفار " حقا ان نعم الله على الانسان كثيرة وكثيرة ولو أفنى الانسان عمره كله ليحصى نعم الله عليه فلن يستطيع ذلك ، وحقا أن الانسان لظلوم كثير الظلم لنفسه ، وأى ظلم أعظم من الشرك بالله " ان الشرك لظلم عظيم "(١) يبدل نعمة الله كفرا ويجعل لله نداً ، ويتخذ من نفسه معبودا يدور حولها ويلبي طلبتها ، ويستجيب لرغباتها على حساب ظلم الآخرين وقهرهم .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : — معقبا على هذه الآيات — " ان من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس الى عقيدة التوحيد ، ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الانسان الى دليل أو ايحاء ، وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضا لآيات الله ، تبدع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر ، وفي كل

---

(١) لقمان الآية ١٣

صورة فيه وظل ، انه يعرض قضية الألوهية والعبودية فى مجال المؤثرات،والموجهات الواقعية ، من مشاهد الكون ، ومجال الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبديهيات الادراك فى جمال وروعة واتساق "(١) .

فالقرآن الكريم يطلب من الانسان أن يستيقظ من الغفلة ويتطلع الى الكون من حوله ، فاذا هو مسخر له ، " وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه "(٢) وبهذا التطلع الى ما سخره الله للانسان فى هذا الكون يحصل التدبر والتفكر ، وحينئذ يحصل الخشوع والشكر للمنعم المتفضل فحين يكون الانسان فى شدة يلجأ الى ربه وخالقه فيبدله فرجا ، وحين يكون فى رخاء يتوجه اليه بالشكر والخضوع فيحفظ عليه نعمه ويزيده من فضله ( لئن شكرتم لأزيدنكم )(٣) وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعرفوا الى الله فى الرخاء يعرفكم فى الشدة "(٤) .

والقرآن الكريم سلك مسلكا فريدا فى مجال اثبات الأدلة على وجوب الايمان بالله سلك طرقا شتى ، واتخذ وسائل متنوعة ، ففى مقام مكابرة المشركين وعنادهم يقول الحق جل وعلا ( ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون )(٥) فهو يصورهم صاعدين نحو السماء ثم يفتح لهم بابا يلجون فيه ومع هذا فهم مكذبون قائلين ما هذا الا من تأثير السحر ، لذلك يأتى السياق القرآنى عقيب الآيتين بحشد ضخم من أدلة الكون وما فيها من المشاهد المتنوعة ، السماء وزينتها بالبروج الثوابت والسوارى ، وحفظها من كل شيطان رجيم ، والأرض واتساعها وامتدادها وما عليها من الأوتاد الشامخات وما فيها من الأرزاق والنبات لشتى المخلوقات ، والرياح وأثرها فى تلقيح النباتات المختلفة ثم مشهد الحياة

---

(١) فى ظلال القرآن م ٥ ص ١٦٧ .
(٢) الجاثية الآية ١٣ .
(٣) ابراهيم الآية ٧ .
(٤) مسند أحمد ج ١ / ٣٠٧ وهو حسن .
(٥) الحجر الآيتان ١٤،١٥ .

والموت فمشهد البعث والحشر ، كل هذا أدلة واضحة وآيات بينات على الموجد من العدم المتفضل بالنعم الذى عنت الوجوه لجلاله ، وخضعت الرقاب لسلطانه ، جل جلاله وتعالت أسماؤه لا إله غيره ولا رب سواه ، قال تعالى : ( ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وان من شيء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم ، وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين ، وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ، ولقد علمنا المستقدمين منكم ، ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم ) (١) .

لقد من الله على خلقه فى هذه الآيات بنعم شتى . فبعد أن عرض السماء المزينة بالبروج وأنه تعالى يتولى حفظها من الشياطين ، وأن من حاول الاقتراب من السماء أتبعه بالشهب المحرقة ، ذكر سبحانه وتعالى الأرض وامتدادها وما عليها من الجبال الرواسى ثم استمر فى تعداد هذه النعم واحدة بعد واحدة : ما أنبته فيها من كل شيء مقدر معلوم ، موزون بميزان الحكمة ، ومقدر بمقدار الحاجة ، ثم ذكر ما خلقه الله فيها من الأرزاق لتكون معايش لنا ولمن نعولهم من الأولاد والمماليك والخدم والدواب ، كما أن هؤلاء هم منة كبرى ونعمة عظمى ان أحسن استخدامهم فيما خلقوا له ، فمنة عامة وشاملة فما من شيء من الممكنات الا عند الله عز وجل خزائنه ، وما ينزله من السماء الى الأرض أو يوجده للعباد الا بقدر معلوم — أى مقدار ، قال الشوكانى : " والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئا من تلك الأشياء المذكورة الا متلبسا ذلك الايجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته ،

---

(١) الحجرات الآيات ١٦ — ٢٥ .

على مقدار حاجة العباد اليه كما قال سبحانه : ولو بسط الله الرزق لعبـــاده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، وقد فسر الانزال بالاعطـــاء ، وفسر بالانشاء ، وفسر بالايجاد والمعنى متقارب "(١) أ ٠ هـ ٠

ثم يمن الله تعالى على عباده بارسال الرياح اللواقح ولو شاء لجعلهـــا عقيما لا تحمل ماء ولا تلقح شجرا ، قال المفسرون " واللواقح جمع لاقح بمعـــنى حامل شبهت الريح التى تحمل السحاب الماطر بالناقة الحامل ، قال الفـــرا ء انها جمع لاقح أى ذات لقاح وحمل وذهب اليه الراغب(٢) ، فهى تحمل السحاب وتسوقها الى حيث يشاء الله لها ، وهى تلقح الشجر مما تحمله من خصائـــص الذكورة من بعض الشجر الى البعض الآخر التى بها خصائص الأنوثة ، حسبمـــا تفيد الكشوفات العلمية ، لكن هذا المعنى لا يحتمله اللفظ لأن السيـــــاق لا يتناوله ، ولذا نكتفى بالمعنى الأول وأنها لواقح بالماء [illegible] لقولـــه تعالى عقيب ذلك " فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه " أى جعلناه لكـــم سقيا تسقون به مزارعكم ومواشيكم ثم الآية بعد ذلك لا تنافى أن الرياح تكـون سببا فى تلقيح النبات بعضه بعضا ، وفى قوله تعالى : " وما أنتم له بخازنـين " نفى سبحانه عنهم ما أثبته لنفسه بقوله جل جلاله " وان من شيء الا عندنـــا خزائنه " كأنه قيل : نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزالـــه وما أنتم على ذلك بقادرين ، وقيل المراد نفى حفظه أى وما أنتم له بحافظـــين فى مجاريه عن أن يغور فلا تنتفعوا به ، ثم عقب سبحانه وتعالى بذكر الحيـــاة والموت وأنهما من اختصاصه وحده " وانا لنحن نحيى ونميت " أى أن الحيـــاة والموت بيد الله وأنه الوارث بعد الحياة أى الباقى بعد فناء الخلق قاطبــــة " كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام "(٣) وهو المالك للملك عند انقضاء هذه الحياة الدنيا يوم تقوم الساعة ( لمن الملك اليوم ، لله الواحـد القهار )(٤) ٠

---

(١) فتح القدير جـ ٣ ص ١٢٦ ط الحلبى ٠

(٢) روح المعانى جـ ٢٤ ص ٣١ ، ٣٢ ٠

(٣) الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ ٠

(٤) غافـر الآية ١٦ ٠

وفى سورة النحل المكية بعد أن يقرر تعالى وحدة الألوهية له وحده ، بقوله تعالى : ( ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون )(١) يسوق الأدلة على ذلك بخلق السموات والأرض ، وخلق الانسان ، وخلق الأنعام ، وذكر منافعها للانسان ، وخلق بعض الحيوانات للركوب والزينة ، ويختم هذه الآيات بتقرير احاطته بالمخلوقات بما علمنساه وبما لم نعلمه وكأنه سبحانه وتعالى يهيئ القلوب والأذهان لأشياء ستجد فى أزمان متعاقبة من وسائل للحمل والنقل ، ولقد جدت وسائل لم يكن يعلمها أبناء ذلك الزمان ، وربما ستجد وسائل أخرى لا نعرفها نحن أبناء هذا الزمان .

قال تعالى : ( خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون )(٢) .

فبالحق قامت السموات والأرض ، وكل ما فيهما وما بينهما قام بالحق كذلك فما من شيء من ذلك خلق عبثا ، بل التدبير قائم بكل شيء من الحق جل وعلا ، وهنا لفتة كريمة من القرآن الكريم للنفس الانسانية يذكرها بمبدأ أمرها من نطفة مهينة وينقلها فجأة الى الانسان المجادل الذى يخاصم خالقه فيشرك به غيره ويجادل فى وحدانيته ثم يعقب على هذا المشهد بذكر النعم التى امتن الله بها على هذا الانسان المخاصم المجادل فبدأ بذكر الأنعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز وذكر بعض منافعها منها الدفء والأثاث والمتاع من الأصواف والجلود والوبر والشعر كما فى آية أخرى ( ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين )(٣) ومنها المنافع الكثيرة غير ما ذكر من ألبانها

---

(١) النحل الآية ٢ .
(٢) نفس السورة الآيات ٣ — ٨ .
(٣) نفس السورة الآية ٨٠ .

ولحومها ومنها حمل الأثقال على ظهور الابل لمسافات بعيدة لا يستطيع الانسان الوصول اليها الا بمشقة شديدة ومنها جمال الاستمتاع بمنظرها رائحة غادية رائحة صحيحة يدرك هذا من مارس حياة البادية ثم يذكر الحيوانات الأخرى التي هي ضرورية بالنسبة للانسان للركوب والزينة بدأها بالخيل ولا يخفى ما في الخيل من الجمال والزينة وكان لها دورها في الحروب في ممارسة الكر والفر على الأبطال ومهم ، ولا يزال لها شأنها لقوله صلى الله عليه وسلم : " الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة "(١) وكذلك البغال والحمير فيها من المنافع العظيمة من الركوب ونقل الأمتعة وغيرها واكتفى بذكر علة الركوب باعتبار معظم منافعها . قال الامام الشوكاني رحمه الله عقب قوله " وزينة " : " والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود ، بخلاف الزينة فانه لايلتفت اليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب ، فكأنه سبحانه قال : خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الأعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات "(٢) .

قلت : بل التزين مقصود أيضا لأن القرآن الكريم جاء لمعالجة النفس البشرية والله سبحانه وتعالى يعلم ما في النفوس من رغبات وميول فطرية ، لذا نجد كثيرا من الآيات الكريمة تشير الى أن حب الزينة من الأمور الفطرية

قال تعالى : ( قل من حرم زينة الله أخرج لعباده )(٣) وقال تعالى : ( يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد )(٤) ففي هاتين الآيتين مراعاة لهذا الجانب وهو حب الزينة مالم يؤد هذا الحب الى العجب والكبر والبطر لقوله صلى الله عليه وسلم " لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " قال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : " ان الله

---

(١) رواه مسلم ، زكاة ج ٢ ص ٦٨٣ دار احياء التراث العربي .
(٢) فتح القدير ج ٣ ص ١٤٩ .
(٣) الاعراف الآية ٣٢ .
(٤) نفس السورة الآية ٣١ .

جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس" (١) وحب الزينة بهذا المفهوم الذى أوضحه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنافى بينه وبين المطالب العالية التى ينبغى أن يوجه اليها الانسان همته ، والله أعلم .

وفى مجموعة أخرى من آيات الذكر الحكيم من نفس السورة يأتى ذكر نعم أخرى ، أنزال الماء من السماء فيه عدد من النعم ، منه شراب يروى النفوس الظمئة والأكباد المتعطشة شراب للانسان وشراب للحيوان ، ومنه مراع للأنعام السوائم التى تربونها وتنتفعون بها وهذا بمناسبة ذكر الأنعام فى المجموعة الأولى ذكرت نعمة المراعى التى تسام فيها تلك السوائم ، ثم انبات الزروع التى يأكل منها الانسان بشتى أصنافها مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمار ، كل الثمرات مباحة للانسان ، هذه النعم آيات واضحات وعلامات بينات على أن الله وحده هو المعبود ، وما يدرك ذلك الا أهل العقول الحصيفة الذين يعملون عقولهم فى التدبر والتفكير فى مابثه الله من النعم الأرضية المعروضة لهم المشاهدة أمام أعينهم التى يلمسون نفعها فى حياتهم ، قال تعالى :

( هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ) (٢) .

ثم ينتقل بنا السياق القرآنى من نعم الأرض الى نعم السماء ، تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، كل هذا التسخير لهذه المخلوقات من النعم الجليلة على الانسان ، فتسخير الليل لمدة محدودة للسكن والاستقرار والراحة ، يعقبه نهار محدود للعمل والكسب ، وعمارة الأرض بمقتضى الاستخلاف عليها من أكبر النعم لو تدبرها الانسان ، اذ لو طال الليل طولا غير متناه لتعطلت المصالح ولفسدت الحياة ، ولو طال النهار فشمل الليل لتعكر صفو الحياة ، قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله

---

(١) رواه مسلم جـ ١ كتاب الايمان ص ٩٣ .
(٢) النحل الآيتان ١٠ — ١١ .

غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١) ) وكذلك تسخيرا لشمس والقمر والنجوم هذه الكواكب العظيمة التى تجرى لمستقر لها بتقدير العزيز العليم كل يجرى لأجل مسمى كم من نعمة فيها ، فمن نعم الله فى الشمس الضياء والحرارة ، ومن نعم الله فى القمر النور ومعرفة حساب الشهور والسنين ( هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون (٢) ) وتسخير النجوم للاهتداء بها فى الصحارى والبحار ( وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (٣) ) كل هذه الآيات البينات لقوم يعقلون ، يدركها أصحاب العقول ، فهى التى تدرك ما وراء الظواهر الكونية من سنن وقوانين فتؤمن به تعالى حق الايمان وتعبده وحده دون سواه .

ثم يعود بنا السياق القرآنى الى الأرض مرة أخرى فيذكرنا بتلك النعم المبثوثة فى ظاهر الأرض وباطنها بمختلف أنواعها وألوانها من معادنها وكنوزها التى خلقها وأودعها هذه الأرض خالقها العظيم تبارك وتعالى للبشر رزقا لهم بحيث لا ينسون أن يد القدرة الالهية هى التى تولت ذلك لا غيرها ، قال تعالى: ( وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون (٤) ) ثم يلفتنا القرآن الكريم الى البحر هذه الأمواج المتلاطمة المخيفة يسخرها الله للانسان فيسطوا عليها الانسان ويستخرج منها لحما طريا أنواعا مختلفة طعاما شهيا وحليا ثمينا من اللؤلؤ والمرجان وغيرها مما يلبس للزينة ، ثم تسخير هذه الأمواج فى حمل السفن على ظهرها والانتقال عليها من بلد الى آخر وابتغاء الرزق بواسطتها ، هذه السفن التى نشاهدها اليوم كالجبال الراسية تمخر عباب

---

(١) القصص الآيات ٧١ — ٧٣ .
(٢) يونس الآية ٥ .
(٣) الأنعام الآية ٩٧ .
(٤) النحل الآية ١٣ .

البحار الهائجة المائجة دون أن تمسها بسوء وماذاك الا بتسخير الله تعالى لها فمن غير الله يصنع ذلك ؟ لا أحد غير الله الخالق لها يقدر على ذلك أو أقل من ذلك ، ويعقب على هذه النعم بقوله تعالى : " لعلكم تشكرون " ففيه توجيه سماوى الى شكر الله المنعم المتفضل ، اللهم أرزقنا شكر نعمك ، قال تعالى: ( وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون )(١) ثم يذكرنا بنعم أخرى نعمة الجبال التى جعلها الله أوتادا لهذه الأرض تحفظ توازنها حتى لا تميد وتضطرب ونعمة الأنهار الجارية التى منابعها أصلا من تلك الجبال غالبا ، ونعمة السبل التى تخترق سفوح الجبال وقممها ورمال الصحراء ومجاهلها ثم نعمة النجوم التى يهتدى بها السالكون فى البر والبحار فى القيافى والقفار ، ثم يختم السياق بما يناسب قضية التوحيد التى بدأ بتقريرها فى أول السورة بقوله تعالى : " ان أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون " وهنا والنفوس قد تهيأت لمضمون هذا التقرير بعد عرض آيات الخلق وآيات النعم ، وآيات التدبر والتفكر يقرر تعالى أنه لا يستوى من يخلق ومن لا يخلق فالخالق وحده هو الذى يستحق أن يعبد ، قال تعالى : ( وألقى فى الأرض رواسى ان تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون )(٢) فالجواب الطبيعى على هذا السؤال التقريرى أن لا ولا يتصور أن انسانا عنده ملكة من عقل يسوى فى تقديره بين من يخلق هذا الخلق العظيم وبين من لا يستطيع خلق ذبابة بل ولا أقل منها ، فالأمر واضح جلى لا يحتاج الا الى شيء من التذكر فيحصل التبين .

وكم من نعمة على الانسان لا يدركها الانسان ، وبعد أن استعرض القرآن الكريم ألوانا من النعم يعقب عليها بقوله تعالى : ( وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها "(٣) والانسان لقصوره عن شكر المنعم جل وعلا بما أنعم وتفضل

---

(١) النحل الآية ١٤ .
(٢) نفس السورة الآيات ١٥ — ١٧ .
(٣) نفس السورة الآية ١٨ .

لا يستطيع عد هذه النعم فضلا عن أن يشكرها لذلك فالمتفضل الكريم وهو يعلم حقيقة الانسان وضعفه فتح له بابا يلج منه الى رحمته الشاملة ومغفرته الواسعة " ان الله لغفور رحيم "(١) وأيضا مع اقامة الحجج والبراهين فى كتاب الكــون المنظور وكثرة النعم التى يحسون بها ومع أمهنا لهم كى يفكروا ويتدبــروا ، ومقابلاتهم له بالجحود والانكار " ان الانسان لظلوم كفار "(٢) فهو مع هذا غفــور رحيم لا يعاجلهم بعقوبة بل يتركهم فيتوبوا فيغفر لهم رحمة منه وكرما ٠

ثم يعود لينبئهم بأنه تعالى ذكره محيط بشئونهم سرهم وعلانيتهــم ، وأن أولئك الذين تدعونهم من دون الله لا يستطيعون خلق شيء ، والتعبــير بشيء للتحقير أى أقل شيء بدليل قوله تعالى فى آية أخرى ( ان الذيــن تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له )(٣) ومع عجزهم الكلى عــن ذلك فهم مخلوقون لمن يعلم سرهم وعلانيتهم ، قال تعالى : ( والله يعــلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهــم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون )(٤) فما دامت هذه الالهة مخلوقة فهى لا تعلم شيئا من شئون عبادها بل هى ميتة لا تنتظر لها حياة وهى لا تعلم عن البعث شيئا ، أما الخالق فهو سبحانه يعلم متى يبعث عباده فيجازيهم بما عملوا ٠

ثم يلى ذلك تقرير الوحدانية لله تعالى يعلنه القرآن قويا مدويا ( الهكــم اله واحد ) يعلن وحدة الألوهية ويبين سبب عدم ايمان الذين لا يؤمنـــون بالآخرة وأن ذلك راجع الى شيئين :

الأول : أن الجحود صفة كامنة فى قلوبهم " قلوبهم منكرة " ٠

الثانى : أن نفوسهم أصابها الغرور فاستكبرت فصدت عن الإذعان والتسليم " وهم مستكبرون " ٠

---

(١) النحل الآية ١٨ ٠
(٢) ابراهيم الاية ٣٤ ٠
(٣) الحج الآية ٧٣ ٠
(٤) النحل الآيات ١٩ ــ ٢١ ٠

قال تعالى : ( الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ) (١) .

والايمان بالآخرة فرع عن الايمان بالله خالقا ومعبودا واحدا والايمان بحكمته وعدله ، وهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة قد تأصل الشر في نفوسهم ، وأصبحت علة الجحود في طباعهم والحال أنهم لا يريدون التسليم بالبراهين القطعية ، والاستسلام لله ورسوله لاستكبارهم عن الاعتراف بذلك ( لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ) (٢) حقا ان الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك .

ويأخذ القرآن الكريم في عرض نماذج من النعم التى أنعم الله بها على الانسانية كل واحدة منها دليل كاف على وحدة الألوهية ، فمن السورة نفسها يقول الله تعالى :

( والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون ، وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ان الله عليم قدير . والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون . ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون ، فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ) (٣) .

---

( ١ ) النحل الآية ٢٢ .
( ٢ ) نفس السورة الآية ٢٣ .
( ٣ ) نفس السورة الآيات ٦٥ — ٧٤ .

هذه النعم كلها فانزال الماء من السماء لاحياء الأرض بالنبات آية عظيمة ونعمة جلاء للذين يسمعون ويعون ، كما أن فى الأنعام لعبرة للمعتبرين وآية للمتعظين كذلك فيها برهان للمترددين ، فهذا اللبن الخالص السائغ الذى يسوقه الله للانسان من بين فرث ودم كيف تم تكوينه ، وكيف تمت تصفيته حتى أصبح بهذا اللون وهذا الطعم وهذا الحجم سائغا للشاربين ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذه النخيل الباسقة ، وهذه الأعناب المتسلقة ، من الذى أوجدها وأوجد ثمرها وكون مواده وجعله سكرا ورزقا حسنا أليس الله وحده ؟ وهذه الحشرة الصغيرة كيف تم لها أن تتخذ بيوتا فى الجبال وجذوع الأشجار وفوق العرائش ثم تنطلق من هذه البيوت التى صنعتها بنفسها فتمتص رحيق الأزهار المختلفة ثم تصوغه عسلا تخرجه للناس شفاء لعللهم ، أليس بالهام من الله وأمر منه ونعمة عظيمة يسديها المنعم لهذا الانسان ؟ ومن الأنعام والأشجار والثمار والنحل والعسل الى الانسان نفسه ، فبعد أن ذكر الله النعم مانا بها على هذا الانسان وجه الخطاب الى النفس الانسانية مذكرا لها بما هو فى صميم ذاتها فذكر الحياة والوفاة لأنهما متصلين بكل نفس " والله خلقكم ثم يتوفاكم " والخوف من المصير المحتوم قد يرد النفس الى التفكير فى النهاية ، وخاصة فيما يتعلق بالكبر والعجز وهو زمن الشيخوخة بحيث لا يدرى الانسان ماذا علم وماذا عمل . " ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا " فيرجع الى زمن الطفولة فى تصرفاته ، والتنبيه الى هذا الحال يجعل الانسان يقف مشدوها متأملا مصير الحياة والأحياء ومصير من كان فى هذه الحياة فى الماضى البعيد والقريب ويتأمل حال من وصلوا الى سن لا يعلمون معها شيئا ولا يذكرون شيئا مما تعلموه فيعلم أن الله على كل شىء قدير . ثم نظرة تأمل فى التفاوت الملحوظ فيما تفضل به سبحانه وتعالى من الرزق على عباده ، فرب غبى ساذج جاهل وهبه الله قدرة على تنمية المال والحصول عليه ، ورب عالم عاقل مفكر تكون موهبته فى هذا المجال محدودة لأن مواهبه فى مجالات أخر ، وقد يكون بسط الرزق ابتلاء وامتحانا من الله ، ويكون التضييق فيه أيضا ابتلاء وامتحانا لحكمة يريدها الله تقصر عقول العباد عن تعقلها وتدبر أسبابها .

ثم ذكر الله تعالى الحالة الأخرى من أحوال الانسان ، وهى أن خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها ، لأن الجنس يأنس الى جنسه ويألفه ، وسبب ذلك يقع بين الرجل والمرأة ما هو سبب للنسل الذى هو المقصود من الزوجية وجعل من النسل بنين ، وحفدة ، وهم أولاد الأولاد . ولمس هذا الجانب فى النفس الانسانية يثير فيها كوامن العاطفة الشديدة للذرية ، ذلك لأن الانسان الفانى يحس بشيء من الراحة ببهجة الأولاد والحفدة الذين يخلدون ذكره من بعده ، ثم يضم الى ذلك المن بالطيبات من الرزق ، ثم يعقب على هذه المنن بسؤال استنكارى " أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون " فهذه النعم التى كلها من عطائه تعالى وغيرها كثير لا يحصى يلمسونها واقعة فى حياتهم ، أدلة على ألوهيته التى يجحدونها فيشركون به غيره ويخالفون أوامره ، ويؤمنون بالباطل ، وكل ما عدا الله باطل ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، وهذه الأصنام والمعبودات باطل [illegible] ، ولا حق لهم فى عبادتها ، فلم تنحرف الفطرة فى النفس الانسانية الى هذا الحد ؟ فتعبد من لا يملك لها رزقا ومن لا يستطيع لها نفعا فى أى حال من الأحوال وتترك ربها وبارئها ورازقها الذى نعمه ماثلة أمامها لا تملك انكارها ، وتجعل لله الأشباه والأمثال ، انه لعجب أيما عجب ! ؟ والله يعلم خفايا النفوس ومساربها ، ويعلم ما عليكم من العبادة ، والناس لا يعلمون ما فى عبادتها من سوء العاقبة .

من هذه الآيات الكريمة نجد أنها تهز النفس البشرية هزا ، تذكر الانسان بنعم الله عليه وتبرز له من الآيات المبثوثة والأدلة ما يجب عليه أن يؤمن بالله خالق هذه الآيات وموجد هذه النعم ، ذلك أن السياق القرآنى يأتى فى آخر كل آية بتعقيب أو تذييل لايقاظ النفس من غفلتها ، ورد الفطرة الى خالقها ، ففى الآية الأولى جاء التعقيب بقوله تعالى " ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون " وفى الآية الثانية " ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون " ، وفى الآية الثالثة " ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون " ففى ذلك تنبيه لحاسة السمع أن تعى ، وللعقل أن يتعقل ويفكر ، وفى الآية الرابعة يأتى التذييل بقوله تعالى : " ان الله عليم قدير " وفى الآية الخامسة " أفبنعمة الله يجحدون " وفى الآية السادسة

" أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون " وفى الآية السابعة " ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون " ويلاحظ أن لفظ الجلالة موجود فى تذييل الأربع الآيات الأخيرة مما يحرك الوجدان ويثير الشعور بالرهبة والهيبة للاسم الكريم .

ومن السورة نفسها أيضا نأتى على مجموعة أخرى من الآيات الكريمة التى تذكرنا بنعم الله علينا فى النفس وفى الآفاق ، وفى الأنعام ، قال تعالى :

( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار ، والأفئدة لعلكم تشكرون ، ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ) (١) .

فالآية الأولى ذكر سبحانه وتعالى حالة أخرى للانسان تدل على قدرة خالقه جل وعلا ونهاية رأفته بخلقه ، وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، تنتظم معها فى سلك أدلة التوحيد أى أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء ولفظ شيء نكرة فى سياق النفى فيعم كل الأشياء حتى العهد الذى أخذ عليهم فى عالم الذر (٢) .

"وجعل لكم السمع ، والأبصار ، والأفئدة " أى ركب فيكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم ثم تعملوا بموجبه ، من شكر المنعم والقيام بحقوقه .

---

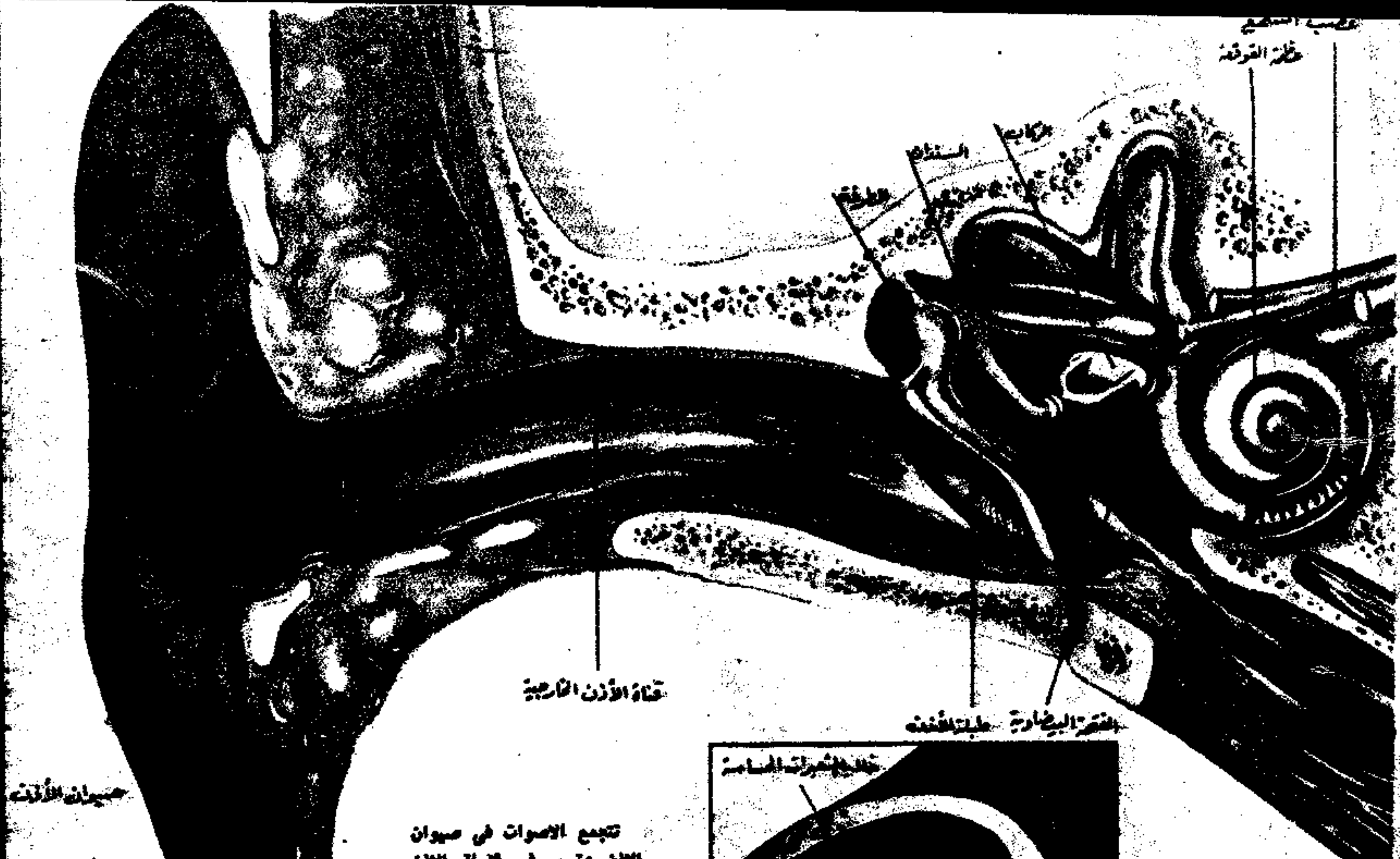
(١) النحل الآيات ٧٨ — ٨١ .
(٢) أنظر تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ١٨٢ بتصرف .

ومناسبة ذكر هذه النعم يجدر بنا أن ننقل ما كتبه الباحثون من وصف علمى تشريحى لحاسة السمع التى كرر القرآن ذكرها فى آيات كثيرة منها هذه الآية ، وقوله تعالى : ( فجعلناه سميعا بصيرا )(١) وقوله تعالى :( وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون )(٢) وقوله :( قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون )(٣) " هذا السمع ذو المغارات العجيبة ، القفرية بأبوابها وصماخاتها ، وكواها ، وغشاواتها ، وغضاريفها ، وعظيماتها ، وكهوفها ، ومتاهاتها ، ومسالكها ، وطرقاتها ، وأعصابها ، ورباطاتها ، وجوامدها ، ومائعاتها ، وسلالمها ، وقنواتها ، ولواليها ، وقوقعاتها ، وأكياسها ، وجراباتها ، وأحجارها ، وحصواتها ..؟ فنبدأ بالأذن وهى صيوان أى بوابة السمع تحيط بمدخل ضيق لها أقواس وحنايا وأطناف وطيات يتصل بها قناة فى أولها شعيرات تذهب صعدا ثم تنحدر بعد نصفها وتضيق وفى أرضها دهن لزج أصفر وتليها الطبلة وهى غشاء رقيق نصف شفاف مقعر ، وخلفه قاعة واسعة من العظم الرقيق مشدود على جدارها ذلك الغشاء الطبلى ، وفى الجدار المقابل له كوة بيضية الشكل مسدودة بغشاء ، وكوة مستديرة مسدودة بغشاء أيضا ، وفى جدار القاعة الخلفى ثقب كبير وثقوب صغار ، وبين هذه الجدران علقت سلسلة عظام عجيبة ، أحدها على صورة المطرقة ، والثانى على شكل " سندان " الحداد ، والثالث على شكل " ركاب " السرج وهى تتصل ببعضها ، فالمطرقى يتصل بالغشاء الطبلى ويشده الى داخل القاعة بحيث يكون محدبا من الداخل مقعرا من الخارج ، والركابى يتصل بغشاء الكوة البيضية المقابلة ، أما السندانى فهو متوسط بين الاثنين ، ويتصل بهما بمفاصل ، وخلف الكوتين قاعة كبيرة وهى أعظم من الأولى ، وفيها دهاليز وأقنية وسلالم كثيرة تسمى " التيه " تبدأ بدهليز متصل بغشاء الكوة البيضية ، هذا الدهليز بيضى الشكل ، على جدرانه حفر وثقوب وطاقات ثلاث ، وفى القاعة قنوات هلالية الشكل ، منها

---

(١) الانسان الآية ٢ .
(٢) المؤمنون الآية ٧٨ .
(٣) الملك الآية ٢٣ .

# السمع







عظمة القوقعة عبارة عن انبوبة واحدة التفت حول نفسها لتاخذ شكل القوقعة • تجويفها ينقسم ثلاثة اقسام في الاوسط غشاء حساس عليه شعيرات حساسة • تمر الموجات الصوتية من الفتحة البيضاوية الى السائل الموجود في القسمين الاعلى والاسفل من انبوبة القوقعة فتحرك الغشاء الحساس الذى تنبه حركته الشعيرات الحساسة لترسل اشارات عصبية الى المخ •

تتجمع الاصوات في صيوان الاذن وتسير في قناة الاذن الخارجية لتصل الى غشاء طبلة الاذن وهو غشاء يهتز بالموجات الصوتية فيحرك ثلاث عظمات : المطرقة فالسندان فالركاب ، وقد سميت كذلك تعبيرا عن الشكل الذى تاخذه كل منها • والعظمات مركبة على بعضها بوضع هندسي عبقرى يضمن توصيل الاصوات بالتدرجة المثلى • وترتكز الركاب داخل ثقب في عظمة القوقعة ( من شكلها ايضا ) يسمى الفتحة البيضاوية •

قناتان فى وضع عمودى ، وقناة فى وضع أفقى وشكل القاعة حلزونى يسمى " القوقعة " لأنه يشبه القوقعة ، وهى مؤلفة من محور مركزى كالعمود ، وقناة تدور حول العمود على هيأة لولب دورين وزيادة ، وهذه القناة تقسمها صفيحة رقيقة بعضها عظمى ، وبعضها غشائى ، ثم تنتهى القناة بقبة مسدودة هى رأس القوقعة ، أما الصفيحة اللولبية فنصفها العظمى يبدأ من الدهليز ويفرز سائلا صافيا يسمى " اللمفاء الظاهرة " ونصفها الغشائى عبارة عن زق غشائى مسدود ، يحتوى على سائل أيضا يسمى " اللمفا الباطنة " وهذا الزق مؤلف فى أوله من زقين يقال لأحدهما " الجراب " وللآخر " الكيس " والجراب يستطرق الى القنوات الهلالية وفيه حجران صغيران من كربونات الكلس المتبلور يقال لهما : " الحجران الاذنيان " وتنتشر فى القاعة الحبال والخيوط الدقيقة فى كل اتجاه ، وتدخل فى كل ثقب وتغوص فى كل سائل هذه الحبال والخيوط هى الأوردة والشرايين ، والدقيقة منها الغائصة فى السوائل هى أعصاب السمع التى تتصل بالدماغ وتنقل الصوت اليه "(١) .

هذا الجهاز المعقد العجيب الذى من الله به على هذا الانسان لم يخلق عبثا ، بل خلق بحكمة عظيمة بترتيبات محكمة ، فالصيوان يستقبل الصوت ويدفعه الى الصماخ السمعى ثم الى الغشاء الطبلى فيهتز الغشاء فتتحرك المطرقة فتقرع السندان فيتحرك الركاب فى داخل الأذن المتوسطة وبحركته يحدث اهتزاز فى غشاء الكوة البيضية فينتقل الصوت الى الأذن الداخلية فتنقله أعصاب السمع الى الدماغ ، كل هذه العملية تتم فى أقل من لحظة فسبحان الخلاق العظيم ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، هذه آية من آيات الله العظيمة فى هذا الانسان ، لكن الانسان لم يفكر ولم يتبصر كما أمره الله تعالى بقوله " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " ولم يتدبر آيات الله فى نفسه وفى الآفاق ليتبين له من خلال هذه الآيات أن الله حق وعبادته وحده حق

---

(١) أنظر قصة الايمان للشيخ نديم الجسر ص ٢٩٠ وما بعدها بتصرف .

وعبادة غيره باطل وظلم ، قال تعالى ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد )(١) .

ونكتفى فى هذا المكان بهذا المثال من مخلوقات الله الدالة على عظمة الصانع وقدرته ، وتقديره واتقانه وعنايته كبرهان جلى على أن الله تعالى وحده هو المعبود الفرد الصمد ، وأن على الانسان القيام بشكره وأداء ما افترضه عليه واجتناب ما نهاه عنه وليستشعر عظمة الله فى كل شيء وقدرته على كل شيء ، وليعلم أن الله محاسبه وسائله عن كل نعمة من بها عليه فى داخل نفسه وخارجها ومن أولها وأولاها السمع والبصر والفؤاد ، فالسمع والبصر وسيلتان لادراك المسموع والمنظور ، والفؤاد محل التمحيص والتدقيق محل التدبر والتفكير وصدق الله العظيم اذ يقول : ( ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا )(٢) وتبا للغافلين الذين يقول الله تعالى فيهم : ( لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون )(٣) .

ثم ينقلنا السياق من الآيات فى النفس الى مشهد فى الآفاق ، مشهد الطير مسخرات فى جو السماء ، انه لمشهد رهيب وعجيب ، رهيب أن يمتطى حيوان صهوة الفضاء ، وعجيب خلقه بشكل يتناسب مع الهواء بأجنحته وزغائفه وذيله الصاعد الهابط ان فى ذلك لآية لقوم يؤمنون ، أنها لآية عظيمة آية تخرس أولئك الذين يتحدثون باسم العلم فينسبون كل شيء الى الطبيعة — فيؤلهونها — يقولون : " ان الطيور على مر الزمن الطويل قد حورت شكلها الخارجى ، وتركيبها الداخلى حتى استطاعت أن تقهر الجو وتغزو الفضاء وتطير فى الهواء "(٤) أى سخافة هذه وأى هراء هذا القول ، فماذا كانت قبل أن تكون

---

(١) فصلت الآية ٥٣ .
(٢) الاسراء الآية ٣٦ .
(٣) الأعراف الآية ١٧٩ .
(٤) التاريخ الطبيعى للصف الثانى علمى ص ١٢٣ ط ١٩٧٥ بمدارس بالجمهورية العربية اليمنية .

طيورا ؟ هل كانت حيوانا آخر ؟ وهل فى استطاعة أى حيوان أن يحور نفسه ؟ أم أنها كانت طيورا ولم تستطع الطيران ؟ فاستهواها منظر الجو الجميل فقامت بتحوير نفسها وأنشأت لنفسها قطعا للغيار وقامت بتوظيب نفسها فى الداخل والخارج ؟ ؟ !

لنسمع الى قول الله تعالى الخالق الرازق " أ لم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ، ان فى ذلك لآية لقوم يؤمنون " ولقوله تعالى : ( أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير ) (١) انها لآية للمؤمنين ، ففى قوله تعالى " ما يمسكهن الا الله ، وقوله " ما يمسكهن الا الرحمن " رد قاطع ، على أولئك الذين يؤلهون الطبيعة فينسبون الى الطير نفسها تحوير شكلها الخارجى وتركيبها الداخلى وبذلك استطاعت قهر الجو وغزو الفضاء والطيران فى الهواء أفلا يعقلون أن الله وحده هو الذى خلقها بهذا التركيب وعلى هذا الشكل وجعلها قادرة على الطيران وهيأ لها الجو المناسب الذى تطير فيه فهو بذلك الذى يمسكها حتى لا تسقط وهى فى عنان السماء ، انها نواميس الله فى الكون وفى الطير وفى الهواء . فالمؤمنون هم الذين يدركون روعة هذا المشهد هذه الروعة الباهرة التى تهز المشاعر وتستجيش الضمائر فيسبحون الله ويعبدونه ويعظمونه ( ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ) (٢) .

ومن مشهد الطير محلقة فى جو السماء ينقلنا السياق القرآنى الى البيوت لنتدبر أسرار الخلق وآثار القدرة ، ومظاهر النعمة ، وما يسره الله لنا فيها وحولها من سكن ومتاع ، والى الجبال وما جعل الله فيها من الأكنان من الكهوف والغيران ، والى السرابيل تقى الحر والبرد والحرب كل ذلك من تمام النعمة على البشر لعلهم يسلمون فيستسلمون لله بسكون قلب وطمأنينة نفس.

---

(١) الملك الآية ١٩ .
(٢) غافر الآية ٦٤ .

"والسكن للانسان أمر هام فى حياته فيها تهدأ جوارحه من الحركة وتهدأ نفسه من الاضطراب ، اذ لو شاء الله لخلق الانسان مضطربا دائما كالأفلاك ، ولو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالجماد ، لكن العليم الخبير هيأ له هذا الجو النفسى المناسب من الهدوء والطمأنينة والسكينة النفسية ، اذ ليس البيت محلا للنزاع والخصام انما هو سكن وأمن وسلام ، وما دام كذلك ، فالقرآن الكريم قد ضمن لهذا البيت حرمته ، وضمن له أمنه واطمئنانه ، فلا يدخله أحد الا باذن صاحبه ، وليس لأحد أن يقتحمه باسم السلطان — بغير حق — وليس لأحد أن يتطلع على من فيه الا أهله وذووه ، ولا يتجسس أحد على أهله فى غفلة منهم أو غيبة فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذى يريده القرآن الكريم (١)".

قال تعالى : فى صيانة البيوت وحرمتها : ( يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٢) ) وفى مجال الخدم والأطفال المميزين داخل البيوت أوجب القرآن الكريم عليهم الاستئذان فى ثلاثة أوقات، قبل صلاة الفجر ، ووقت الظهيرة ، وبعد صلاة العشاء ، ويخصص هذه الأوقات دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات لذا سماها القرآن عورات ، كل ذلك من أجل راحة الانسان وطمأنينته فى بيته ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم (٣) ) .

ومن السكن يأتى السياق الى ما يناسب السكن فيعرض من الأنعام الجانب الذى يتخذ منه والخيام والأثاث والمتاع من فرش وأغطية لأنه يوحى بالمتعة والراحة ، وما دام السياق فيما فيه راحة للنفس وطمأنينتها ذكر القرآن الظلال

---

(١) فى ظلال القرآن م ٥ جـ ١٤ ص ٢٦٩ بتصرف .
(٢) سورة النور الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) نفس السورة الآية ٥٨ .

ولا يخفى ما فى الظلال من استرواح وسكن ، ثم ذكر الجبال وما فيها من الأكنان التى تكن الانسان من الخوف والمطر فى السلم والحرب ولا يخفى أهمية هذه الأكنان فى الكهوف والمغارات خاصة فى الحروب الحديثة ، ثم تختتم الآيات بذكر السرابيل التى تقى الحر والبرد من الثياب الخفيفة والضفيفة والدروع التى تقى الانسان فى معارك القتال ومواطن النزال . " كذلك يتم نعمته عليكم " أى مثل ذلك الاتمام البالغ من النعم يتم نعمته عليكم فانه سبحانه وتعالى قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة ها هنا وغيرها ، وهو بفضله واحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا " لعلكم تسلمون " ارادة أن تسلموا ، وعلى هذا فمن أنعم النظر فى هذه النعم ، وفكر بقلب مفتوح طالب الهداية لا يسعه الا أن يخر ساجدا لله مسلما أمره لربه منقادا اليه .

والقرآن الكريم عنى بقضية الايمان بالله لأنها الأصل الذى تتفرع منه بقية العقائد فمتى حصل الايمان بالله ربا وخالقا ومعبودا واحدا لا شريك له ، متى صدق التصور وحصل التصديق انطلق الانسان فى التطبيق لم يبال بأى تعويق ، لذلك نجد القرآن الكريم حين تعرض آياته يكثر من الآيات الدالة على الله لا تكاد تخلو منها سورة من سوره ، بل نجدها تتكرر فى السورة الواحدة عدة مرات لاقامة البراهين القاطعة على وجود الله وعلى أنه الخالق البارئ المصور العليم القدير الحكيم ، أشار فيها الى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والأحكام والاتقان ، هذه البراهين المشاهدة للعيان من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والكواكب ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال والأنهار والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والانسان ، والأسماع ، والأبصار والأفئدة ، وما يكمن وراء ذلك من قوانين ونظام تكررت فى القرآن عشرات المرات لاثبات الوجود الحق وتثبيت هذه العقيدة فى النفوس البشرية ودعوتها الى وحدة الألوهية اذ التوحيد قاعدة العقيدة منذ بعث الله الرسل لا تبديل فيها ولا تحويل ، فالاله الحق هو المعبود وحده لا شريك له هذه القاعدة ثابتة فى الرسالات السماوية راسخة فى دعوة الرسل جميعا ثبوت

النظام الكونى نفسه لذلك يعرض القرآن لدعوى المشركين أن لله ولدا – تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا – يعرض القرآن لهذا القول السخيف فينزه الرب سبحانه وتعالى عما يقوله المفترون ، ويبين وظيفة الملائكة وهم صنف من خلق الله سبحانه وتعالى ويتوعد المفترين بالجزاء الصارم ، قال تعالى: ( وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين )(١) .

وفى سورة الأنبياء نجد أن السياق القرآنى يحلق بنا فى مجال الكون الضخم لنرى يد القدرة الالهية تدبره وتحكمه ، والناس معرضون عن آيات ربهم المعروضة على الأنظار ، وقلوبهم غافلة عن تدبر هذا الكتاب المفتوح لاهية فى متاهات الملذات ومطامع الشهوات ، ولو تأملوا ببصائر مفتوحة ، وقلوب واعية لأبصروا عجائب الخلق وعجائب القدرة الالهية فى كل شيء .

وفى كل شيء له آية ∴ تدل على أنه الواحد

قال تعالى : ( أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون )(٢) .

جاء فى تفسير قوله تعالى "كانتا رتقا ففتقناهما" ليس فيهما ثقب بل كانتا ملتصقتين ، ففصل الله بينهما بالهواء يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وروى عنه كانتا ملتصقتين فرفع السماء ووضع الأرض ، وعنه أيضا قال كانتا

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ – ٢٩ .
(٢) نفس السورة الآيات ٣٠ – ٣٣ .

ملتزقتين ، ففتقهما الله ، وعن الحسن وقتاده قالا كانتا جميعا ففصل الله بينهما بهذا الهواء .

وقال آخرون : "بل معنى ذلك أن السموات كانت مرتتقة طبقة ففتقها الله فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة ، ففتقها الله فجعلها سبعا " .

وقال آخرون بل عنى بذلك أن السموات كانت رتقا لا تمطر ، والأرض كانت رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وهذا الأخير رجحه الامام ابن جرير الطبرى رحمه الله (١) .

أقول : وهذه المسألة جديرة بالتأمل ذلك أن النظريات الفلكية تحاول تفسير الظواهر الكونية وتحوم حول هذه الحقيقة التى أوردها القرآن منذ أربعمائة وألف سنة .

أنشئت المعاهد واخترعت المراصد لدراسة ورصد الأفلاك الصغيرة منها والكبيرة وأقيمت المعامل لتحليل الصخور والعناصر الموجودة فى الأرض والقمر والنيازك التى تسقط على الأرض بين حين وآخر فكانت النتيجة أن نوع الصخور التى أخذت من القمر هى من نوع الصخور التى على الأرض بعناصرها وكيميائيتها بنسب متفاوتة .

يقول الدكتور فاروق الباز (٢) :

نحن نعلم الآن من دراستنا لصخور القمر وما نعرفه عن الأرض وكذلك دراستنا لعينات النيازك والشهب أن المجموعة الشمسية كانت كلها واحدة فى يوم من الأيام ونعلم أن هذا الجسم انفجر والانفجار ليس كانفجار قنبلة مثلا وانما بدأت تبعد العناصر والمكونات لهذا الجسم من المركز فى جميع الاتجاهات ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى ج ١٧ ص ١٩ .
(٢) هو مدير معهد الأبحاث العلمية لدراسة الأرض والكواكب فى واشنطن .

ونعلم أيضا أن العناصر الثقيلة لم تبتعد عن هذا المركز كثيرا والعناصر الخفيفة ابتعدت عن هذا المركز وتلك لثقلها ، وهذه لخفتها ، والعناصر الثقيلة كلها كونت الكواكب الموجودة بجوار الشمس ومنها الأرض والمريخ والقمر وكل المواد والتركيبات العنصرية فى هذه الكواكب مماثلة تماما فى نوعيتها فلم نجد مثلا على صخور القمر عناصر جديدة على الاطلاق ، وانما تتكون صخور القمر من نفس العناصر التى تكون صخور الأرض ولكن بنسب مختلفة (١) .

قلت : لكن هذه النظرية أو النظريات الأخرى التى تسمى علمية لا نجرى وراءها ولا نحاول أن نحمل النص القرآنى عليها ولا نحاول أيضا أن نوفق بينها وبين النصوص القرآنية ، ذلك أن النصوص القرآنية قاطعة متيقنة ، والنظريات لا تزال نظريات سواء فى علم الفلك أو غيرها فقد تنقض وتقوم مقامها نظرية أخرى مغايرة لها ، وهكذا .

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله : " ان القرآن ليس كتاب نظريات علمية ، ولم يجىء ليكون علما تجريبيا كذلك ، انما هو منهج للحياة كلها ، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق فى حدوده ، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق ، دون أن يدخل فى جزئيات وتفصيليات علمية بحته ، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه واطلاق سراحه ، وقد يشير القرآن أحيانا الى حقائق كونية كهذه الحقيقة التى يقررها هنا " أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها فى القرآن ، وان كنا لا نعرف كيف كان فتق السموات والأرض أو فتق السموات عن الأرض ، ونتقبل النظريات الفلكية التى لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التى قررها القرآن ، ومع هذا لا نطلب تصديقا للقرآن فى نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة ، وقصارى ما يقال : ان النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الاجمالى لهذا النص القرآنى السابق عليها بأجيال (٢) " .

---

(١) فى مقابلة للدكتور المذكور أجراها معه الأستاذ عبدالمجيد الزندانى فى مؤتمر التضامن الاسلامى الأول للعلم والتكنولوجيا المنعقد بالرياض سنة ٩٧ هـ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٧ م ٥ ص ٥٣٠ .

ويستمر السياق القرآني في عرض مشاهد متعددة في هذه الآيات ، فمن عرضه لمشهد السموات والأرض ملتصقتين شيئا واحدا ثم فصلهما عن بعضهما الى مشهد الماء الذى ينزله الله من السماء ويجعل منه كل شيء حى ويستنكر عدم ايمان البشر رغم ما يشاهدون من عجائب المخلوقات التى أوجدها خالق الأرض والسموات والتى تدعو كلها الى الايمان بالخالق الحكيم ، الى عرض مشهد الجبال الرواسى التى يقرر أنها تحفظ توازن الأرض حتى لا تميد وتضطرب ، ولسنا فى حاجة للبحث عن كيفية الطريقة التى يتم بها هذا التوازن اذ ليس ذلك متعلقا ببحثنا لكنا نكتفى بالملحظ الوجدانى من هذا النص الذى يوحى بالتأمل والتفكير ويؤدى بالتالى الى الايمان بالمبدع القدير لهذا الكون الكبير.

الى عرض مشهد الفجاج والسبل فى الجبال يسلكونها ويهتدون اليها ولعل فى النص ما يشير الى شأن آخر فى مجال الدعوة الى العقيدة الصحيحة فلعلهم يهتدون الى الايمان كما يهتدون فى السبل فى فجاج الجبال .

الى مشهد السماء ذلك السقف المحفوظ والذى يخيل الينا كالقبة الزرقاء فهو محفوظ من الخلل بالنظام الكونى الذى خلقه الله عليه ، ومحفوظ من الدنس واستراق السمع ، كيف لا ومنه تتنزل آيات الله ، قال تعالى : " وهم عن آياتها معرضون " .

الى مشهد الليل والنهار يتكرران ويتكوران يكور أحدهما على الآخر ( يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ) (١) . الى مشهد الشمس والقمر اللذان لهما علاقة عظيمة بالانسان وبالحياة والأحياء على هذه الأرض " كل فى فلك يسبحون " .

---

(١) الزمر الآية ٥ .

فأنت ترى الأدلة القرآنية سهلة واضحة تخاطب العقل والقلب وتثير التفكير والوجدان تراها قوية ناصعة لا تترك سبيلا الى جدل أو مراء ولا تترك فى النفس شكا أو ترددا ، تقرر الحقيقة ، أولا بنحو قوله تعالى : ( قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد )(١) ثم تقيم الدليل عليها بنحو قوله تعالى : ( ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض )(٢) وقوله تعالى : ( أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون )(٣) .

هذه هى الأدلة التى يعرضها القرآن على وحدة الألوهية ويدعو الناس اليها ، يعرضها من خلال الأرض والسماء وما فيهما وما بينهما ، ويلفت النفس البشرية الى الأدلة الكونية التى تشاهدها وتلمسها وتحس بوجودها ولا تستطيع انكارها ، كذلك يوجه القرآن الأدلة من النفس الانسانية ذاتها الى النفس الانسانية ، اذ للنفس منها على الألوهية دليل ، ( وفى أنفسكم أفلا تبصرون ) ، وقوله تعالى : ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ) ، ذلك أن الكائن البشرى نفسه آية كبرى ، فى جسده وروحه ، فى تركيبه من قبضة الطين ونفخة الروح ، فى تكوينه من نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ثم عظام ثم تكسى العظام لحما ثم انشاؤه خلقا آخر ، فكل فرد من بنى الانسان عالم مفرد لا يتكرر فى ملامحه وتفكيره وادراكه وحتى فى بصمات أصابعه ويحسن أن نذكر طرفا يسيرا عن الغدد الصماء فى الانسان تلك المعامل الكيماوية انها تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتى تبلغ من قوتها أن جزءا من بليون جزء منها يحدث آثارا خطيرة ان توقف عن الافراز ، وهى مرتبة بحيث ان افراز كل غدة يكمل افراز الغدة الأخرى ، ( فسبحان الخلاق العليم )(٤) .

---

(١) الاخلاص
(٢) المؤمنون الآية ٩١ ، ١٠٤ .
(٣) الأنبياء الآيتان ٢١ — ٢٢ .
(٤) منهج القرآن فى التربية لمحمد شديد ص ٩٧ .

وفى بيان مبدأ خلق الانسان وتقلبه فى أطوار الخلقة ، وأدوار الفطرة تأتى الآيات من سورة " المؤمنون " فتبين ذلك بيانا اجماليا ، يقول تعالى : ( ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ) (١) .

هذه الآيات الكريمة تبين أطوار خلق الانسان ومراحل تكوينه بدأها بالقسم ، أى والله لقد خلقنا الانسان والمراد به جنس الانسان فى ضمن آدم خلقا اجماليا ، والسلالة ماسل من الشيء واستخرج منه " من طين " أى من سلالة كائنة من طين ، ثم جعلناه أى الجنس باعتبار افراده المغايرة لآدم عليه السلام ، أو جعلنا نسله على حذف المضاف ان اريد بالانسان آدم عليه السلام " نطفة " بأن خلقناه منها ، أو ثم جعلنا السلالة نطفة فى قرار ، أى مستقر ، وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة ، وقوله تعالى : " مكين " وصف لها بصفة ما استقر فيها . " ثم خلقنا النطفة علقة " أى دما جامدا باحالة النطفة البيضاء الى علقة حمراء . " فخلقنا العلقة مضغة " أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها . " فخلقنا المضغة " أى غالبها أو معظمها أو كلها " عظاما " بأن صلبناها ، وجعلناها عمودا للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة الالهية " فكسونا العظام لحما " من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا . أى كسونا كل عظم من تلك العظام على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له . واختلاف المواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات ، وجمع العظام لاختلافها ، " ثم أنشأناه خلقا آخر " هى صورة البدن والروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع ، " فتبارك الله " تعالى شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة ، والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة ، وادخال الروعة ، والاشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة ، من أحكام

---

(١) المؤمنون الآيات ١٢ — ١٤ .

الألوهية ، وللايذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع الى التكلم به اجلالا وا عظاما لشأنه ، "أحسن الخالقين" (١) الذى أودع فطرة الانسان تلك القدرة على السير فى هذه الأطوار وفق السنة التى لا تتبدل ولا تتحرف ولا تتخلف حتى تبلغ بالانسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الانسانى على أدق ما يكون النظام .

" فما بال الناس مغمضى العيون مغلقى القلوب عن هذه الخوارق العجيبة ؟ أأنساهم طول الألفة حتى لم يعودوا يفكرون؟ ، أم استحوذ عليهم الشيطان فألهاهم عن التدبر والتأمل فى أنفسهم؟ ، ان مجرد التفكير فى هذا المخلوق ــ الانسان ــ ومراحل تكوينه اذ كله مجموع فى نقطة صغيرة ، بخصائصه وسماته ، وانها تنمو وتتفتح وتتحرك فى مراحل التطور الجينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر ، فاذا هى ناطقة بارزة فى الطفل مرة أخرى ، واذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة ، فوق الوراثات البشرية العامة .

ان مجرد التفكير فى هذه الحقيقة التى تتكرر على مدى الأزمان والعصور لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب" (٢) .

هذا الانسان المحفوف بعناية الله ، المحفوظ برعاية الله ، المتقلب فى أعطاف النعم ، المخلوق من سلالة الطين ، ما باله أخلد الى الأرض واتبع هواه فلم يعد يفكر فى أطوار خلقته ، بل فى أصل مبدئه ولم يعد يتأمل مصيره ونهايته انه بعد أن أصبح كاملا فى خلقته ، سويا فى صورته ، معتدلا فى تركيبه ، ما تلبث أن تنتهى فترة حياته على هذه الأرض ، هذه الفترة

---

(١) تفسير "أبو السعود" جـ ٤ ص ٥٣ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٨ م ٦ ص ١٨ بتصرف .

القصيرة المحدودة ثم يموت ، ما باله لم يفكر فى هذه اللحظة الحرجة التى يعود فيها الى ربه وخالقه ، حين يندم على تفريطه حيث لا ينفعه الندم ، ما باله لم يفكر فى البعث وأهواله ، والحشر وأحواله حين يقول ( ياليتني قدمت لحياتى )(١) وحينما تندم النفس على التفريط فتقول : " ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين "(٢) أو تقول حين رؤيتها للعذاب وأهواله " لو أن لى كرة فأكون من المحسنين "(٢) وفى تلك الساعة لا يجدى الندم ولا ينفع التمنى ، بل يقال له ( بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين )(٢) .

وفى السياق القرآنى من سورة " المؤمنون " بعد ذكر مراحل خلق الانسان وتكوينه حتى أصبح خلقا آخر بشرا سويا يذكره الله بالموت وما بعد الموت وكأن هذه مرحلة متصلة بالمراحل الأولى ، فمرحلة الآخرة تبدأ بالموت ، فالموت اذن هو بداية لحياة الخلود وليس نهاية الانسان كما توهمه الماديون ، بل هو نهاية الحياة الأرضية وبداية لحياة أبدية . يقول تعالى ذكره ( ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون )(٣) .

وننتقل الى مشهد من مشاهد الايمان والهدى والنور فى آية واحدة من سورة النور ، هذا المشهد يتمثل فيه الوجود كله بمن فيه ، وما فيه الانس والجن والاملاك والأفلاك الأحياء والجماد ، الكل يتجاوب بالتسبيح لله الذى خلقه والله يعلم ذلك كله . يالله ما أروع هذا المشهد حين يتأمله الانسان انه يوحى فى النفس الانسانية عجبا ورغبا ورهبا . قال تعالى : ( ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون )(٤) فى هذا المشهد القرآنى توجيه ربانى للانسان

---

(١) الفجر الآية ٢٤ .
(٢) الزمر الآيات ٥٦ ــ ٦٠ .
(٣) المؤمنون الآيتان ١٥ ، ١٦ .
(٤) النور الآية ٤١ .

الى النظر فيما حوله من صنع الله والى من حوله من خلق الله فى السموات والأرض، وهم يسبحون الله يسبحون بحمده خاشعين يعترفون بألوهيته خاضعين • ويوجه بصر الانسان وقلبه الى مشهد يراه كل يوم ولا يتحرك له قلبه ولا يستثير انتباهه لطول ما يراه ذلك هو مشهد الطير صافات ، وهى فى الفضاء سابحات ، تسبح بحمد الله ، وتعظمه ، "كل قد علم صلاته وتسبيحه" وهذا الانسان الذى كرمه الله وفضله على سائر مخلوقاته ، وأنعم عليه بشتى النعم هو أولى بتسبيح الله وتحميده ، والصلاة له وتمجيده ، والايمان به والاستسلام له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه •

ثم يعقب على هذا المشهد بقوله تعالى : ( ولله ملك السموات والأرض والى الله المصير )(١) • فلا اتجاه الا اليه ، ولا ملجأ منه الا اليه ، ولا مفر من لقائه، ولا عاصم من عقابه •

ثم يلفت الأنظار الى مشهد آخر من مشاهد الكون الدالة على عظمة خالقها بما فيه من متعة للنظر وعبرة لأولى البصر ، ومجال للتأمل فى صنع الله وعظة فى آيات الله ، قال تعالى :

( ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار )(٢) هذا المشهد العجيب الذى يلفت القرآن الكريم النفوس الغافلة اليه يربطه بمشهد آخر هو مشهد الليل والنهار تكرورهما وتكورهما وتقلبهما ( يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار )(٣) ان القرآن الكريم يوقظ القلوب ويوجهها الى هذا الكون الفسيح ، يجدد فيها معانى جديدة — بعد أن كادت الألفة أن تطمسها من النفوس — ويوجد فيها انفعالا جديدا بعد ازاحة ما علق بها من صدأ الغفلة ، وما ران عليها من حجب المعصية ، فالله تعالى يسوق السحاب برفق وسهولة ، ثم يضم

---

( ١ ) النور الآية ٤٢ •
( ٢ ) نفس السورة الآية ٤٣ •
( ٣ ) نفس السورة الآية ٤٤ •

أجزاءه بعضها الى بعض، ثم يركم بعضه فوق بعض ، فيظهر للناظر كالجبال الشاهقة تصادم بعضها ، ينتج عن ذلك التراكم والتصادم والاحتكاك هطول المطر من خلاله ، وينزل من الغمام المرتفعة فى الأجواء العليا حيث الشبرودة القوية من برد كقطع الجبال ، والمراد بالسماء هنا هو الغمام كما يهدولى فكل ما علاك سما فى اللغة كما حققه العلماء ، يقول أبو السعود فى تفسيره :

" والمشهور أن الأبخرة اذا تصاعدت ولم تتخللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهوى وقوى البرد اجتمع هناك وصار سحابا ، وان لم يشتد البرد تقاطر مطرا ، وان اشتد فان وصل الى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجا ، والا نزل بردا ، وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينقبض وينعقد سحابا وينزل منه المطر أو الثلج ، وكل ذلك مستند الى ارادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح "(١).

وفى قوله تعالى : "فيصيب به" أى البرد "من يشاء" ان يصيبه من عباده فيناله الضرر فى النفس أو المال أو فيهما " ويصرفه عمن يشاء " فينجو من غائلته ، وفيه من التهويل مالا يخفى . وذلك فى قوله : "يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار" أى أن ضوء البرق الساطع المنبعث من السحاب المتراكم يكاد يخطف الأبصار من فرط الاضاءة ، وسرعة ورودها ، وفيه بيان لشدة تأثيره فى الابصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة الالهية ، وفى تقلب الليل والنهار عدة معان : منها : المعاقبة بينهما ، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغير أحوالهما بالحر والبرد ونحو ذلك ، ان فى ذلك اشارة الى ما سبق لعبرة أى لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته واحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته ، وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلى الكبير(٢) ، ولا تكون هذه الدلالة الا لأولى الأبصار ، فهم أهل العقول النيرة التى استنارت بنور الايمان فأبصرت حقائق الكون شاهدة على فاطرها ، فهم وحدهم الذين يستفيدون من العبرة ، ويتعظون بالمشاهدة ،

---

(١) تفسير "أبو السعود "ج ٤ ص ١٣٢ ط السعادة .
(٢) المصدر السابق .

وينتفعون بالتوجيه الرباني •

ويمضي السياق القرآني في عرض مشهد آخر من مشاهد الكون يستثير تطلعنا اليه فيعرض نشأة الحياة من أصل واحد وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة •

قال تعالى : ( والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير )(١) •

ثم يعقب بعد ذلك بذكر انزال الآيات البينات لكل ما يليق بيانه من الأدلة الكونية والأحكام الدينية ، ثم نسب حق الهداية له وحده ، فمن شاء هداه فوفقه للنظر الصحيح ، والتأمل السليم ، وهداه الى صراطه المستقيم فأدرك حقيقة الحق وفاز بالجنة والنعيم المقيم ، قال تعالى :
( لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم )(٢)
اللهم اهدنا فيمن هديت الى صراطك المستقيم •

والقرآن الكريم بأسلوبه الخاص في تقرير الوحدانية ينوع الأدلة تارة في الكون ، وحينا في الآفاق ومرة في الأنفس ، ويتخذ مع الانسان طرقا شتى في سبيل اقناعه ، واقراره بوحدانية الله تعالى ، ربا ومالكا ومعبودا لا شريك له ولاند ولا مثيل •

والآيات التي اخترناها من سورة النمل تطرح على الانسان عددا من التساؤلات لا يملك معها الانسان الا أن يجيب اجابة واحدة لا محيص له منها •

---

(١) النور الآية ٤٥ ، ٤٦ •
(٢) نفس السورة الآية ٤٦

وبعد كل سؤال يأتى أسلوب التهكيت ، والتقريع للمكذبين والشاكين بقوله تعالى " أ اله مع الله "؟ فأول الآيات توجيه الى سيدى رسول الله حبيبه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبدأ بحمده تعالى والسلام على المصطفين من عباده ، ثم تتوالى الأسئلة بعد ذلك ، قال تعالى : ( قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون؟، أ من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ، أ من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ، أ من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون ، أ من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ، أ من يبدؤا الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أ إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ) (١) .

ألا ترى أيها الانسان فى هذا الاستدلال على الوحدانية ما يوجه الأبصار والعقول الى أسرار الكون ، وما فيه من دلائل عليها .

هذا الأسلوب التوجيهى الرائع يهذب العقول ويدعوها الى النظر والتفكير لتؤمن عن اقتناع ، ذلك أن القرآن الكريم يخاطب العقول ويزيح الأوهام ، ويزيل الخرافات ، ويطهر النفوس من الدغل كيف لا وهو يدعو الى النظر فى المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الله تعالى ، وأنه واحد أحد لا يشبهه شيء من خلقه ، قال تعالى : ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ) (٢) ، ( قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ) (٣) ونعود الى الآيات الآنفة الذكر نتأمل ما تحمله من معان عظيمة تجدها استفتحت بحمد الله والسلام على عباده

---

(١) النمل الآيات ٥٩ ـ ٦٤ .
(٢) يونس الآية ١٠١ .
(٣) العنكبوت الآية ٢٠ .

المصطفين تلتها الأسئلة المتلاحقة تكر على أولئك المشركين فتقتحم القلوب وتوقع الرهبة فى النفوس بما تعرضه من المشاهد المتعددة ، المتنوعة التى يقفون أمامها وجها لوجه لا يستطيعون انكار شيء منها ، أو ادعاء أن أحدا مع الله يستطيع خلق شيء منها .

تبتدىء الأسئلة بتقرير الخلق لله وحده " وتنتهى بسؤال تقريرى عن بدء الخلق واعادته ، ومن تكفل بالرزق لهذه المخلوقات فى السماء والأرض؟ ، وبعد كل سؤال يقرعهم الحق جل وعلا ويوبخهم بقوله : أاله مع الله ؟ ومع هذا فهم يعبدون أربابا من دون الله .

وفى هذه الآيات المفتتحة بالحمد لله والمنتهية بالحمد لله كذلك فى آخر السورة منهج تربوى للمؤمن كيف يبدأ حديثه ويختمه فى دعوته وجداله ، وفى جميع أحواله فالحمد لمستحق الحمد وحده جل وعلا من عباده على نعمه التى لا تحصى ، وآلائه التى لاتستقصى ومن أهمها بل أفضلها على الاطلاق نعمة الهداية اليه والتوفيق للعمل بما يرضيه .

"وفى قوله تعالى " آلله خير أما يشركون " فيه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، وتبكيت بحت اذ أنه لايمكن أن يكون أحد من خلقه شبيها به فضلا عن أن يكون خيرا منه ولا يخطر على القلب مقارنة أو موازنة .

قال أبو السعود : " أى الله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم مايشركون به تعالى من الأصنام ؟ ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم ، اذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لاخير الا خيره ولا اله غيره " . (١)

---

(١) تفسير أبو السعود" جـ ٤ ص ٢٧١ .

وبعد تعدد النعم والامتنان عليهم بخلقها وتمكينهم منها من خلق السموات والأرض ، وانزال الماء من السماء ، وانبات الحدائق البهجة ، وتمتعهم بمناظرها وثمرها يأتي التبكيت والتقريع " أإله مع الله " أي أإله آخر كائن مع الله ، فهو تبكيت لهم ينفي الالوهية عن معبوداتهم سوى الله على الطريقة البرهانية ، لأنه لما نفى عنهم الخيرية بقوله : " آلله خير أما يشركون " ثم أعقبه بذكر أوصاف الخالق ببعض أفعاله وهي كلها خير ، فان من كانت عنده مسكة من عقل لا يستطيع انكار الألوهية عنه سبحانه وتعالى بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه ، وهكذا في بقية السياق ، ولنتأمل التذييلات في قوله تعالى " بل هم قوم يعدلون " أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد ، والعكوف على الباطل البين الذي هو الاشراك ، وفي قوله في آخر الآية الثانية " بل أكثرهم لا يعلمون " فيه نفي العلم عنهم مطلقا فهم لا يعلمون شيئا ، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره ، وفي قوله تعالى في آخر الآية الثالثة : " قليلا ما تذكرون " أي تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون . وما مزيدة لتوكيد معنى القلة التي أريد بها معنى العدم أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى بمعنى أنه حتى لو تذكرتم ونادرا ما تذكرون لم ينفعكم ذلك . وفي قوله تعالى في آخر الآية الرابعة : " تعالى الله عما يشركون " تقرير وتحقيق له واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم ، أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال .

وأخيرا يتحداهم في التذييل الأخير في الآية الخامسة بأن يأتوا بالبرهان على ادعائهم بألوهية غير الله ، وفي هذا من التبكيت غايته ، حيث طالبهم بالبرهان العقلي أو النقلي بما يدل على ذلك .

وفى اضافة البرهان اليهم تهكم بهم لما فيها من ايهام أن لهم برهانا ، وأنى لهم ذلك ؟

وبعد أن حقق تعالى تفرده بالألوهية بين اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما مضى وتمهيدا لما سيأتى بعد من أمر البعث (١) . قال تعالى : ( قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون ) (٢) .. أى متى ينشرون من القبور يكون مما لابد لهم منه ، والله سبحانه وتعالى يرد أمر الخلق كله اليه وحده ، فهو الذى يخلق كل شيء ويعلم كل شيء واليه مرد الأمر كله فى الأولى والآخرة ، وله الحكم والمرجع والمآب فى الأولى والآخرة ، ولا يملك أحد أن يختار على الله دون ارادته واختياره سبحانه وتعالى فهو وحده الذى يخلق ما يشأ ويختار لنسمع الآيات التالية من سورة القصص : قال تعالى : " وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ) (٣) . ( وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ) (٤) انها الحقيقة الناصعة التى ينساها كثير من الناس ، فالله يخلق ما يشاء لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا يخلقه أو يقدره ولا أن يزيد فى خلقه شيئا ليكمله ولا أن ينقص من خلقه شيئا فيحسنه أو يشوهه ما كان لهم الخيرة لا فى أنفسهم ولا فى غيرهم ، وهنا تتجلى عظمة القرآن فى التربية " ما كان لهم الخيرة " فهو يرد أمر الانسان الى ربه وبارئه وبذلك تهذب النفوس ويقوم السلوك ومعنى ذلك أن يتقبل الانسان كل ما جاء عن الله مع بذل الوسع فى التفكير والتدبر والاختيار وبالتالى بالرضى الناجم عن قناعة تامة لأن القرآن راعى العقل واحترمه ففى كثير من آياته يشيد بالعقل والعقلاء ، مثل قوله تعالى ( ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ) (٥) وقوله : ( ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ) (٦) وقوله : ( كذلك

---

(١) تفسير " أبو السعود " ج ٤ ص ٢٧٥ بتصرف .
(٢) النمل الآية ٦٥ .
(٣) القصص الآية ٦٨ .
(٤) نفس السورة الآيتان ٦٩ — ٧٠ .
(٥) الرعد الآية ٤ .
(٦) العنكبوت الآية ٣٥ .

نفصل الآيات لقوم يعقلون (١) ) وقوله : ( انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (٢) ) فلم يأت القرآن قط بالغاء العقل وارادته ونشاطه بل حث على التعقل والتدبير والتفكير فى كثير من آياته ، مثل قوله تعالى : ( أفلا يعقلون (٣) ) ، ( أفلا تعقلون (٤) ) ( لعلهم يفقهون (٥) ) ، ( لقوم يفقهون (٦) ) فاذا وقع التعقل والتفكير حصل الاختيار بمحض الرضى والتسليم والقبول ولا يكلف الله نفسا الا وسعها . والأمر بعد ذلك وقبل ذلك الى الله سبحانه وتعالى لأنه يعلم الاسرار ما خفى منها وما ظهر ويعلم حقيقة النفوس البشرية وما يصلح لها ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (٧) ) فلا يختار لهم الا ما أهلوا له من هدى أو ضلال ، فلا شريك له فى خلق ولا اختيار . وسعهم برحمته وعدله ، ووفق من شاء لهدايته ، وزاد من وفقه للهداية هدى ، وشرح صدره بالتقوى ( والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (٨) ) . والذين أعرضوا عن ذكر الله وصدوا عن الحق واتبعوا أهواءهم أضلهم الله وأعمى أبصارهم ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (٩) ) ، ( ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا (١٠) ) ، ( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله (١١) ) .

ومن سورة الروم تطرق الآيات التالية مشاهد الكون والحياة وعجائب الخلق وأسرار النفس والخوارق والمعجزات مبتدئة بتنزيه الله والثناء عليه فى كل أوقات الزمن ( فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ) ثم تتجه الآيات بعد ذلك الى القلب البشرى فتطوف به فى آفاق الحياة والموت والبعث والنشور والى تدبر النشأة

---

( ١ ) الروم الآية ٢٨ .
( ٢ ) الزخرف الآية ٣ .
( ٣ ) يس الآية ٦٨ .
( ٤ ) آل عمران الآية ٦٥ وغيرها .
( ٥ ) الأنعام الآية ٦٥ .
( ٦ ) نفس السورة الآية ٩٨ .
( ٧ ) الملك الآية ١٤ .
( ٨ ) محمد الآية ١٧ .
( ٩ ) الصف الآية ٥ .
(١٠) طه الآية ١٢٤ .
(١١) القصص الآية ٥٠ .

الأولى وما ركب فى فطرة الانسان من ميول ونوازع وقوى وطاقات والى ما يقوم بين الزوجين من علائق وروابط وفق تلك الميول والرغبات وتوجهه الى آيات الله فى خلق السموات والأرض واختلاف الالسنة والألوان ، والى تدبر ما يحترى الكون من مظاهر البرق والمطر ، وما تثيره هذه الظواهر فى نفوس البشر من خوف وطمع ورغبة ورهبة كما تلفت الآيات نظر الانسان الى الأرض وما يحدث فيها من حياة وازدهار ، كل ذلك بأمر الله الواحد القهار ، كما أن اختلاف الالسنة والألوان آيات من آيات الله تعالى ، لا يعنى أن يوجد جنس أفضل من جنس ولا أرباب لسان ما أكرم من أصحاب اللسان الآخر لذاتهم فهذا تصور خاطئ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ( ان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) ) وما ذكر من فضل للسان العربى على غيره من اللغات انما شرف بشرف القرآن الذى نزل بلغة الضاد ، فتعلمها عبادة لأن بها يفهم مراد الله من كتابه ويفهم بها كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دونته السنة عنه من الأحكام والحلال والحرام كما يعرض لحالة من حالات الانسان الهامة فى حياته لا يخلو من الحاجة اليها أحد تلكم هى حالة النوم . فالانسان يشعر بالتعب والارهاق من العمل أو حتى بدون عمل فان فطرته ركب فيها هذا الميل الى النوم فى أوقات الحاجة اليه ليلا أو نهارا فهو سبات الأبدان وراحتها ( وجعلنا نومكم سباتا (٢) ) كما أن ابتغاء الرزق فى أرض الله من أعظم آيات الله ، اذ بابتغاء الرزق تعمر الأرض ويظل الناس فى حركة دائبة متصلة وبه يستعان على عبادة الله ، والابتغاء من فضل الله هو نفسه عبادة حينما يكون بالطرق التى شرعها الله ، وفيما أباحه الله .ومن الكلام عن الآيات فى النفس الى الآيات فى الكون . فالبرق وما يحدثه من الخوف والهلع وما يوجده فى النفوس من الطمع فى الخير بهطول الأمطار ، وانزال الماء من السماء — السحاب — واحياء الأرض بعد موتها ثم قيام السماء والأرض بأمر الله ، ثم

---

(١) الحجرات الآية ١٣ .

(٢) النبأ الآية ٠٩ .

الاشارة الى قدرته تعالى على البعث " ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون " ثم ملكيته تعالى لمن فى السموات والأرض والكل له خاشعون ، ثم يختم هذا السياق بتقرير ان الله وحده هو الذى يبدأ الخلق وهذه حقيقة مشاهدة أنه لا يستطيع أحد يخلق غير الله وهو سبحانه وتعالى سوف يعيده وذلك هين عليه سبحانه ليس فيه مشقة ولا كلفة ( انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون )(١) . ولما كان فى عرف الناس ان اعادة الشىء أهون من ايجاده جاءت كلمة أهون فى هذه الآية لتلفت انتباه الانسان الى هذه الحقيقة لا أن الله سبحانه وتعالى يجد مشقة فى الايجاد ، لذلك فالاعادة أهون بمعنى أخف عليه تعالى الله عن ذلك ، لذلك قال " وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " .

قال تعالى : ( يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم )(٢) .

ففى الآية التى تسبق هذه الآيات ربط للقلب البشرى بالله فى كل الأزمان والأحوال وفى كل مكان ، يشعر القلب بهذا الارتباط بالتسبيح له

---

(١) يس الآية ٨٢ .
(٢) الروم الآيات ١٩ — ٢٧ .

وتحميده في كل الأوقات ومن ثم يظل قلب الانسان يقظا يرى كل ما حولـــه يذكره بالله ، وكل ما يختلف عليه من أزمان وما يطرأ عليه من أحوال يذكـــره بتسبيح الله وحمده ، ويصله بخالقه جل وعز ، وفي كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان مما يعلم الله يخرج حي من ميت ، ويخرج ميت من حـــي ، وما دام الأمر كذلك مشاهد وملموس فكذلك تخرجون . فالذي أوجد الحي مـــن الميت ، والميت من الحي قادر على اخراجكم بالبعث بعد الموت " انما أمـــره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون "(١) . كذلك يلفت القرآن هذا الانسان الى أصل منشائه " ومن آياته أن خلقكم من تراب " والتراب ميت ساكن والانسان كائن متحرك ، وفي آية أخرى " ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طـــين "(٢) فالطين اذن هو الأصل للانسان ، لهذا وجدت في الانسان ثقلة حب البقاء على هذه الأرض ، وثقلة حب المال والشهوات المرتبطة بهذه الأرض ، ومع هذه الطبيعة في الانسان لم يتركها الله سبحانه وتعالى تهيمن عليه وتجذبه نهائيا اليها ، بل نفخ فيه من روحه فحصل له التوازن والاعتدال والانسان بهذه الحالة يتجاذبه عاملان ثقلة الطين ، ونفخة الروح ، فمتى أهمل جانبـــا تغلب عليه الجانب الآخر فشده اليه ، ومتى حصل منه الاهتمام بالجانبين معـا حصل له التوازن والاعتدال ، وهذا ما يحث عليه القرآن في كثير من آياته .

وينقلنا السياق الى مجال الحياة المشتركة بين الجنسين ، الذكـــــر والأنثى ، ويركز القرآن على هذا المجال بالذات ، فيذكر أنه خلق الزوج مـــن النفس ، ويعلل سبب ذلك بالسكن " لتسكنوا اليها " وأنه سبحانه وتعالـــى جعل المودة والرحمة بين الزوجين ، ثم يبين أن في ذلك لآيات لقوم يتفكـــرون في تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم البالغة ، ولا يحصل ذلك الا لمن أعمل فكره ولبه فيدرك حكمة الخالق جل وعلا في خلق الجنسين ، وايجـــاد

---

(١) يس الآية ٨٢ .

(٢) المؤمنون الآية ١٢ .

التجاذب الفطرى بينهما بحيث يوافق كل منهما الآخر ، ويجد كل منهما عند الآخر راحة النفس وطمأنينة القلب وهدوء الأعصاب لأن الله عز ذكره أودع فى كل منهما رغائب الآخر وجعل التآلف والتمازج فى النهاية تلبية لهذه الرغائب وتحقيقا للحكمة من خلقها ببقاء النوع الانسانى لعمارة الأرض والقيام بمهمة الاستخلاف عليها .

ثم تعرض الآيات الدليل الكونى فى خلق السموات والأرض مرتبطا بآية أخرى فى الانسان اختلاف الألسنة والألوان ، اذا لكل خلقه ، وكل من فى السموات والأرض عبيده ( ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا )(1) انها لآية عجيبة حين يرى الانسان بنى جنسه المنحدرين من أصل واحد مختلفين فى اللون ، مختلفين فى الألسن ، والعليم الخبير لا تخفى عليه خافية من شئونهم يسألونه فيعطيهم ، ويلجأون اليه فى الشدائد فيستجيب لهم ويشكرونه فيزيدهم ، ويطلبون مغفرته فيغفر لهم ، كل ذلك للملمات مختلفات " ان فى ذلك لآيات للعالمين " ويمضى بنا السياق الى ما يتعلق بأحوال البشر مرتبطا ببعض الظواهر الكونية فهو يربط بين ظاهرتى الليل والنهار ونوم البشر ونشاطهم فى ابتغاء الرزق الذى يتفضل الله به على عباده ، وجعل حاجتهم الى العمل مرتبطة بالنهار حيث يكون الضوء فيسعون فى أرض الله ويأكلون من رزق الله ، وجعل حاجتهم الى النوم والراحة مرتبطة بالليل وظلمته " ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون " أما أولئك الذين يصمون آذانهم عن سماع آيات الله فهم فى غفلة معرضون وهم كما وصفهم الله تعالى " لهم آذان لا يسمعون بها " .

وظاهرة البرق من الأدلة الكونية على قدرة الله تعالى فهى تبعث فى النفس الخوف مما ينتج عن البرق من الصواعق المحرقة وتبعث فيها الرجاء فى الخير الذى يأتى من المطر الذى يكون مصاحبا للبرق غالبا .

---

(1) مريم الآية ٩٣ .

وظاهرة البرق يحللها البعض بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء أو بين سحابة وجسم أرض كقمة جبل مثلا ينشأ عنها تفريغ في الهواء يتمثل في الرعد الذي يعقب البرق ، وفي الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم .

وأيا ما كان فنحن نؤمن أن البرق ظاهرة كونية وآية من آيات الله خلقه الله سبحانه وتعالى وقدره وأحسن تقديره وجعله آية على قدرته ومحلا للخوف والهلع ، والرجاء والطمع .

وانزال الماء من السماء لاحياء الأرض بالنبات والزروع بعد أن كانت جدباء قاحلة ،كل ذلك آيات بينات وأدلة واضحة " لقوم يعقلون " .

وقيام السماء والأرض بأمره ملبية طائعة سليمة منتظمة دون تردد ولا تأخير ( فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين )(١) . وهي من أعظم آيات الله ، وقد من بها جل وعز في كثير من آياته ، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم الا وللسماء والأرض فيها ذكر .

قال ابن القيم رحمه الله : " قل أن تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكر السماء اما اخبارا عن عظمتها وسعتها ، واما اقساما بها ، واما دعاء الى النظر فيها ، واما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، واما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد ، واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته ، وأنه الله الذي لا اله الا هو واما استدلالا منه بحسنها واستوائها ، والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها "(٢) .

---

(١) فصلت الآية ١١ .
(٢) ابن القيم في كتاب مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٩٦ .

ويعود السياق فيختم الآية بذكر دعوة الله لخلقه بالبعث من القبور وتلبيتهم لتلك الدعوة لا يستطيع أحد أن يتخلف عن تلك الدعوة . انها الآية تعن لها الجباه ساجدة خاضعة وتخشع لها القلوب راهبة وجلة ، ويختم التقرير بتعقيب مناسب يهز المشاعر ويوقظ القلوب بتوجهها الى خالقها ومعبودها لأن له من فى السموات والأرض فالكل ملكه والجميع قانتون له مطيعون .

ثم يختم السياق بلفت الأنظار والقلوب الى حقيقة بدء الخلق واعادته وهى لفتة توقظ القلوب الغافلة وتردها الى الله مولاها الحق حيث يتبين لها الحق وماذا بعد الحق الا الضلال . فما دام التسليم حاصل بأن الله هو الخالق وأن ايجاد الشيء أصعب من اعادته فى نظرهم وعرفهم وتقديرهم فلماذا يمارون فى البعث وهو أهون عليه أى أخف من البدء فيجب التسليم اذن بقدرته تعالى على اعادة المخلوقات بعد فنائها مع أن الله تعالى ذكره ليس يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وليس عنده شيء أهون ولا أصعب ( انما أمره اذا أراد شيء أن يقول له كن فيكون ) لكنه سبحانه يخاطب الناس بحسب ادراكهم . فما بالهم يرون الاعادة عسيرة على الله ؟ وهو المنفرد بالكمال المطلق لا يشاركه فيه أحد ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " . الذى عز فحكم يفعل ما يريد ويدبر باحكام وتقدير ، " ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين " .

ومن سورة لقمان : يعرض سبحانه وتعالى مشهدا كونيا واسعا عظيما لا يملك الانسان الذى سلمت فطرته من الأهواء الا التسليم بوحدانية الخالق العظيم . وبعد ذلك مباشرة يأتى بآية التحدى الصارخ لدعواهم المتهافتة الباطلة التى لا تقوم على دليل ولا تستند الى برهان ، دعواهم أن لله شركاء فى الألوهية ، ثم يصمهم بالظلم والضلال المبين ، وأى ظلم أعظم من الشرك ( ان الشرك لظلم عظيم )(١) قال تعالى : ( خلق السموات بغير عمد ترونها

---

(١) لقمان الآية ١٣ .

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ) (١) وفى هذا تسجيل عليهم بالضلال المبين المستدعى للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئا ، فيهتدوا به الى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه (٢) .

ونختار من سورة فاطر المكية آيات تقرر وحدة الألوهية فى أوسع مجال ، حيث تبدأ السورة بتقرير الحمد لله وأنه الخالق للسموات والأرض والمنشىء لها من العدم ومبدعهما على غير مثال سابق والجاعل الملائكة رسلا بينه وبين أنبيائه ورسله ممن اصطفاهم من خلقه وأنه سبحانه يزيد فى الخلق ما يشاء ، يزيدهم فى الخلقة المغايرة لغيرهم من المخلوقات ويزيدهم من الصفات ما يجعلهم أهلا لتحمل عبء الرسالات ، وكما كانت زيادته تعالى فى خلق الملائكة من الأجنحة وزيادة بعضهم على بعض فله سبحانه أن ينقص ما يشاء عمن يشاء من خلقه ويزيد من يشاء منهم له القدرة والسلطان لا يمتنع عليه فعل شيء أراده سبحانه وتعالى .

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن مفاتيح الخير ومغالقه بيده ، فما يفتح من خير فلا مغلق له ، ولا ممسك ، لأن ذلك أمره لا يستطيع أحد رده . وما يغلق من خير عن خلقه فلا يبسطه عليهم أحد ولا يفتحه لهم اذ لا فاتح سواه والأمور كلها له واليه (٣) .

فلنتدبر عظمة هذا الوجود وروعة هذا الكون ، ولنتأمل آيات الله المبثوثة ، ولنتذكر آلاء الله ونستشعر رحمته ورعايته ، هذه الرحمة التى

---

(١) لقمان الآيتان ١٠ ، ١١ .
(٢) تفسير " أبو السعود " ج ٤ ص ٣٧٥ .
(٣) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١١٥ .

شملت الوجود كله التى تتمثل فى مظاهر لا يحصيها العد ، ويعجز الانسان عن تسجيلها فى ذات نفسه وتكوينه كيف بما كرمه وما سخر له من حوله ومن فوقه وتحته وما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه ، رحمة الله التى شملت البر والفاجر ، رحمته التى قذفها فى قلوب الأمهات فعطفت على صغارها ، رحمته التى أنزلها سكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، يجدها من يفتح الله له فى كل شيء وفى كل حال ، ويفتقدها من يمسكها الله عنه فى كل شيء وفى كل حال .

ورحمة الله لا تعز على طالب فى أى مكان ولا فى أى حال ، وجدها ابراهيم عليه السلام فى وسط النار ، ووجدها يوسف عليه السلام فى غيابت الجب ، وفى غياهب السجن ، ووجدها يونس عليه السلام فى بطن الحوت ، ووجدتها أم موسى عليه السلام فى التابوت على صفحة اليم وهى لا تملك له حولا ولا طولا ، ووجدها موسى فى قصر عدوه المتربص به فرعون ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، كما وجدها أهل الكهف فى كهفهم " فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته " ووجدها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار ، ووجدها كل من التجأ الى الله وحده ويئس ممن سواه .

اذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يقضى عليه اجتهاده

قال الأستاذ سيد قطب :

" فمتى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها ، ومتى أمسكها فلا مرسل لها ومن ثم فلا مخافة من أحد ، ولا رجاء فى أحد ، ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة ، انما هى مشيئة الله والأمر مباشرة الى الله " وهو العزيز الحكيم " يقدر بلا معقب على الارسال والامساك ، ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الارسال والامساك " (١) " وعبر سبحانه وتعالى عن ارسالها بالفتح ايذانا بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون ، وأعزها منالا ،

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ م ٦ ص ٦٧٠ .

وتنكير رحمة للاشاعة والابهام ، أى أى شىء يفتح الله من خزائن رحمته ، أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لا يحاط به فلا أحد يقدر على امساكها (١) " فهو العزيز الغالب على كل شىء ، الحكيم الذى يفعل كل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة " وهو العزيز الحكيم " فالجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، ثم يتبع ذلك بالنداء للناس يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم — وما أكثرها — وأهمها نعمة الرسالة الخاتمة التى جحدها المشركون . يذكرهم بأنه سبحانه وتعالى الخالق الرازق الذى لا اله الا هو فيجب أن يعبدوه وحده ، ويقلعوا عن عبادة غيره لأن من لا يخلق لا يستحق أن يعبد ، قال تعالى: ( الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ان الله على كل شىء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون ) (٢) .

ونعم الله على الانسان كثيرة وجليلة ، فالسماء تفيض عليه بالرزق ( وفى السماء رزقكم وما توعدون ) (٣) والأرض تفيض عليه بالخير ( فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وابا ، متاعا لكم ولأنعامكم ) (٤) وفى كل لحظة من لحظات عمر الانسان وعليه من الله حفظه ( يحفظونه من أمر الله ) أى بأمر الله ، وهذه من كبرى النعم ، فلو تصورنا أن الله سبحانه وتعالى أمسك هذه النعم عن الانسان كيف يكون حاله ، وكيف يصير مآله ، لو أمسك عنه

---

(١) أبو السعود فى تفسيره ج ٤ ص ٤٧٠ .
(٢) فاطر الآيات ١ — ٣ .
(٣) الذاريات الآية ٢٢ .
(٤) عبس الآيات ٢٤ — ٣٢ .

السماء فلم تمطر ، أو أمسك عنه الأرض فلم تنبت أو أمسك عنه النبات فلم ينمو ( أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (١) ) ولو شاء لجعله عقيما فلم ينجب ( أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٢) ) هذه النعم وغيرها وغيرها التي يفيض بها الخالق جل وعلا على خلقه ، فهل من خالق غير الله يرزقهم ؟ فاذا لم يكن هناك خالق ولا رازق سواه فما للناس لا يذكرون ، ولا يشكرون ، وما بالهم ينصرفون عن التوجه اليه وحده بالحمد والثناء والشكر على النعماء لا اله الا هو لامعبود سواه تباركت أسماؤه وتعالت صفاته .

( والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (٣) ) وفي هذا دلالة واضحة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية فما دام الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون قطميرا — وهو لفافة النواة الرقيقة — وهذا مثل في القلة والحقارة — اذن يتوجب عليكم أن تتجهوا الى الله وحده الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو ، وقوله تعالى : " ولا ينبئك مثل خبير " فيه ايقاظ للقلب البشري ليعلم أن الحق سبحانه هو الخبير وحده بكنه الأمور ، دون سائر المخبرين ، والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفي ما يدعون لهم من الآلهية ، وهو الخبير بكل شيء ، وبكل أمر في الدنيا والآخرة فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وننتقل الى الآيات الكونية من السورة نفسها وهي تقرر وحدانية الله تعالى بأدلة سماوية وأرضية ،أدلة في صحائف هذا الكون العجيب ،أدلة متنوعة الألوان والأنواع ، انزال الماء من السماء ، اخراج الثمرات المختلفة الألوان ، منظر الجبال الملونة ، بيض ، وحمر ، وسود ، اختلاف الألوان في الناس والدواب

---

(١) الواقعة الآية ٦٣ — ٦٥ .
(٢) نفس السورة الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
(٣) فاطر الآيتان ١٢ ، ١٣ .

والأنعام ، هذه لفتة يلفتنا القرآن بها لنجوب الأرض كلها نتتبع فى جبالهـا الألوان المتعددة ونشاهد فى أرجائها أنواع الألوان فى الناس والـــدواب والأنعام والثمرات ، هذه الأشياء المشاهدة التى يلمسها الناس ويحســـون بوجودها فى كل حين ألا تدع القلب خاشعا لله متصلا بهذا الخالق العظيم " انما يخشى الله من عباده العلماء " فمن علم أن هذا خلق الله وأنه واحد مـــن خلق الله داخلته الخشية من هذه المشاهد العظيمة وعاد يزداد أيما زاد ، زاد لروحه وعقله ، لروحه تحلق فى عليين حيث يكون طائعا لربه ممتثلا أوامره مجتنبا نواهيه ، ولعقله فى التفكير حيث يسبح فكره فى سماء الوجود فيتذكــر ، ( وما يذكر الا أولو الألباب )(١) قال تعالى : ( ألم تر أن الله أنزل من السمـــاء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلـــك انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور )(٢) .

وانه لحسب الانسان مشهد واحد من سورة واحدة لو كان يريـــد الهدى ، ولو كان الذى يريد هو البرهان ، ولو نظر الانسان الى حقيقة نفسه " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " ونظر الى علاقته بالله وفقره اليه سبحانه وتعالـى ، وغنى الله سبحانه وتعالى عن جميع مخلوقاته فهو الغنى عمن سواه وهو المحمـــود بذاته ، ونحن الفقراء اليه المحتاجون فى كل الأحوال ، يا أيها الناس أنـــتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخـــلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز "(٣) . لو نظر وفكر وتدبر لعلم أن الله هو الحـق المبين وأن عبادته وحده هى الحق وما عداها من العبادات باطل .

والقرآن يشير فى كثير من آياته الى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضـلال كالاختلاف بين العمى والبصر ، والظلمة والنور ، والظل والحر والحياة والموت

---

(١) البقرة الآية ٢٦٩ .
(٢) فاطر الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) نفس السورة الآيات ١٥ ــ ١٧ .

قال تعالى : ( وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ) (١) . "حقا انه لا يستوى العمى والبصر ولا النور والظلمة ، ولا الظل والحر ولا الحياة والموت ، وكما أن بين العمى والظلمة والحر والموت شبها ما ، فان بين البصر والنور والظل والحياة شبها أيضا وصلة .

ذلك أن الايمان نور فى القلب يسرى على الجوارح والحواس ، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم ، والأحداث وما بينها من ارتباطات ، ونسب وأبعاد ، فالمؤمن ينظر بهذا النور ، فيرى تلك الحقائق واضحة جلية فيسلك الطريق السوى دون تعثر فى خطواته فهو على ثقة واطمئنان لأنه على نور من ربه . ( ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ) (٢) " والايمان ظل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة فى التيه المظلم بلا دليل ، والايمان حياة فى القلب والمشاعر ، حياة فى القصد والاتجاه كما أنه حركة بانية مثمرة قاصدة لاجمود فيها ولا همود ، ولا عبث فيها ولا ضياع .

والكفر عمى ، عمى فى طبيعة القلب ، وعمى من رؤية الحق ، وعمى عن رؤية حقيقة الوجود ، وحقيقة الارتباطات فيه ، وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء ، والكفر ظلمة أو ظلمات بعضها فوق بعض لأن من بعد عن النور وقع فى ظلمات شتى ، تعز فيها الرؤيا الصحيحة لشيء من الأشياء .

والكفر هاجرة : حرور تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق ، وعدم الاستقرار على هدف ، وعدم الاطمئنان الى نشأة أو مصير تنتهى بالانسان الى حر جهنم ولفحة العذاب يوم القيامة .

---

(١) فاطر الآيات ١٩ — ٢٢ .

(٢) النور الآية ٤٠ .

والكفر موت : موت في الضمير وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل ،وانفصال عن الطريق الواصل وعجز عن الاستجابة للأخذ من النبع الحقيقي المؤثر في سير الحياة وما بعد الحياة "(١)

ولن يستوى عند الله الكفر والايمان ، ( أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون )(٢) ، والله سبحانه وتعالى منح الانسان من عنايته ورعايته ، وأفاض عليه من رحمته ، وغمره بسابغ فضله ، وان العاقل ليدهش حين يرى هذا الانسان الصغير الجاهل الضعيف العاجز ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل ، ومع ذلك يرى الكثرة غافلين عن الله ، سادرين في غيهم يعمهون في ضلالهم ، ( يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم )(٣) والحجة واضحة ، والأدلة بينة والبراهين ساطعة أمام أعينهم ، ان كل شيء في الأرض والسماء يهتف بأن الذى أنشأه وأبدعه هو الله وحده ، يقول تعالى: ( قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا )(٤) ، وفى آية أخرى يقول تعالى مندداً بالمشركين ( واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا )(٥) .

قال شيخنا : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله :

" ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة — يعنى آية الفرقان — أن الآلهة التى يعبدها المشركون من دونه متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع ، ان عبادتها مع الله لا وجه لها بحال ، بل هى ظلم متناه ، وجهل عظيم ، وشرك يخلد بصاحبه في نار جهنم ، وهذا بعد أن أثنى على نفسه جل وعلا

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٦٩٣ م ٦ بتصرف .
(٢) السجدة الآية ١٨ .
(٣) محمد الآية ١٢ .
(٤) فاطر الآية ٤٠ .
(٥) الفرقان الآية ٣ .
(٦) كتاب أضواء البيان جـ ٦ ص ٢٩ بتصرف .

بالأمور الخمسة المذكورة فى الآية المذكورة التى قبلها التى هى براهين قاطعة على أن المتصف بها هو المعبود وحده • وهى قوله تعالى ( الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا )(١) ، وهى :

١ ـ أنه هو الذى له ملك السموات والأرض •

٢ ـ أنه لم يتخذ ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا •

٣ ـ أنه لا شريك له فى ملكه •

٤ ـ أنه هو خالق كل شيء •

٥ ـ أنه قدر كل شيء خلقه تقديرا •

وقد جاءت هذه الأمور الخمسة موضحة فى كتاب الله تعالى فى آيات كثيرة ، فالأول منها جاء موضحا فى عدة آيات ، ففى سورة المائدة ، قوله تعالى : ( ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض )(٢) الآية ، وفى سورة النور قوله تعالى : ( ولله ملك السموات والأرض والى الله المصير )(٣) وفى سورة فاطر قوله تعالى ( ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير )(٤) وكل آية فيها ذكر الملك فهو شامل لملك السموات والأرض • وأما الثانى : وهو كونه تعالى لم يتخذ ولدا ، فقد جاء موضحا فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : ( لم يلد ولم يولد )(٥) وقوله تعالى ( وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا )(٦) وقوله تعالى : ( بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة )(٧) وقوله تعالى : ( وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعو للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا )(٨)

---

(١) الفرقان الآية ٢ •
(٢) المائدة الآية ٤٠ •
(٣) النور الآية ٤٢ •
(٤) فاطر الآية ١٣ •
(٥) الاخلاص الآية ٣ •
(٦) الجن الآية ٣ •
(٧) الأنعام الآية ١٠١ •
(٨) مريم الآيات ٨٨ ـ ٩٣ •

وقوله تعالى ( وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (١) ) وقوله تعالى : ( أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ، انكم لتقولون قولا عظيما (٢) ) ، وقوله تعالى: ( ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٣) ) .

والأمر الثالث : وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك ، فقد جاء موضحا في آيات عدة من كتاب الله منها قوله تعالى : ( وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك (٤) ) الآية . وقوله تعالى : ( قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير (٥) ) وقوله تعالى : ( الملك اليوم لله الواحد القهار (٦) ) فالقهار يدل على القهر والغلبة ، واستحقاق الاخلاص له بالعبادة .

وأما الأمر الرابع : وهو أنه تعالى خلق كل شيء فقد جاء موضحا في آيات كثيرة ، منها : قوله تعالى : ( بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل (٧) ) ، وقوله تعالى : ( ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فأنى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٨) ) الى غير ذلك من الآيات .

---

(١) الكهف الآيتان ٤ ـ ٥ .
(٢) الاسراء الآية ٤٠ .
(٣) المؤمنون الآية ٩١ .
(٤) الاسراء الآية ١١١ .
(٥) سبأ الآية ٢٢ .
(٦) غافر الآية ١٦ .
(٧) الأنعام الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ .
(٨) غافر الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

وأما الأمر الخامس : وهو أنه تعالى قدر كل شيء خلقه تقديرا فقد جاء في عدة آيات من الكتاب الحكيم منها قوله تعالى : ( الذي خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ) (١) ، وقوله تعالى : ( وكل شيء عنده بمقدار ) (٢) وقوله تعالى : ( انا كل شيء خلقناه بقدر ) (٣) .

وبعد هذه الأمور الخمسة التي ذكرت في الآية المذكورة ، والتى هى صفات المعبود والتى يستحق بها العبادة وحده دون سواه ، ذكر في الآية التي تليها صفات الآلهة المزعومة والتى يتخذها المشركون أندادا يعبدونها من دون الله ، وهذه الصفات هى :

١ — أنها لا تخلق شيئا ، أى لا تقدر على خلق شيء .

٢ — أنها مخلوقة كلها ، أى خلقها خالق كل شيء .

٣ — أنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا .

٤ — ، ٥ — ، ٦ — } أنها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا ، أى بعثا بعد الموت .

وهذه الأمور الستة جاءت مبينة في عدة مواضع من كتاب الله .

فالأول منها : وهو كون الآلهة المعبودة من دون الله لا تخلق شيئا قد جاء مبينا في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ( ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ) (٤) وقوله تعالى : ( والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ) (٥) وقوله تعالى : ( قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا ) (٦) وقوله تعالى : ( هذا خلق الله

---

(١) الأعلى الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) الرعد الآية ٨ .
(٣) القمر الآية ٤٩ .
(٤) الحج الآية ٧٣ .
(٥) النحل الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(٦) فاطر الآية ٤٠ .

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين )(١) ، وقوله تعالى : ( قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا فى الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين )(٢) وقوله تعالى : ( ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا )(٣) فمن يخلق هو المعبود ، ومن لا يخلق لا يكون معبودا ولا تصح عبادته بحال . قال تعالى : ( يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون )(٤) وقوله تعالى : ( أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون )(٥) .

وأما الأمر الثانى منها وهو كون الآلهة المعبودة من دون الله مخلوقة فقد جاء مبينا كذلك فى أيات كثيرة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا ، وهم يخلقون )(٦) وقوله تعالى : " وهم يخلقون " صريح فى ذلك ، وقوله تعالى : ( أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ) .

وأما الأمر الثالث منها : وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . فقد جاء مبينا فى مواضع من كتاب الله تعالى منها قوله تعالى : ( قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا )(٧) وقوله تعالى ( أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون )(٨) ، وقوله تعالى : ( والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون )(٩) ومن لا ينصر نفسه

---

(١) لقمان الآية ١١ .
(٢) الأحقاف الآية ٤ .
(٣) الكهف الآية ٥١ .
(٤) البقرة الآية ٢١ .
(٥) الأعراف الآية ١٩١ .
(٦) النحل الآية ٢٠ .
(٧) الرعد الآية ١٦ .
(٨) الأعراف ١٩١ — ١٩٢ .
(٩) نفس السورة الآية ١٩٧ .

فهو لا يملك لها ضرا ولا نفعا ، وقوله تعالى : ( وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون ، ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم ، فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون )(١) .

وفيه الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، وقوله تعالى : ( وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ) الآية(٢) .

وأما الرابع والخامس والسادس من الأمور المذكورة : أعنى كونهم لا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ، فقد جاءت آيات مبينة لذلك فى القرآن الكريم منها : قوله تعالى : ( الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون )(٣) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة " هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون " يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئا من ذلك المذكور فى الآية ، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم ، والموت المعبر عنه بقوله : ثم يميتكم ، والنشور المعبر عنه بقوله تعالى : ثم يحييكم ، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشورا بقوله : ( أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون )(٤) وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشورا فى قوله تعالى : ( قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده )(٥) الآية ، وبين أنه وحده الذى بيده الموت والحياة فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : ( وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا )(٦)

---

(١) الأعراف الآيات ١٩٣ — ١٩٥ .
(٢) الحج الآية ٧٣ .
(٣) الروم الآية ٤٠ .
(٤) الأنبياء الآية ٢١ .
(٥) يونس الآية ٣٤ .
(٦) آل عمران الآية ١٤٥ .

وقوله تعالى : ( ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها )(١) وقوله تعالى : ( كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم )(٢) الآية " أ • هـ المراد منه•

وبهذا يتبين من صفات الخالق المعبود وصفات المخلوق المربوب توجيه الخالق عباده الى أهم شيء يجب أن يعلموه ألا وهو الوحدانية لله الخالق الرازق المحيي المميت ، وفيه من التربية ما لا يخفى ، فمنها : الاعتراف بالخالقية والرازقية لله ، وأن له الخلق والأمر والتدبير لأن الملك كله لله وحده ( لله ملك السموات والأرض ) ومنها : نفي الولد عنه سبحانه وتعالى لأن ذلك من صفات المخلوق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا • ومنها نفي الشريك عنه تعالى لأن من يخلق هو المعبود وحده دون من سواه ، ومنها الاعتراف له جل وعلا بتقدير كل شيء ، ومنها الاعتراف بعجز الانسان عن خلق أى شيء ( ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ) ومنها : أن النفع والضر بيد الله وحده ، وأن الانسان تحت سلطة قاهرة لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ومنها التسليم المطلق لله في أمر الحياة والموت، وأن ما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ومنها الايمان بالبعث والجزاء ، وأنه حق ، وبالتالي يعرف كيف يسير في حياته ويكبح جماح شهوته ، ويحكم نزواته طمعا في الثواب وخوفا من العقاب وطاعة وامتثالا لمن بيده الخير كله ، واليه يرجع الأمر كله ، وهو على كل شيء قدير •

من أقوالهم :(٣)

يقول " ارسل تشارلز أرنست " أستاذ علم الأحياء والنبات بجامعة فرانكفورت : " انني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته تعالى شهادة تقوم على الفكر والمنطق ، ولهذا

---

(١) المنافقون الآية ١١ •
(٢) البقرة الآية ٢٨ •
(٣) نقلا من كتاب " الله أو الدمار " للأستاذ سعد جمعة رئيس الحكومة الأردنية سابقا " ص ٢٣٥ فما بعدها •

فاننى أؤمن بوجود الله ايمانا راسخا " .

ويقول " ايرفنج وليام " أستاذ العلوم الطبيعية بجامعة " ميتشجان " :
" ان العلم لا يستطيع أن يفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق المتناهية فى الصغر التى تتكون منها جميع الأشياء ، كما لا يستطيع العلم أن يفسر لنا كيف تتجمع تلك الدقائق لتنتج الحياة الا بالاعتماد على فكرة المصادفة ، وهى فكرة لا تتفق مع العلم ، ان دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أكثر الدراسات اظهارا لقدرة الله " .

ويقول الدكتور " الكسيس كاريل " فى كتابه " الانسان ذلك المجهول " :
" يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالا يملكون الابتكار والذكاء والجرأة .. وفى كل قطر تقريبا يرى الانسان فى الطبيعة التى تمارس ادارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطا فى الاستعداد الفكرى ، والخلقى .. ان المناخ الذى نشأ عن العلوم الطبيعية لا ينسجم مع الخصائص الانسانية وشخصية الانسان .. ان الأمم التى ازدهرت فيها الحضارة الصناعية تسير سيرا حثيثا الى الهمجية ، ولكنها لا تدرك ذلك . ان علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الانسان متأخر جدا عن علمنا بالماديات وهذا التأخر هو الذى جنى علينا " .

ويقول العالم المعاصر " ديل سوارتزن درويز " : " كيف نفسر نظام الكون والابداع التى يتجلى فيه هنا طريقان : اما أن يكون الكون قد حدث بطريق الصدفة وهو ما لا يتفق مع المنطق والتجربة ، ولا مع قوانين (الديناميكا) الحرارية التى اكتشفها العلم الحديث . واما أن يكون هذا النظام قد وضع بتفكير وتدبير وتصميم وحكمة وهو الرأى الذى يقبله العقل ، أما ما وصلنا اليه من التفسيرات العلمية الأخرى فهى ليست ثابتة ، وليس لها صفة الاطلاق " (١) .

---

(١) كتاب الله أو الدمار للأستاذ سعد جمعة ص ٢٣٥ وما بعدها .

ويقول " اينشتاين " ان الانسان الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ، بل غير مؤهل للحياة " ، ثم يقول : " ان العقل البشرى مهما بلغ من سمو الادراك والتفكير عاجز عن الاحاطة بالكون ، ولا يمكن أن يدرك أكثر من الطفل الذى يدخل مكتبة كبيرة تضم عددا ضخما من الكتب المختلفة بلغات متعددة ، فهو يعلم أن هناك أشخاصا قد كتبوا مثل تلك الكتب ، ولكن لا يعرف من كتبها ولا كيف كتبها ، ولا يعرف اللغات التى كتبت بها ، والطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ونظاما خفيا لا يدركه هو ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، فذاك شبيه بموقف العقل البشرى من الله مهما بلغ من العظمة والسمو " (١).

ويقول " وليم جيمس " : " ان الحياة تستحق أن نحياها اذا اعتقدنا أن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وأنه يوجد الى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة موجودة فى عالم غير مرئى ، وهذا يفسر السعادة الروحية والنفسية التى يحسها من آمن بالله . أما الملحد فهو مخلوق يحطمه القلق فلا يستطيع الحصول على مثل هذه السعادة ، ويدفعه موقفه السلبى من الكون الى ارادة تدمير كل شىء ، كل القيم ، والأخلاق والحوافز الانسانية " (٢).

ويقول العالم النفسى الكبير " يونغ " فى كتابه " الدين وعلم النفس " : " ان الانسان يصبح مريضا عصبيا عندما يفقد ثقته بنفسه ، والثقة بالنفس تكون قلقة غير مستقرة اذا لم تقترن بالايمان بالله ، والثقة به والتوكل عليه " (٣).

وحسبنا من أقوال هؤلاء العلماء ما يشير الى ضرورة الايمان بالله خالقا ومعبودا واحدا لا رب سواه ولا اله غيره .

---

(١) كتاب الله أو الدمار للأستاذ سعد جمعة ص ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

والخلاصة فى هذا البحث أن القرآن الكريم وجه النفس البشرية الى ربها ومعبودها بطرق عدة ، تارة يسلك بها طريق النظر فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، وتارة يسلك بها طريق النظر فى آفاق النفس الانسانية وكيفية خلقها ومراحل تكوينها حتى نهايتها ، وتارة يسلك بها طريق النظر فى النعم المتعددة الشاملة المتنوعة ، ويربطها بخالقها وخالق هذه النعم وموجدها من العدم ، ومنها النظر فى هذا النظام الكونى الدقيق بأجرامه المتعددة وأحجامه المختلفة وطبيعة كل جرم ووظيفة كل كوكب ، ومنها المن بالليل والنهار وما فى كل منهما من المصالح والفوائد للانسان ، ومنها الظواهر الكونية كالسحاب والرياح والمطر وما يحصل من ذلك من المنافع ، والرعد والبرق وما ينتج عن ذلك من الرغبة والرهبة ، ومنها التحدى الذى أظهر فيه عجز البشرية كلها عن الخلق ولو ذبابة .

ولا يسع الانسان العاقل بعد هذا الحشد الهائل من الأدلة على أن الله سبحانه هو المنعم المتفضل الا أن يخر ساجدا لله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ، ولا يسعه الا أن يسلم أمره وقياده الى ربه وخالقه الذى يكلؤه فى الليل والنهار ويحفظه ، ولا يسعه الا أن يمسك بحبل الله ويعتصم بقرآنه الكريم وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم والقلب الرحيم ، فيكون ذا عقيدة سوية قوية حية نامية ، يقظة واعية ، مستقرة مشرقة يغمر ضوءها جوانب النفس ، ويسرى ماؤها فى أغوار القلب ، فهى للضمير منارة الذى يهديه سواء السبيل ، وهى للارادة قوتها النازعة الوازعة ، عن أمرها يصدر صاحبها فى حركاته وسكناته ، ونحو أهدافها يتوجه فى أقواله وأفعاله ، يتلقى دائما وحيها ويستلهمه ، ويتوقى ارشادها ويترسمه .

## الايمان بالملائكة :

والايمان بالله تعالى ربا ومعبودا واحدا ، يستلزم الايمان بالملائكة ، الذين هم أرواح قائمة فى أجسام نورانية أعطاها الله القدرة على التمثل بأنواع

مختلفة الشكل مناسبة للحالة التي يأتون فيها •

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم " (١) ومن تمثلاتها أن جبريل كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة رجل أعرابى خشن المنظر • عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : " بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد •• وفيه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان ، وفى آخر الحديث قال رسول الله ياعمر أتدرى من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : انه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " (٢) وفى القرآن الكريم يقول تعالى : ( فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ) (٣) •

وقد كلفنا الله تعالى الايمان بهم والتصديق بوجودهم وأنهم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قال تعالى : ( آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ) (٤) •

والايمان بالملائكة له صلة قوية بالانسان ذلك أن منهم الموكلون بشئونه الخاصة منذ نفخ الروح فيه فى بطن أمه الى انتزاع الروح منه بالوفاة ، ومنهم الموكلون يحفظه من أمر الله قال تعالى : ( له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ) (٥) ومنهم المكلفون برصد حركاته وسكناته ( ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ) (٦) ، ( وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ) (٧) ، ( أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ) (٨) •

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد باب أحاديث متنوعة ج ٤ ص ٢٢٩٤ رقم ٢٢٩٦ •
(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان ج ١ ص ٣٧ رقم الحديث ١ •
(٣) سورة مريم الآية ١٧ •
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٥ •
(٥) سورة الرعد الآية ١١ •
(٦) سورة ق الآية ١٨ •
(٧) سورة الانفطار الآيات ١٠ ـ ١٢ •
(٨) سورة الزخرف الآية ٨٠ •

■ والثمرة الحاصلة من الايمان بهذا النوع من خلق الله :

١ — امتثال أمر الله تعالى بالايمان بهم ذلك أن من أنكر وجودهم فقد ضل ، قال تعالى : ( ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا )(١) .

٢ — أن الانسان اذا تيقن أن جميع ما يصدر عنه من أعمال مكتوب عليه ، علم ماذا ينبغي عليه أن يحمل حيال هؤلاء الملازمين له ليلا ونهارا ، فيحسن الصحبة معهم بحفظ اللسان عن القول المشين والجوارح الأخرى عن الأعمال المنافية للفضيلة وبالجملة سيتمسك بالفضيلة قولا وعملا ويبتعد عن الرذيلة قولا وعملا ، خوفا من الفضيحة على رؤوس الأشهاد حين تنشر الصحف ويقال لكل شخص ( اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا )(٢) حين يقول المجرمون : ( يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا )(٣) .

## الايمان بالكتب :

هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى أنزل كتبا مشتملة على الهدى مبينة للناس ما يصلحهم في دنياهم وأخراهم موضحة لهم كيفية التعامل فيما بينهم وجهت النفوس البشرية الى خالقها ومعبودها بما حملته لها من الهداية والتوجيه الرباني في النواحي العبادية والتشريعية والخلقية ، أنزلت على رسل الله ليقوموا بتبليغها للناس ، وكان القرآن الكريم هو آخر الكتب المنزلة وهو خاتم الشرائع وناسخ لجميع الكتب السابقة ، فمن أنكر كتب الله المنزلة على رسله لم يعرف الله حق معرفته ولم يقدره حق قدره اذ من لوازم الايمان بالله الايمان بكتبه التي أنزلها على المصطفين من خلقه ، قال تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب

---

(١) النساء الآية ١٣٦ .
(٢) الاسراء الآية ١٤ .
(٣) الكهف الآية ٤٩ .

الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون )(١) ، وقال عن القرآن الكريم : ( ألر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد )(٢) وطلب الله سبحانه من المؤمنين أن يؤمنوا بكتبه ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل )(٣) .

الايمان بالرسل :

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ووهبه عقلا يدرك به المحسوسات فى خلق الأرض والسموات ويميز به الحق من الباطل ، والخير من الشر ، ويفكر فيما حوله وبه من آيات الخلق وعجائب الكائنات وركز فيه فطرة يعرف بها ربه وخالقه ، لكن العقل وحده لا يستقل بالمعرفة والتمييز والفطرة تحيط بها عوامل الانحراف من داخل النفس ومن خارجها فتحرفها عن مسارها الصحيح ، لذلك كان من رحمة الله بعباده أن لا يتركهم سدى فاصطفى منهم نخبة ميزهم بالفطر السليمة ، وبلغ بهم من الكمال ما يليقون معه لتحمل الأمانة ، " اصطفاهم برسالته للبشرية ليبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا يدلهم من علمه ، وأن يبلغوا عنه شرائعه العامة ، التى تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، ويعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم ويحذرهم مما فيه شقاؤهم ، ويؤيد هؤلاء الرسل بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات والمعجزات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونوا بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من

---

(١) الأنعام الآية ٩١ .
(٢) ابراهيم الآية ١ .
(٣) النساء الآية ١٣٦ .

شئون ذاته وصفاته"[1] ، أولئك هم الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه فبعثة الأنبياء من أهم حاجات الانسان ومكونات حياته وبقائه على هذه الأرض ، ومنزلتها من النوع الانسانى منزلة العقل من الشخص ، نعمة أنعمها الله على الانسان ( لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل )[2] .

وكان النبي يبعث بين حين وآخر في قومه خاصة بشريعة خاصة وكان بين أقوامهم منهم من آمن ومنهم من كفر ، منهم من قص الله علينا ومنهم من لم يقصصه ( منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك )[3] وكانت الجامعة التى تجمع الأنبياء والمرسلين جميعا هى الدعوة الى توحيد الله وحده . ( أن اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره ) قالها نوح ، وابراهيم ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وعيسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ، ولما كان الناس بعد رفع عيسى عليه السلام قد مكثوا فترة لم يأتهم فيها نذير ، وكان من عدله تعالى بخلقه ورحمته الشاملة لهم أن لا يتركهم هملا يتخبطون فى ظلمات الشرك الحالكة ، ودياجير الجهل المهلكة فاصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة للبشرية كافة ، خاتما لرسله وهاديا للانسانية جمعاء ، منقذا لها من الجهالة ، كاشفا عنها حجب الغفلة ، مرتفعا بها من حضيض الوثنية الى سماء العبودية لله وحده ووضع لهم منهجا لحياتهم يسيرون عليه وهو القرآن أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم الكتب ، لم تستطع أمم الأرض أن تأتى بعشر معشار ما أتى به من شمول فى المنهج يشمل نواحى الحياة المتعددة ، فأخرج به العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ، وما ذلك الا لخير العباد أنفسهم ، لأنه سبحانه وتعالى لا ينقص من ملكه شيئا عصيان العصاة ولا يزيد فى ملكه شيئا طاعة الطائعين ، ( ان الله لغنى عن العالمين )[4] والشمول فى المنهج بمعنى الشمول

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ الامام محمد عبده ص ٩٠ بتصرف .
(٢) النساء الآية ١٦٥ .
(٣) غافر الآية ٧٨ .
(٤) العنكبوت الآية ٦ .

لكل محتاجات الناس والوفاء بمتطلبات حياتهم ( ما فرطنا فى الكتاب من شئ ) (١)
( كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير ) (٢) دعاهم محمد صلى الله عليه وسلم الى الوحدانية كما دعا اخوانه من النبيين والمرسلين أقوامهم من قبل لأنها — أى الدعوة — المقصود الأول من الرسالات السماوية ، والاقرار بالرسالة أساس للتصديق بالقضايا التى جاءت الرسالة لتقريرها . وهنا يبرز الجانب التربوى للنفس الانسانية فحينما يعلم الانسان علم اليقين أن هذه الرسالة من عند الله ، حينئذ يكون صامدا كالطود لا تهزه الشدائد مهما ادلهمت ، ولا تزعزعه عواصف الطغاة مهما عتت ، ولا تغره وسائل الانحراف مهما تنوعت ، ولا تخضعه أساليب الخداع والمكر مهما تلونت ، لأنه يستلهم طاقته وقوته من ايمانه بعقيدته الحقة ، ويستوحى رشده وتقواه من كتاب ربه الذى يهدى للتى هى أقوم .
قال تعالى: ( ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ) فهو يهدى الى الأقوم فى عالم العقيدة وفى عالم العبادة ، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض الأفراد والجماعات والحكومات والشعوب ، ويقيم بينهم علاقات على أسس متينة ثابتة لا تتأثر بالرأى والهوى ، ولا تميل مع الحب أو القرابة ، ولا تصرفها الأغراض والمصالح ، متى عرف الناس هذا المنهج الفذ عاشوا فى سلام ووئام .

والله وحده هو الذى يصطفى من يشاء من خلقه لحمل هذه التبعة العظيمة والمهمة الجسيمة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد اختار سبحانه وتعالى أكرم خلقه عنده وأخلصهم له هم أولئك الرهط الكريم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وختمهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن النفوس الشريرة لم تستطع قبول اختيار الله لهذا الرسول الخاتم عليه صلوات الله وسلامه ، فاعترضت وخلطت بين الموازين الأرضية والقوانين السماوية ( وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) (٣) فالميزان عندهم هو الثراء والجاه

---

(١) الأنعام الآية ٣٨ .
(٢) هود الآيتان ١ ، ٢ .
(٣) الزخرف الآية ٣١ .

والرئاسة ، هذه هى القيم الجاهلية التى كان الجاهليون يعتزون بها ويفاخرون ويكاثرون وينافرون ، وهذا هو محل اعتراضهم على اختيار الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أما قوانين الله تعالى فهى لا تجعل لهذه الأمور وزنا ما لم تكن مرتبطة بالله ، ولعل الله سبحانه وتعالى حينما اختار محمدا صلى الله عليه وسلم المعروف فى بيئته بسمو الخلق قبل بعثته ، ولم يكن زعيم قبيلة ، ولا صاحب ثروة ، أراد سبحانه أن يبين للناس أن الميزة الكبرى لهذا الاصطفاء هى الخلق العظيم الذى اتصف به سيد المرسلين ، قال الأستاذ سيد قطب : " ولعله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج حقيقتها حتى لا تلتبس قيم هذه الأرض بالدعوة النازلة من السماء ، ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها فى شئ ، ولكى لا يدخلها طامع ، ولا يتنزه عنها متعفف " (١) .

لكن القوم الذين لم يدركوا حقيقة الرسالة وقيمتها راحوا يعترضون ذلك الاعتراض ، يقيسون الأمور بمقياسهم الأرضى القاصر ، فرد عليهم القرآن الكريم ردا مفحما مبينا لهم خطأ تصورهم ، وفساد مقياسهم ، موضحا أن هذه الرحمة انما يؤهل لها الله من يستحقونها ، يميزهم بصفات الكمال الانسانى ويربيهم تربية ربانية يستطيعون بها حمل الأمانة وابلاغها للناس .

يقول تعالى : ( أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ) (٢) .

اذا كانت أرزاقهم التى يلهثون خلفها ، ويركضون جهدا للحصول عليها نحن قسمناها بينهم فى الدنيا وميزنا بعضهم على بعض فى تفاوت الرزق

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٥ ص ٣٢٨ م ٧ بتصرف .

(٢) الزخرف الآية ٣٢ .

الملحوظ لحكمة منا ، هذه الحكمة هي : تسخير بعضهم لبعض لعمارة الأرض التي استخلفناهم فيها ، فما بالهم والرحمة التي هي خاصية يوهبها الله لمن يشاء من عباده ، ممن يعلم أنهم أهل لها ، ولا علاقة بينها وبين عرض الدنيا ولا صلة لها بالقيم التي تعارف عليها الناس من الثراء والجاه والزعامة فهذه عند الله زهيدة يشترك فيها الأبرار والفجار بينما يختص برحمته المختارين من خلقه ( يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم )(١) .

فالايمان بالرسل هو الاعتقاد الجازم أن الله سبحانه وتعالى بعث في كل أمة رسولا منهم يدلهم على الخير ويدعوهم اليه ويعرفهم بالشر ويحذرهم منه(٢) ، رحمة منه سبحانه وتعالى بعباده ( لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل )(٣) قال تعالى : ( وان من أمة الا خلا فيها نذير ) .

وختمهم بسيد الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام أرسله للناس كافة بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا ( وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا )(٤) ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون )(٥) .

## الايمان باليوم الآخر :

لا شك أن قضية اليوم الآخر وما يتعلق بها من حساب وجزاء وعقاب هي احدى القضايا الأساسية في عقيدة المسلم وهي احدى الدعائم التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد الوحدانية التي لا يقوم هذا الدين عقيدة وسلوكا ، شريعة ونظاما الا عليها ، وبها . هذا الدين هو منهج للحياة كامل في حقيقته

---

(١) آل عمران الآية ٧٤ .
(٢) فاطر الآية ٢٤ .
(٣) النساء الآية ١٦٥ .
(٤) سبأ الآية ٢٨ .
(٥) الصف الآية ٩ .

والآخرة

تام فى تكوينه ، فالعقائد والشرائع والعبادات تقوم كلها على قاعدة متينة راسخة من الايمان بالله وباليوم الآخر ، وقد قرن الله سبحانه وتعالى الايمان باليوم الآخر مع الايمان به تعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، قال تعالى : ( ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر )(١) . وفى حق من ينفق ماله رئاء الناس ، قال تعالى : ( كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر )(٢) وفى مدح بعض الأعراب قال تعالى : ( ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر )(٣) وعن القرآن قال تعالى : ( ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر )(٤) وأمر بقتال الكافرين ، قال تعالى : ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر )(٥) ومدح عباده المؤمنين الصادقين الذين لا ينتحلون الأعذار للتخلف عن الجهاد فى سبيله ، قال تعالى : ( لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر )(٦) وعرض بالمنافقين الذين يستأذنون فى التخلف قال تعالى : ( انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر )(٧) . ان الحياة فى الاسلام تشمل فترتى الدنيا والآخرة ، ومعلوم أن الحياة الآخرة هى الأبقى وهى الدائمة الأبدية وأن الحياة الدنيا ما هى بالنسبة الى الآخرة الا ساعة من نهار أو أقل من ذلك ، قال تعالى : ( بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى )(٨) ، وقال تعالى : ( وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون )(٩) " أى لهى دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها ، أو هى فى ذاتها حياة للمبالغة "(١٠) ،

---

( ١ ) البقرة الآية ٢٣٢ .
( ٢ ) نفس السورة الآية ٢٦٤ .
( ٣ ) التوبة الآية ٩٩ .
( ٤ ) الطلاق الآية ٢ .
( ٥ ) التوبة الآية ٢٩ .
( ٦ ) نفس السورة الآية ٤٤ .
( ٧ ) نفس السورة الآية ٤٥ .
( ٨ ) الأعلى الآية ١٧ .
( ٩ ) العنكبوت الآية ٦٤ .
( ١٠ ) تفسير " أبو السعود " ج ٤ ص ٣٤٦ .

والدار الآخرة ، من علم الغيب الذى لا يعلم حقيقته الا الله ، وليس لنا أن نتخيل أو نحاول أن نكشف ، أو نستطلع حقيقة ذلك لأنه مما استأثر الله علمه وليس لنا الا الوقوف عند النصوص فيما جاء فى صفات ذلك اليوم المشهود ٠

بهذا الفهم يجب أن يعيش الانسان على هذه الأرض ، وبالتالى سينشأ عن ذلك سعة فى النفس ، ورفعة فى المشاعر ينتج عنهما خلق وسلوك ، وبالاعتقاد فى عدل الجزاء فى الدار الآخرة وفى ضخامة العوض عما يفوت فى الحياة الدنيا تستعد النفس للبذل فى سبيل الحق والخير والصلاح الذى تعلم أنه من أمر الله ٠

أما أولئك الذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة بقولهم انها تدعو الى السلبية فى الحياة الدنيا والى اهمال هذه الحياة وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ، هؤلاء وأمثالهم تقول لهم على رسلكم ، أنتم أيها الناس لا تعرفون حقيقة العقيدة عن الآخرة فى الاسلام ، تصورتموها كما هى فى أذهانكم عند الكنيسة المنحرفة فذهبتم تخلطون ، وتقولون بما لا تعلمون ، فالدنيا فى نظر الاسلام مزرعة الآخرة ، والجهاد والسعى والعمل فى الدنيا انما هو لاصلاح الحياة الآخرة ، ورفع الظلم ، وكافة أنواع الشرور ، وتحقيق العدل والخير للناس جميعا ، كل ذلك زاد الآخرة ، فكيف يتصور فى عقيدة هذا شأنها أن يدع أهلها الحياة راكدة يشيع فيها الظلم والفساد ، وتنتشر فيها الشرور والآثام ، أو تتخلف فى الصلاح والعمران ، وهم يرجون الآخرة وينتظرون فيها الجزاء من الله ٠ والقرآن الكريم يحثهم على الاستبسال فى الجهاد والموت فى سبيل اعلاء كلمة الله ، يقول تعالى : ( ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون )(١) ٠ فالايمان بالآخرة أحد مقتضيات الايمان بالله ، فلا ملجأ من الله الا اليه ، ولا عاصم من قدره ، ولا مرد لقضائه ، ولا نجاة من عقابه الا برحمته وغفرانه ، والتصديق

---

(١) النساء الآية ١٠٤ ٠

بها شطر الايمان لأنه مقرون مع الايمان بالله كما أوردنا آنفا عددا من الآيات الدالة على ذلك وهذا التصديق له أثر حاسم في منهج الحياة شعورا وسلوكا ، لأن ميزان الحياة والقيم والأعمال عنده مضبوطة ، لذا كانت ضمن صفات المؤمنين ( والذين يصدقون بيوم الدين )(١) .

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : " المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء ، لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ، ويقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك — في الآخرة — فيضيف اليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها "(٢) .

والمؤمن يظل في خوف من الآخرة وحذر من أهوالها ، قال تعالى : ( أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه )(٣) انها صورة القلب الخائف الوجل الذي يذكر الله في السراء والضراء ويعيش حياته على هذه الأرض في حذر من الآخرة ، ورجاء الى رحمة الله وفضله .

والايمان بالآخرة نعمة يفيضها الله على القلب البشري وهو في ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية والسمو حيث يؤدي دورا عظيما في افاضة الطمأنينة على روح المؤمن ، ونفي القلق والسخط والقنوط عنه .

والاعتقاد بالآخرة حاجز دون الصراع المحموم على حطام الدنيا ، هذا الصراع الذي نشاهده اليوم تداس فيه القيم وتنتهك الحرمات بلا وازع من ضمير أو رادع من خلق أو حياء أو خجل .

ان القرآن الكريم يلمس القلب البشري لمسة قوية فيدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من مالكيه وأنه بدوره زائل عن هذا الملك ، قال تعالى : ( ثم

---

(١) المعارج الآية ٢٦ .
(٢) في ظلال القرآن ج ٢٩ م ٨ ص ٢٨٣ .
(٣) الزمر الآية ٩ .

جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١) ) انها أيام يقضيها الانسان متحنا مبتلى فى هذه الحياة محاسبا على ما كسبت يداه ( كل امرىء بما كسب رهين (٢) ) ان هذا الايمان الذى ينشئه القرآن الكريم فى القلب البشرى يثير فيه يقظة وتقوى تكونان صماما لأمته وللمجتمع الذى يعيش فيه ذلك أن كل متاع يتاح له وكل شىء يملكه يسخره فى مرضاة الله ، لأن شعوره بأن هذه الدار للابتلاء ( ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٣) ) وأنه مراقب من قبل الله ( لننظر كيف تعملون (٤) ) ، كل ذلك يجعله شديد التوقى ، شديد الحذر ، شديد الرغبة فى الاحسان ، وفى النجاة من الغرور والغفلة ، وفى هذا ضمان للفطرة السليمة من الانحراف .

والايمان باليوم الآخر ليس طريقا للثواب فى الحياة الآخرة فحسب انما هو الحافز على الخير فى الحياة الدنيا والحافز على أصلاحها ، وانمائها على أن يراعى أن هذا الاصلاح وذلك الانماء ليسا هدفا فى ذاتهما وانما هما وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالانسان الذى نفخ الله فيه من روحه وكرمه على كثير من خلقه ، ورفعه عن درك الحيوان ، وبالايمان بالآخرة على هذا الأساس يتبين لنا الفرق بين من يشعر أن حياته على الأرض هى كل ماله فى هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية انما هى وراء هذا الخير الظاهر المحدود ، وهذه الصفات ذات قيمة عظيمة فى الحياة الانسانية اذ كانت من صفات المؤمنين ، قال تعالى : ( وبالآخرة هم يوقنون (٥) ) واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة الانسان وتطلعه الى ما عند الله ، واستعلائه على حطام الدنيا ومراقبة الله فى السر والعلن ، والقليل والكثير والحقير والجليل ، ثم الوصول بالتالى الى درجة الاحسان حيث يكون الله تعالى مع المحسنين بالاعانة والنصر والتوفيق ، قال تعالى : ( ان الله مع الذين اتقوا والذين هم

---

(١) يونس الآية ١٤ .
(٢) الطور الآية ٢١ .
(٣) الملك الآية ٢ .
(٤) يونس الآية ١٤ .
(٥) البقرة الآية ٣ .

محسنون )(١) ، فهذه معية خاصة بمن ذكر ، وهم أيضا فى معية الله العامة التى تشمل جميع الخلق بالاحاطة التامة والعلم ، ونفوذ القدرة ، وكون الجميع فى قبضته جل وعلا ، قال تعالى : ( ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا )(٢) .

والايمان بالآخرة من شأنه أن يعلو بالانسان عن مرتبة الحيوان ، ويدفع عنه التشاؤم النفسى فهو ان لم يسعد فى الحاضرة — فيما يراه الناس سعادة — فى المال والبنين والصحة وأنواع النعم الظاهرة فهو مطمئن النفس لأنه يرجو فوق ذلك فى الآخرة وهو بشعوره هذا تغمره السعادة الحقيقية التى لا يحس بها أولئك الأثرياء الجبناء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أما المؤمن فأمره كله خير كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه حيث قال : " عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "(٣) انه حينما يشكر ينال جزاء الشكر عند ربه وهو مؤمن بهذا الجزاء المدخر عند الله يوم القيامة بالاضافة الى ما يعجل الله له به فى الدنيا مصداقا لقوله تعالى : ( لئن شكرتم لأزيدنكم )(٤) وهو حينما يصبر فانه يرجو أن يعوضه الله فى الحياة الخالدة خيرا مما أصابه أو فاته فى الدنيا ، ( انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب )(٥) .

والمؤمن يتربى فيه الوجدان والاحساس بالتبعة اذا آمن بالآخرة فلا يكون هملا ، ويسعد مهما يكن فى هذه الدنيا من قلة فى المال أو الجاه أو الصحة فهو يرجو ما عند الله ، ويجعله هذا الايمان فى عزة ، وبعد عن الذلة ، واطمئنان الى المستقبل ، ولقد كان العبيد والفقراء يقاومون السادة والأغنياء بمكة فى صدر الاسلام ، ويرضون بالعذاب ولا يبالون به لأنهم مؤمنون بما عند الله فى اليوم الآخر .

---

(١) النحل الآية ١٢٨ .
(٢) المجادلة الآية ٧ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد ج ٤ ص ٢٢٩٥ رقم ٦٤ .
(٤) ابراهيم الآية ٧ .
(٥) الزمر الآية ١٠ .

واليك عددا من الآيات القرآنية التى تتحدث عن الآخرة وأحوال النـاس فيها ومن المشاهد المتعددة المختلفة بها ، ولا يخفى ما فيها من ايقـــاظ للنفس ، وتربية للوجدان ، وتهذيب للسلوك ، وتقويم للأخلاق ، فقد جـاء من صفات المؤمنين الايمان بالآخرة فى كثير من آيات القرآن الكريم ، قال تعالى : ( وبالآخرة هم يوقنون )(١) ، وقوله تعالى : ( وهم بالآخرة هم يوقنون )(٢) ومثلهـا فى سورة لقمان ، وغيرها من الآيات التى تشير الى المؤمنين بالآخرة بأنهم الذين يوتيهم الله فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر وهم الذين كان سعيهم مشكـورا لأنهم أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها بايمان ، قال تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا )(٣) وأن الملائكة أولياؤهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ( نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة )(٤) .

أما أولئك المكذبون بالآخرة فقلوبهم منكرة وهم مستكبرون ( فالذين لا يؤمنـون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنـون انه لا يحب المستكبرين )(٥) وان الذين لا يؤمنون بالآخرة قد تنكبوا الصراط السوى فاستحقوا سوء العذاب يوم القيامة وهؤلاء لا يستريحون لذكر الله وحده لأنهـم لا يؤمنون بالآخرة وبما أعده الله لأوليائه الذاكرين المخلصين ، قال تعالـى : ( واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة )(٦) ولأنهم قد يئسوا من الآخرة فلا يؤملون بها ولا يرجونها كما يئس الكافر اذا مات ، قال تعالـى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخـــرة كما يئس الكفار من أصحاب القبـور )(٧) ذلك لأنهم زعموا أن هذه الحياة الدنيا هى وحدها الحياة وأن هلاكهم انما يأتى من قبل الدهر وهذا من قبيل الظـن

---

(١) البقرة الآية ٣ .
(٢) النمل الآية ٣ ولقمان الآية ٤ .
(٣) الاسراء الآية ١٩ .
(٤) فصلت الآية ٣١ .
(٥) النحل الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .
(٦) الزمر الآية ٤٥ .
(٧) الممتحنة الآية ١٣ .

والتخمين اذ ليس لهم علم بما يدعون ، قال تعالى : ( وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون )(١) لذلك يخبرنا تعالى عن حالهم فى الآخرة من حسرة على التفريط فى الدنيا وانهماكهم فى اللهو واللعب فيها ، ويصورهم وهم ينوؤن بحمل ثقيل من الذنوب والآثام ، قال تعالى : ( قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون )(٢) أى اعقلوا قبل أن يفوتكم الأوان وتصبحوا على مافعلتم نادمين ، وفى آية أخرى يخبر تعالى مقالة الكافرين عن الساعة ونكرانهم لها ويرد على مقالتهم مقسما بالرب سبحانه وتعالى وهو من أخص صفاته تعالى قال سبحانه : ( وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين )(٣) وفى آية أخرى قال تعالى : ( زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير )(٤) وفى آية ثالثة يأتى القرآن بأدلة محسوسة من نشأتهم الأولى ومراحل تكوينهم فى الأرحام ثم خروجهم منها الى هذه الأرض أطفالا لا يعلمون شيئا ثم مراحل نموهم الى أن يبلغوا مبلغ القوة والشدة ، ثم البعض يتوفى والبعض يطعن فى السن فيرد الى أرذل العمر بحيث ينسى كل ما علمه فلا يذكر شيئا ، ثم أدلة أخرى من هذه الأرض المشاهدة يقرنها بالأدلة السابقة لأن الانسان من تراب هذه الأرض فمنها أصله وعليها منشاؤه وفيها محياه واليها مرجعه حيث يثوى الى يوم يبعثون ، هذه الأرض الهامدة اليابسة الجافة اذا أنزل عليها الماء تخلخلت واضطرب بعض أجسامها لخروج النبات وانتفخت وزادت وأنبتت من

---

(١) الجاثية الآية ٢٤ .
(٢) الأنعام الآيتان ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سبأ الآية ٣ .
(٤) التغابن الآية ٧ .

كل زوج بهيج فأصبحت الأرض مخضرة بالنبات تملأ النفس انشراحا وبهجة ، وهل أبهج من ذلك بعد الهمود والموت ؟ ثم يقرر سبحانه وتعالى " بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، قال تعالى : ( يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور )(١) .

وبهذه الأدلة الناطقة بالأمر المألوف الميسور يقرر القرآن الكريم أن القادر على الانشاء قادر على الاعادة لأنه الحق سبحانه ووعده الحق وهو ذو القدرة المطلقة الكل في قبضته لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأن الساعة آتية لا محالة وأنه سبحانه كما هو قادر على الانشاء فهو قادر على اعادة الأرواح الى الأجساد ( انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون )(٢) .

والمشاهد المتعددة التي سنعرضها من خلال الآيات الكريمة عن البعث وأهواله لهي مشاهد تهز مشاعر الانسان وتزلزل وجدانه كيف لا وهو يسمع قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد )(٣) ينادي الله الناس جميعا

---

(١) الحج الآيات ٥ ـ ٧ .
(٢) يس الآية ٨٢ .
(٣) الحج الآيتان ١ ، ٢ .

الى التقوى ويخوفهم من الساعة وأهوالها ، ويصف لهم هول ذلك اليوم مبتدئا بالزلزلة التى تجعل الأرض دكا دكا والجبال هباء منبثا ثم يصف هول ذلك اليوم الذى ترتجف فيه القلوب ، وتزيغ منه الأبصار فتذهل كل مرضعة وتسقط كل حامل ، وكأن بالناس سكر وما هو بسكر وانما هو الرعب الشديد والخوف المروع والعذاب المهلك ذلك الهول الذى تنخلع له القلوب .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يحشر الناس حفاة عراة غرلا (١) فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض؟" قال : " والأمر أشد من أن يهمهم ذلك" وفى رواية " أن ينظر بعضهم الى بعض " (٢) انه لمشهد رهيب مخيف ( يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ) (٣) ، انها ترجف من خوف الله وتتفتت وتصير كثيبا ، كما تصير كالصوف المصبوغ بالحمرة لقوله تعالى ( وتكون الجبال كالعهن ) (٤) انه يوم يجعل الولدان شيبا من هول ما يشاهدونه فيه يوم تتصدع السماء من رعبه ، يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات ( يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ) (٥) يوم تنتثر فيه الكواكب وتفجر فيه البحار وتبعثر القبور ( يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ) ، يوم يبرق فيه البصر ويخسف فيه القمر ، ويجمع فيه الشمس والقمر (اذ السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجرت ، واذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ) (٦) هذه الآيات وغيرها فى القرآن الكريم كثير تصور هول ذلك اليوم حين تقوم الساعة وتنذر بدمار هذه الأرض وما عليها بل تنذر بتدمير الكون كله تندك الأرض وتنسف الجبال وتغور النجوم وتكور الشمس ويخسف القمر كل هذه الأهوال وغيرها تنذرك أيها الانسان ، ويلك يا مغرور ( يا أيها الانسان

---

(١) " غرلا " معناه غير مختونين جمع أغرل والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شىء معهم ولا يفقد منهم شىء حتى الغرلة .

(٢) صحيح البخارى ج ٦ ص ١٢٢ ، وصحيح مسلم ج ٤ص ٢١٩٤ رقم ٥٦ من كتاب الجنة .

(٣) المزمل الآية ١٤ .

(٤) المعارج الآية ٩ .

(٥) ابراهيم الآية ٤٨ .

(٦) الانفطار الآيات ١ — ٥ .

ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك) ان تكذيبك بهذا اليوم لا يستند الى دليل انما هى المكابرة الماحقة الخاسرة فالأدلة على وجوده أكثر من أن تحصر ، فاحمد الله الذى خلقك فى أحسن تقويم فلا ترجعن أسفل سافلين ، لا تنس أيها الغافل أنك ستأتى ربك يوم القيامة فردا عبدا ذليلا خاضعا كما سيأتى اليه كل من فى السموات والأرض بهذه الحالة ( ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (١) ) فلا مجال لهرب أحد ، ولا اعتزاز بنسب ولا جاه ولا مال كل واحد ينظر الى ما قدمت يداه من خير أو شر فلا صاحب ولا صديق ولا وزير ولا زوج ولا ولد ولا والد ولا أحد ينفع أحدا فى ذلك اليوم ، قال تعالى : ( فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء (٢) من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) .

فالساعة التى يغفل عنها كثير من الناس تأتى بغتة ، قال تعالى : ( يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم الا بغتة (٣) ) ووعد الله سبحانه وتعالى آت لا يتخلف انه لا يخلف الميعاد ، وقد وعد وأوعد وهذا الوعد والوعيد لا ريب فيهما ، ولستم أيها المغرورون بالدنيا المفتونون بحطامها بمعجزيه جل شأنه وعز سلطانه ( انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين (٤) ) ويعرض القرآن الكريم بعضا من أحوال هؤلاء المفتونين المغرورين حيث يقسمون أنهم ما لبثوا الا ساعة ( ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة (٥) ) وقال تعالى : ( ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٦) ) فسجل عليهم الخسران

---

(١) مريم الآيات ٩٣ — ٩٥ .
(٢) عبس الآيات ٣٣ — ٣٧ .
(٣) الأعراف الآية ١٨٧ .
(٤) الأنعام الآية ١٣٤ .
(٥) الروم الآية ٥٥ .
(٦) يونس الآية ٤٥ .

لتكذيبهم وعدم اهتدائهم ، وتهدد الخسارة فادحة لأولئك الذين كذبوا بلقاء الله ولم يؤمنوا بالآخرة حيث لم يستعدوا لها ، ثم يعرض القرآن حالهم وهم يتخافتون بينهم قائلين ( ان لبثتم الا عشرا )(١) ويقول آخر ( ان لبثتم الا يوما )(٢) وفي صورة أخرى يعرض القرآن أحوالهم عند خروجهم من القبور مسرعين في ذلة وانكسار ، قال تعالى : ( فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون )(٣) لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مقهورون صاغرون ، وفي صورة أخرى يقول تعالى : ( ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ) يعرضهم مشفقين من العذاب خائفين من الجزاء بسبب كسبهم السيء ، ويعرض صورتين متقابلتين لأحوال الناس في الحشر ، قال تعالى : ( يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون )(٤) هذه وجوه قد أظلمت من الكمد والحزن واسودت من الكآبة وهي وجوه الكفرة ، وتلك أخرى قد أضاءت بنور البشر وأشرقت وضاءة متلألئة هي وجوه المؤمنين ، ( وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) وهم المؤمنون ) ، ( ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة )(٥) وهم من قد عرفت وصورة أخرى للمكذبين بلقاء الله يعرضها القرآن وهم ينوؤون بالأعباء الثقيلة من الأوزار ، كأن ظهورهم قد تقوست من ثقلها ، قال تعالى : ( قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون )(٦) ، وقال تعالى : ( من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا )(٧) فمن أعرض عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما جاء به فانه يخلد في جزاء كفره

---

(١) طه الاية ١٠٣ .
(٢) نفس السورة الآية ١٠٤ .
(٣) المعارج الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .
(٤) آل عمران الايتان ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٥) عبس الايات ٣٨ — ٤٢ .
(٦) الأنعام الآية ٣١ .
(٧) طه الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ .

واعراضه وبئس الحمل ذلك الحمل من الأوزار "ألا ساء ما يزرون " .

ان هذا المشهد الرهيب لينطق بالخسارة الفادحة التى لحقت بأولئك المستكبرين الذين لم يؤمنوا بالآخرة والذين ضلوا وأضلوا غيرهم من أتباعهم فهم يحملون أوزارهم كاملة وأوزارا من أوزار الذين يضلونهم ، قال تعالى: ( الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، انه لا يحب المستكبرين ،واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون )(١) .

وفى الحديث " من سن سنة سيئة فعمل بها بعده ،فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم الدين "(٢) .

وصورة أخرى لبعض الناس فى الحشر وهم يساقون على وجوههم الى جهنم وهذا المشهد فيه من الاهانة والتحقير والانقلاب بما يقابل التعالى والاستكبار ، والاعراض عن الحق ، قال تعالى : ( الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا )(٣) وعن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أنشأه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة "(٤) ؟

ويعرض القرآن الكريم لتعدد المواقف وشدة الأهوال فيها يعرض صورة للمجرمين وهم ناكسوا الرؤوس يناجون الرب جل وعز طالبين ارجاعهم الى الحياة الدنيا ليعملوا الصالحات لأنهم قد أبصروا أو سمعوا وأيقنوا ،

---

(١) النحل الآية ٢٢ ـ ٢٥ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٤ كتاب العلم ص ٢٠٥٩ رقم ١٥ .
(٣) الفرقان الآية ٣٤ .
(٤) صحيح البخارى تفسير جـ ٦ ص ١٣٧ .

قال تعالى : ( ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون )(١) ويعرض صورة أخرى لهم فى موقف آخر من مواقف الحشر وهم فى صمت مطبق لا كلام فيه ولا اعتذار ولا جدال ، قال تعالى : ( هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون )(٢) فى هذه الحالة وهم يساقون الى النار لم يستطيعوا النطق لشدة الهول النفسى والرعب القلبى انه الموقف المهيب الذى يقال لهم فيه : ( انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب انها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ، ويل يومئذ للمكذبين(٣) ) والقرآن الكريم حينما يعرض هذه المواقف عن اليوم الآخر وما فيها من الأهوال الجسام انما يخاطب بها النفوس البشرية ، يخاطب الفطرة المركوزة فى النفوس فيهزها هزا شديدا علها تستيقظ من سباتها ، وتنتبه من غفلتها فتزيل عنها ما علق بها من ركام الأهواء والشهوات وما ران عليها من عوامل الانحراف المتعددة فتفيء الى رشدها وتتدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان ، فتعمر بالايمان ، فيحصل التنافس فى مجال تصفية النفوس وتهذيبها من شوائب الذنوب ، والاعراض عن المتاع الزائل — بمعنى أن لا يكون أكبرهم الانسان فى الدنيا هو تحقيق الرغبات والحصول على الملذات بل ما حصل من هذا المتاع يستعين به الانسان على عبادة مولاه — يكون التنافس فى الحصول على النعيم الذى يجزى الله به المتقين الأبرار فى دار القرار ، هذا التنافس المحمود الذى يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا الى درجة عالية من السمو الروحى ، وبالتالى تحصل ثمرته فى السلوك والمعاملات فى هذه الحياة القصيرة الفانية فتصلح الأرض وتعمر بالمتقين وتطهر من الفجرة والمفسدين ( وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ) والتنافس فى حطام الدنيا يجعل الانسان يسلك كل طريق من ظلم وجور وفجور فينحط بالمتنافسين جميعا لأن القوي يأكل الضعيف فيصاب الضعيف بالغبن والتوثب والحقد ويصيب القوي داء الشره والكبر والاستعلاء .

---

(١) السجدة الآية ١٢ .
(٢) المرسلات الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) نفس السورة الآيات ٢٩ — ٣٤ .

لذلك فالقرآن الكريم يوجه النفوس البشرية الى ما هو حقيق بها أن تتنافس فيه وهو النعيم المقيم الذى أعده الله للأبرار بقوله تعالى : ( ان الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نظرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك[1] ) هذا وصف لحال أولئك الأبرار فى دار القرار ، ثم حث الناس على التنافس فى الحصول على ذلك بالأعمال الصالحة فى الدنيا ، قال تعالى : ( وفى ذلك فليتنافس المتنافسون[2] ) .

ذلكم النعيم هو الأحق بالتنافس لا غيره من حطام الدنيا لأن متاع الدنيا محدود ، ومتاع الآخرة دائم مقيم ، وعمر الانسان فى هذه الأرض محدود ، والآخرة هى الأبقى ولا نهاية لها .

والانسان فى هذه الحياة كادح ناصب يكدح فى كسب قوته ، ويكدح فى أعمال مختلفة يجاهد نفسه فيها الى أن يأتيه الموت ، فأما المؤمن الذى أجهد نفسه فى مرضاة الله وعمل بمقتضى منهج الله الذى رسمه له فى هذه الحياة فسيلقى ربه لقاء الأبرار ويلقى جزاء عمله فيؤتى كتابه بيمينه ، ويفوز بعفو الله وينقلب الى أهله وعشيرته من المؤمنين فرحا مسرورا فى دار النعيم ، وأما الكافر الذى أضاع حياته فى طلب الدنيا والتنافس عليها وأنفق أمواله فى الملذات والشهوات والسرور الوقتى الزائل فانه سيلقى ربه أيضا ولكن لقاء المجرمين الفجار ويلقى جزاء عمله فيؤتى كتابه بشماله فيدعو بالثبور والهلاك ويصلى جهنم أى يدخلها وهى تسعر به مذموما مدحورا ، قال تعالى : ( يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا انه كان فى أهله مسرورا[3] ) ثم يعلل سبحانه وتعالى سبب سروره فى أهله فى الدنيا وانهماكه فى الملذات

---

(١) المطففين الآيات ٢٢ ــ ٢٦ .
(٢) نفس السورة الآية ٢٦ .
(٣) الانشقاق الآيات ٦ ــ ١٣ .

وانغماسه فى الشهوات لأنه ظن ألا يرجع الى ربه ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ، قال تعالى : ( انه ظن أن لن يحور • بلى ان ربه كان به بصيرا (١) ) أى بلى ليحورن وليبعثن لأنه تعالى عالم به وبأعماله لا يخفى عليه منها خافية •

وخلاصة القول أن البعث والحساب والجزاء والعقاب ليس أمرا ممكنا فحسب بل انه لا ريب فيه ، ذلك لأنه وعد الله ، كما أن الحكمة والانصاف تستلزمان وجوده لينال كل انسان جزاء ما قدمت يداه من خير أو شر ( فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢) ) ، ولولا ذلك ، لكان خلق الانسان عبثا والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، قال تعالى : ( أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون (٣) ) وهذا يعنى أن الصالح والطالح لا يستويان فى محياهما ومماتهما اذ أن العدل الالهى سيشمل الناس جميعا ، قال تعالى : ( أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون (٤) ) ، وقال تعالى ( أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون (٥) ) •

والايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر يستلزم منا الايمان بقدر الله وقضائه كما يستلزم منا العمل بمقتضى هذا الايمان طبقا لشرعه فى أوامره ونواهيه ، ان المؤمن يجب أن يكون لديه ذلك الايمان • وعليه مراعاة هذه الأوامر والنواهى وتطبيقها فى حياته ، والاخلاص فى العمل هو

---

(١) الانشقاق الآيتان ١٤، ١٥ •
(٢) الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ •
(٣) المؤمنون الآية ١١٥ •
(٤) الجاثية الآية ٢١ •
(٥) السجدة الآيات ١٨ — ٢٠ •

العمود الفقرى لحياتها ، اذ كل عمل لا يصاحبه الاخلاص فهو عمل ميت لا يستفيد منه الانسان شيئا ، لذلك يحث الله على الاخلاص فى كثير من آياته : قال تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ( انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص[1] ) . وقال تعالى : ( قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين[2] ) وقال تعالى: ( قل الله أعبد مخلصا له دينى[3] ) وطلب من عباده المؤمنين أن يدعوه باخلاص الدين له قال تعالى : ( وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين[4] ) وقال تعالى : ( فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون[5] ) وقال تعالى : ( هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين[6] ) ، والشيطان لا يتسلط على عباد الله المخلصين ، قال الله تعالى على لسان ابليس لعنه الله ( ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين[7] ) وقال تعالى : ( قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين[8] ) أسأل الله تعالى : أن يجعلنا من عباده المخلصين ، وأن لا يجعل للشيطان علينا سبيلا وأن يردنا اليه ردا جميلا .

## الايمان بالقدر :

والايمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الايمان الواردة فى حديث جبريل المشهور ، والقضاء والقدر عقيدة من عقائد الاسلام المبنية على أساس الايمان بالله تعالى ، هذه العقيدة التى تجعل الانسان يحس بأن كل ما يحدث فى الكون من خير وشر وعسر ويسر وفرح وحزن ، وخفض ورفع واحياء واماتة

---

( ١ ) الزمر الآيتان ٢ ، ٣ .
( ٢ ) نفس السورة الآية ١١ .
( ٣ ) نفس السورة الآية ١٤ .
( ٤ ) الأعراف الآية ٢٩ .
( ٥ ) غافر الآية ١٤ .
( ٦ ) نفس السورة الآية ٦٥ .
( ٧ ) الحجر الآية ٤٠ .
( ٨ ) ص الآية ٨٣ .

تتصرف فيه قدرة الله ويحيط به علم الله الواسع الشامل ( انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علماً )(١) وقوله تعالى : ( انا كل شئ خلقناه بقدر )(٢) وقوله تعالى : ( قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير )(٣) وقال تعالى : ( وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين )(٤) فكل ما هو كائن وما سيكون الى يوم القيامة مسطر فى ذلك الكتاب المبين ، ومن ذلك ما قدر للانسان من رزق ، وأجل ، وشقاوة أو سعادة كما جاء ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد "(٥) فالايمان بهذه الأمور واجب اذ فرغ منها ولا اختيار للانسان فيها ، ولا يستطيع أحد تغييرها بتقديم أو تأخير أو زيادة أو نقص . كما جاء فى حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف "(٦) . وبهذه العقيدة الصحيحة فى قضاء الله وقدره المستندة على الأدلة الشرعية يندفع المؤمن للعمل فى سبيل مرضاة ربه مجاهدا فى سبيله . يقول الحق ، ولا يبالى بأحد ، لا يخاف فى الله لومة لائم لايمانه الجازم بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وبهذا الايمان انطلق سلف الأمة الاسلامية يفتحون البلدان

---

(١) طه الآية ٩٨ .
(٢) القمر الآية ٤٩ .
(٣) آل عمران الآية ٢٦ .
(٤) يونس الآية ٦١ .
(٥) صحيح مسلم كتاب القدر ج ٤ ص ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣ .
(٦) الترمذى فى جامعه وقال حديث حسن صحيح ج ٨ ص ٢١٣ .

وينشرون القرآن في ربوع الأمم ، من عرب وعجم لمعرفتهم أن الاقدام لا يخرم من عمرهم المحدود شيئا ، وأن التواني والاحجام لا يزيد في عمرهم المحدود شيئا . وبذلك فتحوا البلاد ، وهدوا العباد الى رب العباد ، وحرروهم من عبادة العباد ، فكان ايمانهم بالقضاء والقدر دافعا لهم الى العمل المثمر في نشر دين الله ، والاستعداد لأعداء الله عملا بقول الله تعالى : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم[1] ) وبقوله تعالى : ( وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[2] ) .

... ... ...

---

(١) الأنفال الآية ٦٠ .
(٢) التوبة الآية ١٠٥ .

## الفصل الثاني

### العبـــادة

وهى فى اللغة الانقياد والخضوع والتذلل [1] ، وفى القاموس العبدية والعبودية والعبادة الطاعة [2] . وكل هذه الألفاظ متقاربة المعانى .

وهى فى الشرع الخضوع والطاعة . وقد استعملها القرآن الكريم بهـذا المعنى ــ أى الخضوع والطاعة ــ قال تعالى : ( وتلك نعمة تمنها علـى أن عبدت بنى اسرائيل ) [3] أى قهرتهم وغلبتهم واتخذتهم عبيدا . وقال تعالى ( وقومهما لنا عابدون [4] ) أى مطيعون متذللون ، واستعملها القرآن الكريـم بمعنى الخضوع والتأله ، قال تعالى : ( اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنـى [5] ) وقال سبحانه ( ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكـل عليـه [6] ) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " العبادة أصل معناها الـذل يقال طريق معبد اذا كان مذللا قد وطئته الأقدام . لكن العبادة المأمـور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغايـة المحبة له . ومن خضع لانسان مع بغضه له لايكون عابدا له ، ولو أحب شيئـا ولم يخضع له لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهـذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله أحب الى العبـد

---

(١) المصباح المنير .
(٢) لسان العرب والقاموس المحيط .
(٣) الشعراء الآية ٢٢ .
(٤) المؤمنون الآية ٤٧ .
(٥) طه الآية ١٤ .
(٦) هود الآية ١٢٣ .

من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام الا الله " (١) .

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

فالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وآداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والاحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل وغيرهم ، والدعاء والذكر ، وقراءة القرآن ، كل ذلك وأمثاله يطلق عليه اسم العبادة . " أنت عبد والله معبودك فكل ما يأتى به العبد فى طاعة معبوده ، هو العبادة " (٢) .

واذا تعاطيت التجارة أو الصناعة أو اشتغلت بالخدمة المدنية أو العسكرية وأديت ما عليك من الواجب بأمانة وصدق ابتغاء وجه الله واكتسبت الحلال واجتنبت الحرام كان ذلك كله طاعة لله وعبادة له وخوفك من الله ورغبتك اليه وامتثال ما أمرك به واجتناب ما نهاك عنه ، ورفضك لكل مصلحة تنالها بمعصية الله كل ذلك عبادة لله تعالى ، وأكلك وشربك ونومك ويقظتك وقعودك وقيامك ونطقك وصمتك وأنت على تلك الحال فى عبادة لمولاك جل وعز ، والعبادة هى الباب التى تلج منه النفس الانسانية الى السعادة وهى الطريق الى مناجاة الله ، والتعرف اليه فى الرخاء والالتجاء اليه فى الشدة ، فالقلب البشرى دائم الشعور بالحاجة الى الله ، ولا يملأ فراغه شيء فى الوجود سوى حسن الصلة بخالقه ومدبره ، قال ابن القيم رحمه الله : " انه لا شيء أحب الى القلوب من خالقها وفاطرها فهو الهها ومعبودها ووليها ومولاها وربها ومدبرها ، ورازقها ، ومميتها ومحييها ، فمحبته

---

(١) رسالة العبودية ص ٤٤ .
(٢) مبادئ الاسلام للمودودى ص ١١٠ .

نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون وعمارة الأرض "(١) . لذلك كله فقد جاء القرآن بمجموعة من العبادات المفروضة التى تهيىء الانسان وتربيه حتى يصبح عبدا حقيقيا لله فى جميع أحواله وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم دعائم الاسلام . بمعنى أنه لا يصح للانسان أن يدعى الاسلام مالم يلتزم بأداء هذه الدعائم على الوجه الذى أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة المشرفة ، وهى بعد الشهادتين على الترتيب التالى :

١ — الصلاة :

الصلاة من أهم العبادات التى فرضها الله على الانسان فى هذه الحياة تشتمل على قراءة القرآن وعلى القيام والقعود ، والركوع والسجود والدعاء والذكر وتعظيم الرب سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم فرضت على الانسان لتذكره بربه ويستعين بها على تخفيف ما يلقاه من أنواع المشقة والابتلاء فى الحياة الدنيا ( واستعينوا بالصبر والصلاة )(٢) كما تنهاه عن عمل الفواحش وفعل المنكرات ، ( ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر )(٣) وبذلك كانت الصلاة صلة بين العبد وربه ، وهى الركن الثانى من أركان الاسلام . قال المودوى حفظه الله : ( وما الصلاة فى حقيقة الأمر الا أن تعيد بلسانك وأعمالك خمس مرات فى الليل والنهار ذكر ما قد آمنت به "(٤)

وتكرارها خمس مرات فى اليوم والليلة ليظل الانسان مرتبطا بربه على الدوام وثيق الصلة بخالقه فى كل حين فيتطهر فيها الانسان من أدران الذنوب . ويستيقظ من الغفلة عن علام الغيوب ، فكلما شغل الانسان بعمل من أعمال

---

( ١ ) اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ١٩٧ .
( ٢ ) البقرة الآية ٤٥ .
( ٣ ) العنكبوت الآية ٤٥ .
( ٤ ) مبادىء الاسلام ص ١١٢ .

الدنيا ، سمع المؤذن ينادى " الله أكبر " فالله أكبر من كل شيء ، أكبر من كل مصلحة بل أكبر من السموات والأرض وما بينهما ومن فيهما ثم يسمعه ينادى " حى على الصلاة " " حى على الفلاح " أن هلم الى ذكر الله ، وجدد صلتك بخالقك كي لا تكون من الغافلين ، وبهذا التكرار يشعر الانسان بصفاء فى النفس ، وسمو فى الروح ، كيف لا يكون كذلك وقد محا الله عنه الخطايا بهذه الصلوات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فهل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا "(١) ومعلوم أنه لا يمر على الانسان يوم من أيام حياته الا ويتعرض فيه لخطايا وآثام فى الغالب — ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد عصمهم الله تعالى من الآثام — ومع هذه الخطايا التى تحصل من الانسان فقد شمله الله بواسع رحمته فجعل الصلاة تمحو الخطيئات اذا أداها الانسان على الوجه الذى أراده الله من طهارة وخشوع ، ويكون لها من الثمار العظيمة النافعة للانسان فى حياته ومعاده ما لو استقصيناه لطال ذكره ، فهى تذكر بالعقيدة ، فتصفو نفسه وتصلح أخلاقه وسلوكه مع الناس فحينما ينتهى من أداء فرض من فروض الصلاة يقوم بعمل من الأعمال المرتبطة بشئون المعاش ، وخوف الله قد ملأ جوانحه ، وملك عليه أمره ، فيؤدى العمل على الوجه الذى يرضى ربه ، فان كان تاجرا فلن يغش فى تجارته ولن يرابى فى أمواله ، ولن يطفف كيله ، لأنه يتذكر رقابة الله له الذى كان واقفا بين يديه الذى لا تخفى عليه خافية من أمره ، وان كان موظفا — فى الخدمة المدنية أو العسكرية فانه سيقوم بواجبه ، ولن يهضم أحدا حقه ، ولن يقدم قريبا أو محسوبا ، ولن يرتشى رشوة وسيكون كلامه للناس حسنا عملا بقول الله تعالى : ( وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة )(٢) وان كان عاملا أو صانعا فسوف

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخارى ج ١ ص ١٤١ ، وصحيح مسلم ج ١ ص ٤٦٣ .
(٢) البقرة الآية ٨٣ .

يؤدى عمله ويتقن صنعته ولن يغش فيها امتثالا لتحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " من غشنا فليس منا "[1] ثم أداء الصلاة فى جماعة ، وأداء صلاة الجمعة كل أسبوع جماعة أيضا على الوجه الخاص بها كل ذلك ينشىء المحبة ، ووحدة الاخاء بين المسلمين ، ويجعل منهم قوة متكاملة متراصة كالبنيان أوكالبنيان يشد بعضه بعضا كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا "[2] والجماعة فيها معنى سام عظيم فهى تدريب على الطاعة والاجتماع على أمير واحد يختار من خيرتهم " يؤمكم أقرؤكم لكتاب الله "[3] وهى تربية على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات ، وهى عنوان المساواة ، فالغنى والفقير والكبير والصغير ، والشريف والوضيع والأمير والمأمور والراعى والرعية كلهم أمام الله سواء صفوفهم فى الصلاة كصفوفهم فى الجهاد ( " كأنهم بنيان مرصوص )[4] ، ومن نتائج ذلك يحصل التراحم والمساواة بين المسلمين .

اذا فالصلاة فيها من التربية والتهذيب للنفس البشرية ما قد علمت ، وفيها من الخير ما لا يستطيع أحد أن يجده الا من باشر التطبيق العملى عن ايمان كامل بوجوبها ، ويقين صادق بما أعده الله للمصلين من الثواب وقبل ذلك أن يبتغى بها وجه الله تعالى ، وحينئذ يجد الانسان حلاوة السعادة تغمر قلبه ، والطمأنينة تجلل نفسه كما يحس بقوة روحية تعينه على نوائب الدهر ومتاعب الحياة ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين )[5] " وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة "[6] وهى تمد المؤمن بالحيوية والنشاط فيتغلب على المشاكل وينتصر على الاضطراب النفسى الذى يحدث للانسان عند حدوثها .

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ .
(٢) البخارى فى صحيحه ج ١ ص ١٢٩ ، صحيح مسلم ج ٤ كتاب البر ص ١٩٩٩ رقم ٦٥ .
(٣) صحيح البخارى ج ١ ص ١٧٨
(٤) الصف الآية ٤ .
(٥) البقرة الآية ١٥٣ .
(٦) مسند أحمد ج ١ ص ٣٠٦ .

يقول الدكتور " الكسيس كاريل " لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت الى يومنا هذا ، وقد رأيت بوصفى طبيبا كثيرا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يده عجزا وتسليما ، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم ،" ان الصلاة كمعدن الراديوم " مصدر للاشعاع ، ومولد للنشاط ، وبالصلاة يسعى الناس الى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها . اننا نربط أنفسنا حين نصلى بالقوة العظمى التى تهيمن على الكون ، ونسألها ضارعة أن تمنحنا قبسا منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل ان الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحدا ضرع الى الله مرة الا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج "(١).

أقول : والصلاة لا تكون كذلك الا اذا أديت على الوجه التام الكامل وأهم جانب فى كمالها هو الخشوع ، ومبناه استحضار عظمة الله عز وجل ، وتدبر معانى ما يقرؤه المصلى وما يقوله فى ركوعه وسجوده من التسبيح والتحميد والابتهال ، والخضوع لأمر القرآن ونهيه ، والوقوف عند وعده ووعيده ، قال تعالى : ( قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون )(٢) قال الفخر الرازى : " الخشوع فى الصلاة هو جمع الهمة لها ، والاعراض عما سواها ، وهذا الخشوع هو وسيلة لتنمية ملكة حصر الذهن ، وطرد الأفكار الدنيوية ، واذا تعود الانسان ذلك نمت عنده هذه الملكة فى شئون حياته فأصبح له قدرة على الاجادة والابداع "(٣).

أقول : وفى الصلاة تربية للنفس الانسانية على الشجاعة ، لأنه حينما يقول " الله أكبر " يكون قد عرف مكان المخلوقين مهما علت منزلتهم فى الدنيا فلن يذل لأحد من المتكبرين لأن الله أكبر من كل شئ وذكره على لسانه وقلبه أكبر من كل شئ فى الوجود ، ( ولذكر الله أكبر )(٤) ، والصلاة طهارة للنفس

---

( ١ ) كتاب دع القلق وابدأ الحياة (( ديدل كارينجى )) ص ٢٩٩ ط ٢ .
( ٢ ) المؤمنون الآيتان : ١ ، ٢ .
( ٣ ) الفخر الرازى ج ٦ ص
( ٤ ) العنكبوت الآية : ٤٥ .

وتهذيب للخلق ، وتقويم للسلوك لأن المصلى حينما يقف بين يدى ربه فى صلاته مستحضرا عظمته داعيا مبتهلا رغبا ورهبا فى خشوع وتذلل وانكسار فانه يجد برد اليقين وحلاوة الايمان فترتدع نفسه عن الشهوات ، وتبتعد عن المنكرات ويستقيم سلوكه وتحسن معاملته لغيره ( ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون[(١)] ) .

والخلاصة ان الصلاة هى طريق الفوز والنجاة والفلاح ، قال تعالى[(٢)] : ( يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا وأعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ) .

## ٢ ـ الصوم :

الصوم لغة الامساك والكف عن الشىء[(٣)] ، قال النابغة الذبيانى :

خيل صيام وخيل غير صائمة ∴ تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

يعبر بالصوم عن الخيل الذى لا يطعم شيئا ، وهو الامساك عن الكلام أيضا ، قال تعالى : ( انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا[(٤)] ) .

وهو فى الشرع ؛ ترك الطعام والشراب والنكاح من طلوع الفجر الى غروب الشمس ابتغاء مرضاة الله تعالى .

والصوم عبادة قديمة وردت فى الأديان السابقة فالانجيل والتوراة تذكران الصوم وقد جاء فى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك ، قال تعالى[(٥)] : ( يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ) .

---

(١) العنكبوت الآية ٤٥ .
(٢) الحج الآية ٧٧ .
(٣) لسان العرب ج ١٢ ص ٥٤ .
(٤) مريم الآية ٢٦ .
(٥) البقرة الآية ١٨٣ .

وقال صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به "(١) قال أبو عبيد : "انما خص الله تعالى الصوم بأنه له وهو يجزى به ، وان كانت أعمال البر كلها له وهو يجزى بها ، لأن الصوم ليس يظهر من ابن آدم بلسان ولا فعل فتكتبه الحفظة انما هو نية فى القلب ، وامساك عن حركة المطعم والمشرب "(٢).

والصوم فى القرآن الكريم كتبه الله على المسلمين شهرا محدودا فى السنة هو شهر رمضان وأنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان قال تعالى : ( شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه )(٣) وهو أحد أركان الاسلام الخمسة التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان"(٤).

ونحن فى هذا المبحث لن نتعرض لأحكام الصوم وشروطه وآدابه ومفطراته لأن ذلك ليس من بحثنا وحسبنا أن نتكلم عن أثر الصوم فى تربية النفس الانسانية ، فنقول :

لا يخفى أن هدف الصوم الحقيقى هو التقوى لقوله تعالى ( لعلكم تتقون ) والتقوى هى الخوف من الله والعمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والاستعداد للآخرة ، فمن أصاب التقوى فى صومه جاءته بعد ذلك كل الثمرات المرجوة ذلك أن الانسان الذى كرمه الله تعالى على سائر مخلوقاته وجمع له بين السيادة على الأرض والعبودية لخالق هذا الكون كله بهذا النوع من العبادة فهو يتلقى أوامر ربه ويلقيها على جميع جوارحه فان اطاعته هذه الجوارح وخضعت فقد نال

---

(١) رواه مسلم ج ٢ كتاب الصوم ص ٨٠٧ رقم الحديث ١٦٣ .
(٢) لسان العرب ج ١٢ ص ٥٣ .
(٣) البقرة الآية ١٨٥ .
(٤) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم ج ١ ، كتاب الايمان ص ٤٥ رقم الحديث ٢١ .

صفة التقوى ، وهى فى الحقيقة هدف مشترك بين جميع العبادات غير أن للصوم أثرا أوسع وأعم فى تحصيلها ، ومنزلة الصيام هى أسمى مراتب التقوى ، وأكرمها عند الله لأنها أقرب الأعمال الى الخلوص من شوائب الرياء ، ولذلك كان الجزاء عليه لا يدخل تحت حصر " كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به "(١) ، ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى : ( انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب )(٢) .

فبالصوم يملك الانسان زمام غضبه ويكبح جماح شهوته ، انه تدريب على الهيمنة على النفس وقيادتها ، وضبط زمامها ، وكفها عن أهوائها ونزواتها .

وبالصوم يحصل التدريب على الصبر فأنت حينما تصبر اليوم طائعا مختارا فى وقت الأمن والرخاء لأنت غدا أقدر على الصبر والمصابرة فى البأساء والضراء وحين البأس ، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك ، لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدا على عدوك وتلك عاقبة التقوى التى يوجهك اليها الصيام . وبهذه التصفية للنفس من أكدارها وكبح جماح شهوة النفس والتدريب على الصبر يكون قد تحقق الهدف الأول من أهداف الصوم ، وهو التخلية ، يأتى على أثره الهدف الثانى وهو انطلاق الروح من عقالها بالتسبيح والتحميد والتكبير والشكر والدعاء والتضرع ، يؤيد هذا القول ما جاء فى الآيات التالية لآية الصيام ، قال تعالى : ( ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ، واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون )(٣) . ثم بالتراحم والتعاطف والتساند بين المسلمين فيعطف غنيهم على فقيرهم ويرحم قويهم ضعيفهم ، ويسند بعضهم

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .
(٢) الزمر الآية ١٠ .
(٣) البقرة الآيتان ١٨٥، ١٨٦ .

بعضا بالتعاون فيما بينهم على البر والتقوى ، وهذا مظهر من مظاهر وحدة الجماعة التي يدعو اليها الاسلام ، بقوله تعالى : ( واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا )(١) هذا المظهر يتجلى أيضا في المساواة انهم يصومون معا ويفطرون معا دون امتياز لأحد .

وبالصوم تحصل التربية على قوة الارادة والتدريب على مغالبة الشهوة والانتصار عليها ، وليس قضاء عليها . كما تحصل التربية للضمير فتحصل مراقبة الله في كل تصرفات الانسان فتصبح الأمانة في كل أموره وأحواله شعارا له " وهذه الدعامة الكبرى وغيرها من دعائم الاسلام " جعل الله كل واحدة منها دعامة ذات شعبتين شعبة تربط الانسان بربه وشعبة تربطه باخوانه المؤمنين ، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعا لمحبتين لا يكمل الايمان الا بهما مجتمعتين : المحبة لله ، والمحبة في الله "(٢) .

ويمكننا اجمال القول في أثر الصوم في التربية في النقاط التالية :

١ — الصوم حافز على التقوى : لأنه يقي النفس من المعاصي ، ومدرسة يتعلم فيها الانسان سمو الروح وصفاء النفس ولذة المناجاة .

٢ — الصوم يقوى الجانب الروحي في الانسان : اذ لا يخفى أن الانسان مركب من جسد وروح ، والجسد له مطالبه من أكل وشرب وشهوة ، والروح لها مطالبها من عبادة وتدبر وتأمل في ملكوت السموات والأرض فبالصوم تصفو النفس فتنطلق الروح محلقة في عليائها مشتاقة للقاء ربها سابحة في التدبر في آيات الله من حولها منتشية بعبادة مولاها ومالك أمرها .

أما أولئك الذين حرموا لذة العبادة واخضعوا أشواق الروح لمطالب الجسد فقد حكموا غرائزهم في عقولهم وطلبوا الروح في خدمة أجسامهم ولم يعلموا أن في ذلك الخسران المبين .

---

(١) آل عمران الآية ١٠٣ .
(٢) نظرات في الاسلام للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٥٢ .

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

ولو علموا أن هذا الجسد ما هو الا مطية للروح وأحرى بالمطية أن تكون لمنفعة الراكب لو علموا ذلك لما انهمكوا فى الملذات الجسمية وتركوا ما فيه سعادتهم الحقيقية فى الدنيا والآخرة وهو العناية بالجانب النفسى وتزكيته الذى يترتب عليه النجاح والفلاح ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها )(١) .

ومن وسائل تقوية الجانب الروحى : الدعاء لأنه مخ العبادة كما جاء فى الحديث الشريف ، وقد عقب الله تعالى على آيات الصيام بقوله : ( واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون(٢) ) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر ، والامام العادل ، ودعوة المظلوم "(٣) .

٣ — الصوم تدريب على قوة الارادة وهو الوسيلة الفعالة لتحقيق سلطان الروح على الجسد اذ بما فيه من صبر وفطام للنفس ومغالبة للشهوات وانتصار عليها تحصل العفة والطهارة النفسية كما أنه يربى المؤمن على الصبر والمجاهدة والمرابطة وتنمو هذه الصفات لديه بحيث يصبح لا يبالى بالشدائد ولا بما يلاقيه فى حياته من خشونة وشظف فى العيش ، بل يرحب بالشدائد ما دام ذلك فى سبيل الله .

---

(١) الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٢) البقرة الآية ١٨٦ .
(٣) رواه ابن ماجه — كتاب الصيام ج ١ ص ٥٥٧ .

٤ - الصوم يذكر الانسان بنعم الله عليه : مما لاشك فيه أن النعم اذا توالت وتكاثرت على الانسان وألفها وطال أنسه بها ربما ينسى شكر الله عليهما بل ربما نسى قيمتها وأهميتها لطول تعوده عليها ، قال تعالى : ( واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه )(١) ، وقال تعالى : ( وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون )(٢) .

ونعم الله على الانسان كثيرة ولا تعرف عند بعض الناس الا بفقدها ، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرف قدرها الا المرضى ، والمال لا يدرك قيمته الا المحتاج اليه ، والشبع والرى لا تدرك أهميتهما الا عند الجوع والعطش ، لذلك شرع الله تعالى الصيام ليذكر الانسان بنعمه عليه فيشكره ويعرف قيمة النعم التى من بها عليه سبحانه وتعالى فيصرفها فيما أمره الله ولا يتعدى بها فيما حرم الله ولا يبطر فيسرف ( كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين )(٣) .

٥ - الصوم يدفع النفس الانسانية الى مساعدة المحتاجين : ذلك أن الغنى حينما يشعر بألم الجوع ومرارة الحرمان فانه يتذكر اخوانه من المؤمنين الذين ضاقت بهم سبل العيش ، أولئك الذين يبيتون على الطوى وأولادهم يتضاغون من شدة الفاقة يتذكرهم فيندفع لمساعدتهم فيطعم الجائع ويكسو العارى ويمسح مرارة الآلام من النفوس وبذلك يحصل التعاون بين المسلمين ، المراد من قوله تعالى : ( وتعاونوا على البر والتقوى )(٤) والمراد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه )(٥) .

---

(١) فصلت الآية ٥١ .
(٢) يوسف الآية ١٠٥ .
(٣) الأعراف الآية ٣١ .
(٤) المائدة الآية ٢ .
(٥) البخارى ومسلم واللفظ لمسلم ، كتاب الذكر ، رقم الحديث ٣٨ ج ٤ ص ٢٠٧٤ .

فتحصل بذلك المحبة والتآلف بين المسلمين فيكونون كالبنان أوكالبنيان يشد بعضه بعضا . وحاصل القول أن الصوم فى الاسلام تهذيب للنفس الانسانية شرعه الله ايقاظا للروح وتقوية للارادة وتعويدا على الصبر ، وتعريفا بالنعمة وتربية لمشاعر الرحمة وتدريبا على كمال التسليم لله رب العالمين وهو صون لجميع الجوارح من اللهو والعبث فلا لغو ولا رفث ولا جهل ولا سباب ولا سماع للغو أو باطل ولا نظر الى حرام ، ولا عزم على خطيئة أو اثم ولا سعى ولا كسب إلا فى ما أحل الله وفيما يرضى الله ، هذا هو حال الصائمين فى الاسلام غمرت السكينة نفوسهم ، وملأ الحلم والصبر قلوبهم ، وفاضت الرحمة بين جوانحهم وشاعت فيما بينهم . هذه هى آثار الصوم الذى يعد الصائمين للتقوى كما أمر القرآن الكريم فيخرجون من مدرسة الثلاثين يوما مطهرين مغفورى الذنوب ، قال عليه الصلاة والسلام " ويغفر لهم آخر ليلة "(١) علاوة على ما يدخره الله لهم عنده من الجزاء لقوله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : (كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به)"(٢) .

٣ — الزكـاة :

الزكاة هى عبادة مالية اجتماعية هامة ، وهى فى اللغة النماء والبركة والطهارة والمدح(٣) ، وهى فى الشرع تطلق على الحصة المقدرة فى المال التى فرضها الله للمستحقين . " وسميت هذه الحصة المخرجة من المال زكاة لأنها تزيد فى المال الذى أخرجت منه وتوفره فى المعنى وتقيه الآفات "(٤) .

قال ابن تيمية رحمه الله : " نفس المتصدق تزكو ، وماله يزكو ، يطهر ويزيد فى المعنى "(٥) .

---

(١) مسند أحمد ج ٢ ص ٢٩٢ .
(٢) البخارى ج ٣ ص ٣١ ومسلم واللفظ له ، رقم الحديث ١٦٣ من كتاب الصيام ج ٢ ص ٨٠٧ .
(٣) لسان العرب والمعجم الوسيط ج ١ ص ٣٩٨ .
(٤) المجموع شرح المهذب ج ٥ ص ٢٩١ .
(٥) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ٢٥ ص ٨ .

قال تعالى : ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها )(١) والمراد بها الزكاة ، قال الماوردى " الصدقة زكاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى(٢) ، وقال تعالى : " ومنهم من يلمزك فى الصدقات "(٣) وقال تعالى: ( انما الصدقات للفقراء والمساكين(٤) ... الآية ، وفى الحديث " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق صدقة "(٥) وفى حديث ابن عباس حينما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا الى اليمن قال له : وأعلمهم أن الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم(٦) " .

وفى تسمية الزكاة صدقة يقول القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله(*) : "وذلك مأخوذ من الصدق فى مساواة الفعل للقول والاعتقاد ، وبناء أصدق ، يرجع الى تحقيق شئ بشئ وعضده به ، ومنه صداق المرأة ، أى تحقيق الحل وتصديقه بايجاب المال والنكاح على وجه مشروع .

ويختلف فى ذلك كله بتصرف الفعل ، ومشابهة الصدق هاهنا للصدقة أن من أيقن من دينه أن البعث حق ، وأن الدار الآخرة هى المصير وأن هذه

---

(١) التوبة الآية ١٠٣ .
(٢) الأحكام السلطانية الباب الحادى عشر ولاية الصدقات .
(٣) التوبة الآية ٥٨ .
(٤) نفس السورة الآية ٦٠ .
(٥) رواه الشيخان وغيرهما . صحيح البخارى ج ٢ص ١٤٤ وصحيح مسلم ج ٢ص ٦٧٤ .
(٦) صحيح البخارى ج ٢ص ١٣٠ وغيره .
(*) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الاشبيلى المالكى ، أبو بكر ابن العربى قاض من حفاظ الحديث ولد فى اشبيليه ورحل الى المشرق ، وبرع فى الأدب ، وبلغ رتبة الاجتهاد فى علوم الدين ، وصنف كتبا فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، من أهم كتبه أحكام القرآن ، وعارضة الأحوذى فى شرح الترمذى ، والانصاف فى مسائل الخلاف عشرون مجلد ، والمحصول فى أصول الفقه وغيرها ، ولد سنة ٤٦٨ هـ وتوفى بقرب فاس سنة ٥٤٣ هـ ، الأعلام ج ٧ ص ١٠٦ .

الدار الدانية قنطرة الى الأخرى ، ومآب الى السوأى أو الحسنى عمل لها ، وقدم ما يجده فيها ، فان شك فيها أو تكاسل عنها وآثر عليها — بخل بما لديه ، واستعد لآماله ، وغفل عن مآله(١) " .

فرضها الله تعالى لتطهير النفوس البشرية من أمراض الشح والبخل " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " ففيها تزكية ، والتزكية هي السمو والرفعة سمو في النفس ورفعة عن الشهوات ، وبهذا يتهذب السلوك الانساني. قال البيضاوي رحمه الله : في قوله تعالى : ( وتزكيهم بها ) وتنمي بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين(٢) " ، والاخلاص أسمى أخلاق النفس البشرية ، وأن نتيجة اخراج الزكاة وثيق الصلة بتزكية النفس التي من أجلها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة(٣) ) ، وتلك التزكية هي مهمة المرسلين جميعا فمن ذلك أن نبي الله موسى عليه السلام يقول لفرعون ما يحكي الله تعالى عنه ( هل لك الى أن تزكى(٤) ) والتزكية هي طريق الفلاح ( قد أفلح من زكاها(٥) ) لهذا تجب مجاهدة النفس حتى تستقيم وتحصل لها الهداية والتزكية ، قال تعالى : ( والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(٦) ) وقال تعالى : ( ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه(٧) ) والمال حبيب الى النفوس ، وجهاد النفس في الزهد فيه والانفاق منه من أهم أنواع الجهاد ، وهو في كثير من آيات الله مقدم على الولد وحتى على النفس وما ذلك الا لتعلق النفوس البشرية به واهتمامها بتحصيله ، قال تعالى : ( المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا(٨) ) ، وقال تعالى : ( انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم(٩) ) ، وقال تعالى : ( انما المؤمنون

---

(١) أحكام القرآن جـ ٢ ص ٩٥٨ .
(٢) أنوار التنزيل جـ ١ ص ٢٠٨ ط الحلبي .
(٣) آل عمران الآية ١٦٤ .
(٤) النازعات الآية ١٨ .
(٥) الشمس الآية ٩ .
(٦) العنكبوت الآية ٦٩ .
(٧) فاطر الآية ١٨ .
(٨) الكهف الآية ٤٦ .
(٩) التغابن الآية ١٥ .

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون[١]) وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون[٢]) ، وقال تعالى : ( الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم[٣]) .

ومن هنا تدرك كيف كانت الزكاة وسيلة من وسائل تطهير النفس والسمو بها عن الشح والبخل ، لذلك فان تزكية النفس تعتبر أعلى خلق يمكن أن تتخلق بها الانسانية اذ بصفاء النفس وتزكيتها تهون كل الصعاب وتذلل كل المقبات وتحل كل المشاكل ، والقرآن الكريم عنى بالجانب المالى للانسان ونظمه وفرض فيه قدرا محدودا للمحتاجين وحث في كثير من آياته على الانفاق من مال الله تعالى الذى آتاه الله للانسان اذ المال مال الله والناس عبيده وحذر من الشح والبخل واعتبر الامساك وعدم الانفاق هلاكا ، قال تعالى ( وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين[٤]) قال البيضاوى رحمه الله في معناها : " بالاسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والانفاق فيه فان ذلك يقوى العدو ، ويسلطهم على اهلاككم ، ويؤيده ما روى أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الاسلام وكثر أهله رجعنا الى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت ، أو بالامساك وحب المال فانه يؤدى الى الهلاك المؤبد ، ولذلك سمى البخل هلاكا[٥]) وقال تعالى: ( يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة[٦]) وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[٧]) وقال تعالى : ( آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا

---

(١) الحجرات الآية ١٥ .
(٢) الصف الآيتان ١٠، ١١ .
(٣) التوبة الآية ٢٠ .
(٤) البقرة الآية ١٩٥ .
(٥) أنوار التنزيل للبيضاوى ص ٤٦ ط الحلبى .
(٦) البقرة الآية ٢٥٤ .
(٧) نفس السورة الآية ٢٦٧ .

مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير(١)) وقال تعالى : ( وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين(٢)) ، وقال تعالى : ( فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(٣)) ومع أن المال مال الله وهو الواهب المعطى الكريم المنان فهو سبحانه يعد عباده المنفقين بأن يعوضهم أضعاف ما أنفقوا ومع ذلك مغفرة الله تعالى ، قال تعالى : ( ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم(٤)) هذا غيض من فيض من آيات الله الكثيرة التى تتحدث عن المال فى القرآن الكريم وانفاقه للمحتاجين .

ونعود الى الآيات الآنفة الذكر نجد أن القرآن حينما يخاطب النفوس البشرية ويحثها على الانفاق فى سبيل الله يربط ذلك بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم ، فهو من عند الله الذى آمنوا به ، والذى يأمرهم بالانفاق " أنفقوا مما رزقناكم " فهو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو المعطى سبحانه ( ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى(٥)) كما يذكر باليوم الآخر الذى لا بيع تربح فيه الأموال وتنمو ، ولا خلة ولا شفاعة لا صديق ولا صاحب يتقدمون فيشفعون ويشفعون ، كما يأمر بالانفاق من الطيبات " أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض " ، فالآية الكريمة تحث النفوس على الانفاق من الطيبات اذ الجود بأفضل الموجود يدعم ذلك قوله تعالى : ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون(٦)) كما ينهى القرآن الكريم عن تيمم الخبيث والانفاق منه فالدون أو الردى تعافه النفوس ، وقد ضرب الله لهم مثلا من أنفسهم فحرك وجدانهم

---

(١) الحديد الآية ٧ .
(٢) المنافقون الآية ١٠ .
(٣) التغابن الآية ١٦ .
(٤) نفس السورة الآية ١٧ .
(٥) طه الآية ٥٠ .
(٦) آل عمران الآية ٩٢ .

وهو العليم سبحانه بذات الصدور بأنهم اذا قدم لهم هذا الردئ كصفقة بيع أو قضاء دين فانهم لن يأخذوه الا ينقص من الثمن نقص من لا يريده ، أو يتسامح فيه على مضض ، قال تعالى ( ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد )(١) .

وفى الآية التى تليها فى هذه المجموعة من الآيات ، يدعوا القرآن الكريم الى الايمان والانفاق من مال الله الذى استخلف الله بنى آدم فيه لأن له ملك السموات والأرض والناس جميعا فقراء اليه ( يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد )(٢) والانسان حين يسمع هذا الأمر من مالك السموات والأرض يدعوه الى الانفاق ، ومن مال من ؟ انه من مال الله الذى أعطى وأغنى وما الانسان الا مستخلف عليه ليصرفه فيما أمره الله وهو سبحانه رقيب على كل تصرفاته ، (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون )(٣) حينما يسمع ذلك ينتبه من الغفلة فيعلم أن هذا المال وديعة عنده وهو نفسه رهين عمله ( كل امرئ بما كسب رهين )(٤) فيتخلص من سطوة الشح ، وينفض عنه كابوس البخل ويرتفع بنفسه الى أفق الانفاق فى سبيل الله .

كيف لا وهو يسمع أيضا وعد الله فى هذه الآية وغيرها بالأجر الكبير للمنفقين ( فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير )(٥) .

وفى الآية التى تليها فى هذه المجموعة طلب سبحانه وتعالى الانفاق من رزقه " وانفقوا مما رزقناكم " وربط ذلك بقضية الموت فهو سبحانه يذكر الناس بهذه الحقيقة التى لا مناص لأحد منها ولا مهرب ، وفى هذا تذكير للنفس الانسانية بالمصير المحتوم فتتحرك النفس وتندفع منفقة راجية بذلك المغنم عند الله .

---

(١) البقرة الآية ٢٦٧ .
(٢) فاطر الآية ١٥ .
(٣) يونس الآية ١٤ .
(٤) الطور الآية ٢١ .
(٥) الحديد الآية ٧ .

والقرآن الكريم يأمر المؤمنين ، أن ينفقوا الخير لأنفسهم " وأنفقوا خيرا لأنفسكم " فجعل ما ينفقونه على المحتاجين كأنه نفقة مباشرة لهم ، كما يوضح لهم أن داء الشح بلاء ملازم للانسان وأن من خلص منه فهو الفائز بالفلاح والنجاح " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " .

والانفاق الحقيقي لا يكون الا ابتغاء وجه الله ، وهذا لا يكون الا من شأن المؤمن لأنه لا ينفق ماله لغرض دنيوى كالرياء والشهرة ، فلا ينفق رئاء الناس لأن الذين ينفقون رئاء الناس هم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فهم قرناء الشيطان ( والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا )(١) .

وما دام المؤمن ينفق ابتغاء وجه ربه فانه يكون مطمئنا لقبول الله صدقته راضيا بالثواب الجزيل والأجر الكبير الذى أعده الله له ، قانعا بما بقى معه ، موقنا ببركة الله فيه ، قائلا : " اللهم اجعله مغنما ولا تجعله مغرما " ، وبذلك ترتفع نفس المؤمن وتسمو وتتطهر وتزكو وهكذا يربى الله النفوس البشرية بهذا القرآن ( ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم )(٢) .

## ■ الأثر التربوى للزكاة والانفاق بصفة عامة :

### ١ ـ السعادة النفسية :

بما أن الزكاة طهارة من الشح والبخل لقوله تعالى ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها )(٣) فهى مع هذا أيضا نماء وبركة وزيادة لشخصية المنفق ذلك أن الذى يؤدى الزكاة ويساعد المحتاجين ، يشعر بالرضا والارتياح ويجد سعادة نفسية تملأ جوانحه لأنه انتصر على

---

(١) النساء الآية ٣٨ .
(٢) الاسراء الآية ٩ .
(٣) التوبة الآية ١٠٣ .

الأثرة والأنانية واغراء الشيطان بالأمساك ، حيث يقول الله عنه ( الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم )(١) فاستجاب الانسان لأمر الله ورغب بما عنده في المغفرة والفضل .

٢ — البركة والنماء للمال المزكى :

لاشك أن المال المزكى يباركه الله تعالى ويحصل به النما والربح ، وهذا مشاهد وملموس تحقيقا لوعد الله تعالى : ( وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين )(٢) وقوله تعالى : ( يمحق الله الربا ويربي الصدقات )(٣) وقوله تعالى ( وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون )(٤) .

٣ — مضاعفة الأجر والجزاء في الآخرة :

ان المؤمن الصادق في ايمانه الموقن بالآخرة وما أعده الله تعالى للمنفقين يستمع الى قوله تعالى : ( مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم )(٥) والى قوله تعالى : ( ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير )(٦) والى قوله تعالى : ( فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير )(٧) يستمع الى هذه الآيات وغيرها فيعطى مما آتاه الله مصدقا بالحسنى ، عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه ، فييسره الله تعالى لليسرى ومن يسره الله لليسرى فقد ربح ربحا عظيما ، أما من بخل واستغنى ولم ينفق مما آتاه الله فييسره

---

(١) البقرة الآية ٢٦٨ .
(٢) سبأ الآية ٣٩ .
(٣) البقرة الآية ٢٧٦ .
(٤) الروم الآية ٣٩ .
(٥) البقرة الآية ٢٦١ .
(٦) نفس السورة الآية ٢٦٥ .
(٧) الحديد الآية ٧ .

للعسرى وبذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، اللهم يسرنا لليسرى وجنبنا العسرى وأرزقنا خيرى الدنيا والأخرى .

٤ — أداء الزكاة والانفاق على المحتاجين عبادة وشكر للمنعم :

يتبين من الآيات السابقة أن المال مال الله تعالى وأن الانسان مستخلف فيه ، وهو رزق يسوقه الله الى من يشاء من عباده تفضلا وكرما . ومهما كان للانسان فيه من جهد وحسن تدبير فليتذكر يد القدرة الالهية التى أوجدته من العدم ، وأمدته به ، قال تعالى : ( أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون .. أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون )(١) ويتذكر الانسان لنعمتى الايجاد والامداد يكف عن الادعاء بأنه قهر الطبيعة ، أو استولى على الفضاء أو تحكم فى الأرض وما فيها أو انه جمع هذه الأموال بعلمه وكفاءته وحسن ادارته لأن هذا الادعاء كله لا يجدى نقيرا ولا يغنى فتيلا ذلك أن من ادعى أن قدرته وحده ، وعلمه وحده هما اللذان يوجدان المال فقد ضل وخسر وأهلكه الله ، وفى قصة قارون ما يغنينا كعبرة للمعتبرين ، قال الله تعالى فيما يحكيه عنه : ( قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا )(٢) ولذلك أهلكه الله كما أهلك من كان قبله من أمثاله ( فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين )(٣) .

فلا غرابة بعد هذا الحشد من الآيات الدالة على أن النعم كلها بيد المنعم الحقيقى جل وعلا وبذلك ينفق الانسان على أخيه الانسان المحتاج امتثالا لأمر الله تعالى وقياما بحق الشكر للمنعم تبارك وتعالى .

---

(١) الواقعة الآيات ٦٣ — ٦٥ والآيات ٦٨ — ٧٠ .
(٢) القصص الآية ٧٨ .
(٣) نفس السورة الآية ٨١ .

والأمر فى هذا يعود الى الاخلاص فى الانفاق وحسن نية المنفق اذ لابد أن يكون الانفاق مرادا به وجه الله تعالى ، لقول الله تعالى : ( وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون )(١) ، ولقوله تعالى : ( وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله )(٢) ولقوله صلى الله عليه وسلم : " انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى "(٣) . فارادة وجه الله فى هذه العبادة وفى كل عبادة هى العمود الفقرى الذى لا حياة لها الا به ، لأن الله تعالى لا يقبل عملا أريد به غيره أو أشرك معه غيره كما جاء فى الحديث القدسى " من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه "(٤) .

٥ — راحة نفسية للمحتاج وقوة لشخصيته :

حينما يحس الفقير أنه يعيش فى مجتمع متعاون وأنه ليس ضائعا فى هذا المجتمع ، وحينما يجد الرحمة والعطف لدى الأغنياء ، ويعلم أن الاسلام قد كفل له حقوقه ، ووفر له الضروريات من الحاجيات ، وحينما يشعر أن المسلمين ملتزمون بقول الله تعالى ( وفى أموالهم حق للسائل والمحروم )(٥) ويلمس أثر ذلك تطبيقا عمليا يكون راضيا مطمئنا يجد عزة فى نفسه لأنه ينتمى الى مجتمع عزيز كريم ، وعزة بدينية لأن الدين كفل له حقوقه ، ومحبة لاخوانه المؤمنين الأغنياء لأنهم لم يتركوه فريسة للجوع ونهبا للمفهبة ، بل بادروا بسد حاجته ، وتأمين مطلبه ، وبذلك تشيع المحبة وتدوم الألفة .

---

(١) الروم الآية ٣٩ .
(٢) البقرة الآية ٢٧٢ .
(٣) صحيح البخارى وصحيح مسلم .
(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٨٩ كتاب الزهد رقم ٤٦ .
(٥) الذاريات الآية ١٩ .

## ٤ ـ الحج وأثره في النفس الانسانية :

الحج لغة القصد ، تقول العرب حج بنو فلان فلانا اذا قصدوه[1] .

وهو في الاصطلاح الشرعي : قصد البيت الحرام لأداء النسك .

والحج آخر أركان الاسلام التي فرضها الله تعالى على المسلمين ، اذ كانت فرضيتها في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال ، قال تعالى : ( ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا )[2] .

والحج رحلة فريدة في عالم الأسفار اذ يخرج المسلم من وطنه قاصدا البلد الأمين وقد قطع العلائق الدنيوية واتجه بقلبه الى رب البرية مخلصا له النية متجردا لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات متنزها عن الشهوات مبتعدا عن الملذات ، مقتصرا على الضرورات .

### ■ البيت ومكانته في النفوس :

والبيت الحرام له مكانة عظيمة في النفوس وهيبة وجلال في القلوب ، كيف لا وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ( واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا )[3] وهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله في الأرض ( ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا )[4] ، وهو رمز لتوحيد الله تعالى اذ كل من وفد اليه شعاره " الله أكبر " ، ونشيده " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك " .

---

( ١ ) لسان العرب مادة حجج .
( ٢ ) آل عمران الآية ٩٧ .
( ٣ ) البقرة الآية ٢٥ .
( ٤ ) آل عمران الآيتان ٩٦ ، ٩٧ .

يقول صاحب مجلة " الشهاب " رحمه الله (١) :

" وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة ، والنظرة السامية في هذا التشريع الحكيم — هذه الفرصة ، فيغمزون الاسلام بأنه لازال متأثرا ببقية من وثنية العرب ، وأن الكعبة والطواف من حولها ، والحجر الأسود واستلامه ، وما يحيط بذلك من معاني التقديس والتكريم ، ان هو الا مظهر من مظاهر هذا التأثر ، وهذا القول بعيد عن الصحة ، عار عن الصواب ، فالمسلم الذي يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر ، يعتقد اعتقادا جازما أنها جميعا أحجار لا تضر ولا تنفع ، ولكنه انما يقدس فيها هذا المعنى الرمزي البديع ، معنى الأخوة الانسانية الشاملة ، والوحدة العالمية الجامعة ، ويذكر قول الله العلي الكبير "جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس" (٢) .

والرمزية هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة ، والمشاعر النبيلة ، التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ أو تجلوها العبارات ، والذي يعظم علم وطنه يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديا ، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز الى كل معاني المجد والسمو ، التي يعتز بها وطنه ...

والكعبة المشرفة علم الله المركوز في أرضه ، ليمثل به للناس أوضح معاني أخوتهم ، وليرمز به الى أقدس مظاهر وحدتهم ، وانما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء ابراهيم الخليل أبو الأنبياء ...

وما الحجر الأسود الا موضع الابتداء ونقطة التميز في هذا البناء ، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء على الايمان والتصديق والوفاء : "اللهم ايمانا بك لا بالحجر وتصديقا بكتابك — لا بالخرافة — ووفاء بعهدك — وهو

---

(١) العدد الثالث ص ٥١ من مقال للأستاذ حسن البنا رحمه الله ، نقلا من كتاب العبادة في الاسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٨٤ ، بتصرف .
(٢) المائدة الآية ٩٧ .

التوحيد الخالص لا الشرك — واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم محطم الأصنـام .

فأين هذه المعانى الرمزية العلوية ، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية؟

ان الكعبة المشرفة رمز قائم خالد ، ركز الاسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معانى الانسانية العالمية ، والأخوة بين البشر جميعا ( واذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا )(١) .

واذا فهمنا هذه اللغة الرمزية وهى تتميز بسعتها وشمولها سهل علينـا أن نفهم كثيرا من أسرار الحج . أ . هـ .

وهى كما قال الأستاذ محمود شلتوت(٢) :

" فما الاحرام فى حقيقته الا التجرد من شهوات النفس والهوى وحبسها عن كل ما سوى الله وعلى التفكير فى جلالـه .

وما التلبية الا شهادة على النفس بهذا التجرد ، وبالتزام الطاعـة والامتثال ، وما الطواف بعد التجرد الا دوران القلب حول قدسية الله ، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم الذى ترى نعمه ولا تدرك ذاته .

وما السعى الا التردد بين علمى الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان .

وما الوقوف بعرفة الا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية ، وأيد مرفوعة بالرجاء ، وألسنة مشغولة بالدعاء وآمال صادقة فى أرحم الراحمين ..

---

(١) البقرة الآية ١٢٥ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة ص ١٢٠ للشيخ محمود شلتوت .

وما الرمى بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها ، الا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ، ونزعات النفس ، والا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات .

وما الذبح — وهو الخاتمة فى درج الترقى الى مكانة الطهر والصفاء — الا اراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة ، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار .

ويقول الامام الغزالى رحمه الله ما ملخصه (١) :

" ليجعل الانسان عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة وليحذر ان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ... وليتزود بالتقوى فهى خير زاد ( فان خير الزاد التقوى ) (٢) فهى زاد الرحلة الطويلة زاد الآخرة — وليحذر أن يفسد هذا الزاد شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وليتذكر عند ركوب الراحلة ركوب الجنازة ، وما يدريه لعل الموت قريب . وعند ارتداء الاحرام يتذكر أنه سيلقى الله تعالى ملفوفا فى ثياب الكفن لا محالة .

وينبغى للحاج أن يحضر فى قلبه هذه الأسئلة : ماذا يريد ؟ وأين يريد ؟ وزيارة من يقصد ؟

انه يريد عفو الله ورضوانه ، ويتوجه صوب البلد الأمين البلد الذى حرمه الله وجعله آمنا ومن دخله كان آمنا ويقصد ملك الملوك فى زمرة الزائرين المدعوين لحضرته الذين نودوا فلبوا النداء وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق ، وليتذكر عند التلبية أنه يجيب الله عز وجل وليخش أن ترد عليه اجابته فيقال له :

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٧٤ ط المكتبة التجارية ، بتصرف .
(٢) البقرة الآية ١٩٧ .

لا لبيك ولا سعديك ، قال سفيان بن عيينة : حج على بن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبى ، فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك .

وليتذكر فى الطواف أنه متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول عرش الله ولابد من استحضار القلب من أول الطواف الى آخره .

وليعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله عز وجل على طاعته وليعزم على الوفاء ببيعته " الحجر الأسود يمين الله فى أرضه " وفى لفظ عن ابن عباس رضى الله عنهما : موقوفا " الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه والذى نفس ابن عباس بيده ، ما من مسلم يسأل الله عنده شيئا الا أعطاه اياه "(١). وليتذكر عند الوقوف بعرفة وقوفه فى عرصات القيامه واجتماع الأمم وشدة الزحام فى ذلك اليوم المهيب فيلزم قلبه الضراعة ، والابتهال الى الله عز وجل أن يحشره فى زمرة الفائزين .

وليتذكر عند الرمى أنه يرضى ربه ويغضب الشيطان ، وليتذكر عند الذبح أنه يتقرب بهديه الى الله تعالى ، وليس القصد من ذلك المفاخرة والمكاثرة وليقصد بهديه وجه الله تعالى ( قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت )(٢) .

وبالجملة فالحج من أوله الى آخره رحلة نفسية لها آثار عظيمة على النفس من حيث تصفيتها من الاكدار ، وتزويدها بالتقوى ، وللحج أثر فى حياة الأفراد

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام وله شواهد فهو حديث حسن ، (وله حكم الرفع كما ترى اذ لا مجال للرأى فيه) أ . هـ . كشف الخفاء للعجلونى ص ٣٤٩ .

(٢) الانعام الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

والجماعة لقوله تعالى : ( وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم )(١) .

■ فمن هذه الآثار والمنافع :

أولا : القوة الروحية :

يتزود الحاج بشحنة روحية كبيرة فتملأ نفسه خشية وتقوى ، وعزما على الطاعة وندما على المعصية ، وتغذى فيه عاطفة الحب لله ولرسوله وللمؤمنين ، وتوقظ فيه مشاعر الأخوة الاسلامية لاخوانه المسلمين فى كل مكان ، وتوقد فى صدره شعلة الحماسة لدينه والغيره على حرماته .

يعود المسلم بعد ذلك أصفى نفسا وأرق شعورا ، وأطهر مسلكا وأقوى عزيمة على الخير وأصلب عودا أمام مغريات الشر ، ( من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه )(٢)

ثانيا : الثقافة والتدريب :

الحج توسيع لأفق المسلم الثقافى والفكرى ، فهو حينما يحتك بآلاف الناس القادمين من شتى أقطار الأرض فى زمن واحد ومكان واحد ، تكون له مناسبة عظيمة للاطلاع على أحوال أكبر عدد من المسلمين فى أنحاء المعمورة عن طريق هؤلاء الوافدين الى البيت الحرام ، كما يحصل تدارس كثير من مشاكل المسلمين مع أولى الفضل والفكر منهم فينتج عن ذلك طاقة فكرية سليمة وفهم صحيح .

---

(١) الحج الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة ، واللفظ للبخارى ج ٣ ص ١٤ ، ومسلم ج ٢ ص ٩٨٣ رقم ٤٣٨ .

وتحمل مشاق السفر ومفارقة الأهل والأولاد والوطن ، والتضحية بالراحة المألوفة بين الأصدقاء والأحباب تحصل لدى المسلم دربة على احتمال الشدائد والصبر على المكاره ومواجهة الصعاب .

ثالثا : المساواة :

الحج تدريب عملى على المبادئ الاسلامية ، ومنها المساواة اذ نرى معنى المساواة واضحا فى أجلى صورة ، فالملابس واحدة ازار ورداء أبيضان يلبسهما الأمير والمأمور ، الراعى والرعية ، الغنى والفقير ، الملك والصعلوك ، انهم أشبه بحالهم فى ساحة العرض الأكبر يوم يخرجون من الأجداث الى ربهم يوفضون .

رابعا : الوحدة :

فى الحج تتوحد المشاعر كما توحدت الشعائر تتوحد الأهداف والأعمال كما توحدت الأقوال ، لا عنصرية ولا عصبية للون أو جنس أو فئة أو طبقة فالجميع يؤمنون برب واحد ، ويطوفون حول بيت واحد يتبعون رسولا واحدا ، أعمالهم كلها فى هذه الشعيرة موحدة شعارهم ( انما المؤمنون اخوة ) .

خامسا : الشعور بالقوة وايقاظ الأمل :

تتاح للمسلمين فرصة عظيمة فى موسم الحج أن يشهدوا أعظم مؤتمر اسلامى ، وهذا التجمع الكبير بهذا العدد الضخم يوحى دائما بالقوة ويوقظ الأمل ، ويذكر المسلم بحق أخيه المسلم ، وان نأت الديار وتباعدت ، كما تذوب فيه الفوارق الطبقية مهما كانت ، وتختفى فيه كل الشعارات مهما برقت الا شعارا واحدا ( الله أكبر ) ، وفى هذه الفرصة تدرس أفضل الوسائل لبلوغ الأهداف النبيلة التى رسمها الاسلام ، وتحقيق الآمال المرجوة .

هذه هي أهم الآثار التربوية التي سلكها القرآن الكريم في تربية النفس الانسانية عن طريق الشعائر التعبدية ، وهي آثار عظيمة كما ترى ، تجعل الانسان يوقن أن لا غنى له عنها بحال فهي الى جانب كونها تهذيبا للنفس وتربية للضمير فهي أولا وأخيرا عبادة لله تطلب لذاتها طاعة لله وابتغاء لمرضاته وهنا يكمن أثرها التربوي اذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ، ومحبته له واخلاصه الدين له ، وذلك يقتضي انجذاب القلب الى الله ، فيصير منيبا اليه خاشعا منه راغبا راهبا لأن الانسان لا يكون عابدا لله الا وقلبه بين الخوف والرجاء ، الخوف من عقابه والرجاء في عفوه وغفرانه ( أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ) (١) .

والعبادة التي يريدها الله تعالى من عباده بقوله تعالى : ( يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ) هي كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فتشمل الشعائر الظاهرة كأركان الاسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة " (٢) .

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه ، واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله " (٣) . أ . هـ

---

(١) الاسراء الآية ٥٧ .

(٢) العبودية في الاسلام لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٣٨ ط ٢ المكتب الاسلامي .

(٣) المصدر السابق .

كما أنها تشمل حسن المعاملة والوفاء بالحقوق كبر الوالدين وصلة الأرحام والاحسان الى اليتيم والمسكين وابن السبيل ، والرحمة بالضعفاء والرفق بالحيوان.

كما تشمل الأخلاق والفضائل الانسانية كلها ، من صدق الحديث ، وأداء الأمانة والوفاء ، والعدل والعفو ، والتواضع والكرم والسخاء واجتناب الرذائل كالكذب والنميمة ، والتجسس ، والبخل والكبر ، ونحو ذلك ، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل الآتي ان شاء الله تعالى .

ولهذا الشمول في معنى العبادة آثار مباركة في النفس الانسانية والحياة التي يحياها الانسان في ذاته ويلمسها في غيره ، ويرى ظلالها في الحياة من حوله ، وأبرز هذه الآثار ، كما يقول الأستاذ يوسف القرضاوي أمران :

(١) " صبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية ، وجعله مشدوداً الى الله في كل ما يؤديه للحياة ، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه الى الاستكثار من كل عمل نافع وكل انتاج صالح له ولأبناء نوعه .

(٢) وحدة الوجهة ووحدة الغاية في حياة الانسان كلها ، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي وما يدع ، ويتجه الى الله بسعيه كله الديني والدنيوي ، لا انقسام ولا صراع ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته .. فوجه الله لا يفارقه " فأينما تولوا فثم وجه الله . ) ، وبهذا ينصرف همه كله الى الله ويجتمع قلبه كله على الله ، ولا يتوزع شمل حياته وفكره وارادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات ، منهجه عبادة الله ، وغايته رضوان الله ، ودليله وحي الله ".(١)

---

(١) العبادة في الاسلام / د. يوسف القرضاوي ص ٦٦ ، بتصرف .

والحق أن دائرة العبادة التى خلق الله لها الانسان وجعلها غايتـه فى الحياة بقوله تعالى :

( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )(١) دائرة رحبة واسعة تشمـل شئون الانسان كلها وتستوعب جميع حياته عقيدة وعبادة وسلوكا .

... ... ...

(١) الذاريات الآية ٥٦ .

# الفصل الثالث

## التربيــــة الأخلاقيــة

القرآن الكريم كله دعوة للنفس الانسانية الى السلوك القويم فلا تكاد تخــلو سورة من سوره من الدعوة الى الفضائل والحض عليها أو النهى عن الرذائـــل والتحذير منها ، مقرونة أحيانا بالترغيب فى الفضيلة والوعد عليها بالجــزاء الأوفى فى الآخرة ، أو الترهيب من الرذيلة والوعيد عليها بالعقاب وســوء المصـير ٠

وسأكتفى فى هذا الفصل بايراد بعض الآيات الكريمة وبعض الأحاديـث النبوية معقبا عليها أحيانا بتفسير موجز أو شرح مختصر مستشهدا ببعض أقوال العلماء نظرا لكثرتها ، اذ الغرض الأساسى هو عرض لجانب التربية القرآنيـة للنفس الانسانية ، ولفت أنظار المسلمين وغيرهم الى ما فى القرآن الكريم مـن أساليب ناجحة للتربية الرشيدة بعرض نماذج منها فقط اذ هى من الكثــرة بحيث لا تستوعبها رسالة مستقلة فضلا عن فصل ، وبذلك يتبين للجميع أن القرآن الكريـم مملوء بالدرر النفيسة والجواهر الثمينة التى لا توجد فى غيره من الكتب السماوية أو الأرضيـة ٠

" قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس لأرسطو ؟ فقال : بـل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ٠٠ !![1] " ٠

---

(١) خلق المسلم للأستاذ محمد الغزالى ص ٤ ط ٧ ٠

تعريف الخلق : — بضم اللام وسكونها — هو الدين والطبع والسجية .

وحقيقته أنه لصورة الانسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة ، ولهذا تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق فى غير موضع ، ومظهره السلوك مع الآخرين .

وقيل عن حسن الخلق : هو بذل الندى ، وكف الأذى ، واحتمال الأذى . وقيل : هو بذل الجميل وكف القبيح ، وقيل هو التخلى من الرذائل ، والتحلى بالفضائل (١) ، والأخير هو الذى اختاره لشموله على التخلية والتحلية .

والأخلاق الاسلامية ليست من الأمور التى يمكن الاستغناء عنها . بل هى من الأشياء الأساسية التى لا بد منها لاستقامة الانسان فى الحياة على النهج الذى اختاره الله له . لذلك فقد ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث تحث على التحلى بالأخلاق الحسنة وتبين أنها خير ما أعطى الانسان كما أنها تدل على حسن اسلام المرء وكمال ايمانه .

سئل عليه الصلاة والسلام " أى المؤمنين أكمل ايمانا ، قال : " أحسنهم خلقا " (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، قالوا نعم ، قال : أحسنكم خلقا " (٣) .

---

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ٣٠٧ .
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط ، أنظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٢ .
(٣) رواه أحمد ج ٢ ص ١٨٥ .

وجاءه أناس فقالوا من أحب عباد الله الى الله ؟ قال " أحسنهم خلقا "(١) وفى رواية ما خير ما أعطى الانسان ؟ قال : " خلق حسن "(٢) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم القائم "(٣) ، وعن عبد الله بن عمرو قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، وكان يقول : " ان من أخيركم أحسنكم خلقا "(٤) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ما قال لى أفا قط ، ولا قال لشىء لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا ؟(٥)

وسئلت عائشة رضى الله عنها ماكان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج الى الصلاة "(٦) .

وسئلت رضى الله عنها عن خلق الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : " كان خلقه القرآن "(٧) .

وتزكية النفس وتهذيبها ليس مرده الى اجتهاد النفس الانسانية بالرياضات والمجاهدات والخلوات ، بل الأمر فى ذلك راجع الى رسل الله الذين بعثهم الله للبشر مرشدين ، يعلمون ويزكون فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم . قال تعالى : ( هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ،

---

(١) رواه الطبرانى ، قال الحافظ الهيثمى ورجاله رجال الصحيح . أنظر مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٤ .
(٢) ابن حبان
(٣) رواه أبو داود — كتاب الأدب جـ ٢ ص ٥٥٢ .
(٤) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٨١٠ رقم ٦٨ .
(٥) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٨٠٤ رقم ٥١ .
(٦) رواه البخارى — كتاب الأدب جـ ٨ ص ١٤ .
(٧) رواه الشيخان

ويعلمهم الكتاب والحكمة )(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : " وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه ، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب ؟ فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل الى تزكيتها وصلاحها الا من طريقهم وعلى أيديهم بمحض الانقياد والتسليم لهم "(٢) .

والأخلاق التي يدعو اليها القرآن سواء ما يراد به صفاء النفس وتهذيبها أم ما يراد منه حسن السلوك مع الآخرين كلها ترتكز على قاعدة صلبة لا تميد ولا تضطرب ، تلكم القاعدة هي العقيدة الصحيحة ، فما لم تكن ثم عقيدة صحيحة تحكم حياة الفرد وتوجهه فانه سيظل يستمع أو يقرأ هذه السمات الأخلاقية الرفيعة التي يدعو اليها القرآن الكريم ، ولن يعيرها أي اهتمام لأن الحافز الأساسي مفقود وهو الايمان ، ولهذا سبق أن أوردنا الكثير من الآيات التي تدعو الى الايمان الصحيح وقررنا هناك أن العقيدة السليمة هي التي يعيش بها الانسان سعيدا ويحيا من أجلها مجاهدا ويموت في سبيلها شهيدا .

وما زال كتاب الله يتعهد النفس البشرية بكل أنواع التربية حتى استقامت على الطريق فلم ترغب في سواه ولم ترهب غيره — رغبت فيه عن محبة وخافت منه عن علم ويقين وارتفعت الى درجة الاخلاص في القول والعمل .

والعقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح ! ومن هذا الينبوع الدافق ارتوت الحياة بمفاهيم للأخلاق جديدة واستقرت على المنهج الذي رسمه القرآن لتربية النفس والمجتمع ، وأصبحت الحرية الانسانية والمسئولية أمام الله والحب

---

(١) الجمعة الآية ٢ .

(٢) مدارج السالكين ج ٢ ص ٣١٥ .

العميق لله ، والشعور النبيل بخلافة الانسان فى عمارة الأرض ، كل هذه المعانى وغيرها لا يصدر عنها الا الخلق القويم والسلوك المستقيم ، يشعر الانسان بقيمته الحقيقية فى الحياة الدنيا ويستشعر واجبه نحو الآخرين فيعاملهم بالاحسان يعطف على صغيرهم ، ويوقر كبيرهم ، ويرحم ضعيفهم ، ويحسن محتاجهم ، ويدفع الأذى عنهم ويرشدهم الى الحق ، ويهديهم الى الخير .

فالرحمة والمودة والمروءة والنجدة والصدق ، والأمانة ، والعفة ، والوفاء والتواضع ، والصبر ، والتحكم فى الأهواء ، وما تعارف عليه العقلاء ، واهتدت اليه الانسانية وأقرته الرسالات السماوية ، كل ذلك عنوان صدق على صدق الايمان فى النفس الانسانية وسلامة الاعتقاد فى الله واليوم الآخر ، وبدون هذا الايمان تصبح الأخلاق لفظا لا مفهوم له ولا حقيقة .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد :

" ان العالم الانسانى كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب العالمين ، وان قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات ، وبين الثواب ، والعقاب وان الانسانية الجامعة شئ لاوجود له قبل أن يوجد الانسان المسئول ، وانما توجد الانسانية الواحدة ويتساوى الانسان والانسان مع الايمان بالاله الواحد الأحد رب الناس ورب العالمين أجمعين أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم للخيرات[١] " ان أكرمكم عند الله أتقاكم[٢] " ، ان اصلاح الباطن أساس لكل اصلاح ظاهرى ، ولا بقاء لاصلاح خارجى الا اذا تركز وكان نتيجة وأثرا للاصلاح الباطنى ، وشعبة الاخلاق هى الكفيلة بالاصلاح الباطنى ، وقد عبر الرسول صلوات الله عليه وسلامه عن هذا المعنى بقوله : " ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب[٣] " .

---

(١) الانسان فى القرآن ص ٦١ .
(٢) الحجرات الآية ١٣ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

وتقوى القلوب كلمة جامعة تجمع كل وازع يزع الضمير ويدفعه الى الخير وكل رادع يردع النفس عن الوقوع فى المحظورات .

يقول العقاد : والانسان التقى هو الانسان .. ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟ ؟ لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هذه التقوى . وعلموا حقا أن كل موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل ، وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه التقوى ، التى يحسبونها تسبيحة من تسابيح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل ، فليس بين فاضل ومفضول قسط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات[١] .

أقول : وأخلاق الاسلام منتشرة فى رياض كتاب الله تعالى الخالد تدعو الى أنبل قصد وأسمى مقام . فالقرآن يدعو الى الطهارة البدنية والنفسية ، قال تعالى : ( والله يحب المطهرين[٢] ) وقوله تعالى : ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها[٣] ) وقوله تعالى : ( يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم[٤] ) وقوله تعالى : ( وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب[٥] ) ويدعو الى الاستقامة . قال تعالى : ( انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه[٦] ) ، وقوله تعالى : ( فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير[٧] ) فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود ، وقوله تعالى : ( ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون[٨] ) وقوله تعالى : ( فادع واستقم كما أمرت[٩] )

---

( ١ ) الانسان فى القرآن ص ٦١ .
( ٢ ) التوبة الآية ١٠٨ .
( ٣ ) الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .
( ٤ ) الشعراء الآيات ٨٧ — ٨٩ .
( ٥ ) ق الآيات ٣١ — ٣٣ .
( ٦ ) فصلت الآية ٦ .
( ٧ ) هود الآية ١١٢ .
( ٨ ) فصلت الآية ٣٠ .
( ٩ ) الشورى الآية ١٥ .

والاستقامة هى سلوك الطريق القويم والثبات على ذلك بدليل قوله عليه الصلاة والسلام ( قل آمنت بالله ثم استقم ) (١) "سئل أبوبكر الصديق رضى الله عنه عن الاستقامة ؟ فقال : " أن لا تشرك بالله شيئا " وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ روغان الثعالب " وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : " استقاموا : أخلصوا العمل لله " وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس رضى الله عنهما : " استقاموا أدوا الفرائض " ، وقال الحسن استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته ، وقال مجاهد : " استقاموا على شهادة أن لا اله الا الله حتى لحقوا بالله " .

قال ابن القيم رحمه الله : فالاستقامة كلمة جامعة ، آخذة بمجامع الدين وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال ، والنيات ، فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله ، وعلى أمر الله " (٢) .

فمتى استقام الانسان على أمر الله وأخلص العمل لله حصل له الاطمئنان والسعادة بما يشرح الله به صدره ويدفع عنه الخوف والحزن بطريق الالهام ، ولا أرى تقييد ذلك بحال الموت أو عند البعث كما ذهب اليه كثير من المفسرين لأنه من المعلوم أن المؤمن يجد برد اليقين بحلاوة الطاعة كما أن العاصى يجد خزى القلق يتجرع مرارة المعصية ، وليس شرطا مشافهة الملائكة للمستقيمين على طاعة الله ، ولكن بما يقذفونه فى نفوسهم بأمر الله من الأمن والاطمئنان ، والبشارة بوعد الله لهم ، وصحبتهم اياهم يحرسونهم ويؤيدونهم ويوادونهم والله أعلم .

---

( ١ ) رواه مسلم جـ ١ كتاب الايمان ص ٦٥ رقم الحديث ٦٢ .

( ٢ ) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٠٤ .

قال الألوسي رحمه الله : عند قوله تعالى : " تتنزل عليهم الملائكة " وقيل : تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الالهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح ، قيل : وهذا هو الأظهر لما فيه من الاطلاق والعموم (١) .

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : " ان الله لا يقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والانس ، انما يكلف بهم ملائكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة " (٢) .

وطهارة النفس واستقامتها هما الركنان الأساسيان اللذان تقوم عليهما حياة الانسان والركن الثاني مترتب على الأول اذ لا استقامة مالم تكن صادرة عن نفس طاهرة ، فالنفس الطاهرة هي المؤمنة بربها الواثقة بوعده ووعيده ، وقد جمع هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم لسفيان بن عبد الله رضي الله عنه : " قل آمنت بالله ثم استقم " وذلك حينما سأله قائلا : قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث متضمنا الايمان والاستقامة عليه ، ومن الايمان يصدر عن الانسان كل خلق حسن ويبتعد عن كل ما يشين من الأقوال والأفعال .

والأخلاق الحسنة التي يدعو اليها القرآن ويربي الانسانية عليها كثيرة نذكر في بحثنا هذا طرفا منها :

١ — <u>الصدق :</u>

وهو لغة نقيض الكذب صدق يصدق صدقا وصدقا وتصداقا ، وصدقه قبل قوله ، وصدقه الحديث : أنبأه بالصدق ، قال تعالى : ( والذى

---

(١) تفسير الألوسي " روح المعاني " ج ٢٤ ص ١٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ج ٢٤ م ٧ ص ٢٣٩ .

جاء بالصدق وصدق به ) [١] روى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : الذى جاء بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم والذى صدق به أبو بكر رضى الله عنه " [٢] . وأما حقيقته : فقيل الصدق الوفاء لله بالعمل ، وقيل موافقة السر النطق ، وقيل استواء السر والعلانية يعنى أن الكاذب علانيته خير من سريرته كالمنافق الذى ظاهره خير من باطنه [٣] .

وقيل الصدق القول بالحق فى مواطن الهلكة ، وقيل كلمة الحق عند من تخافه وترجوه [٤] .

أقول : والصدق هو التزام الحق وتحرى الصواب فى القول والعمل فى كل حال .

والصدق روح الأعمال ومحك الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال وقد أمر الله تعالى به فى آيات كثيرة ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ) [٥] وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ) [٦] ، وأخبر سبحانه وتعالى عن أهل البر بعد أن أثنى عليهم بحسن أعمالهم بقوله ( أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ) [٧] وقوله تعالى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ) ومن هذه الآية يتبين لنا أن الصدق كما يكون فى الأقوال يكون فى الأعمال الظاهرة والباطنة ، وأن الصدق هو مقام الاسلام والاحسان ، وقال تعالى : ( ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ) [٨] ومن هذه الآية يتضح لنا تقسيم الناس الى قسمين صادق ومنافق .

---

(١) الزمر الآية ٣٣ .
(٢) لسان العرب مادة صدق .
(٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٢٧٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٤ .
(٥) التوبة الآية ١١٩ .
(٦) الاحزاب الآية ٧٠ .
(٧) البقرة الآية ١٧٧ .
(٨) الاحزاب الآية ٢٤ .

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا ينجي الانسان من عذاب الله يوم القيامة الا الصدق . قال تعالى : ( هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم )(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : " فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السنبلة على ساقها ، والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد ، والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الاخلاص .

وهو من أبرز أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نشأ صلوات الله وسلامه عليه في طفولته على الصدق والأمانة في الوسط الجاهلي الذي كان مشبعا بروح الغش والخداع والخيانة وافتراء الكذب على الله وعلى الناس . وقد حث عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب صديقا ، وان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب كذابا "(٢) .

* **الآثار المترتبة على الصدق :**

أ — ان التزام الصدق في القول يؤدي الى تحري الحقيقة في كل ما يأخذ الانسان وما يدع من الأقوال ، فلا غش ، ولا خداع ، ولا مراوغة ، ولا مداهنة ، لأن ذلك كله ينافي الصدق .

ب — الصدق في الايمان يؤدي الى الاندفاع للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، والتضحية في سبيل ذلك بالمال والنفس ، وأصدق مثال على ذلك ما رواه الامام أحمد " ان المشركين يوم بدر لما دنوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : رضي الله عنه " يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال نعم ، قال بخ بخ ، قال رسول الله : وما يحملك على قول بخ بخ ؟ قال لا والله يارسول الله

---

(١) المائدة الآية ١١٩ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد واللفظ لمسلم جـ٤ كتاب البر ص ٢٠١٢ رقم ١٠٣ .

الا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فانك من أهلها ، فأخرج تمرات .. ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، انها حياة طويلة ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم .. فما زال حتى قتل (١) " وهكذا يكون الصدق في الايمان

جـ ـ الصدق في الأعمال يؤدى الى اخلاصها لله تعالى والابتعاد عن الرياء والعجب .

هذه جمل موجزة من الآثار المترتبة على الصدق فضلا عما يحصل للصادق من الراحة النفسية ، وانشراح الصدر ، يقول الحق وما يستعذب في سبيل ذلك من الصعوبات في المواقف الحرجة ارضاء لله تعالى ورسوله .

٢ ـ التواضع :

وهو لغة التذلل ، من تواضع الرجل اذا ذل (٢) .

وحقيقته : قبول الحق حيث كان ومع من كان ولين الجانب للخلق ، وهو ضد الكبر ، وقيل التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة ، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وقال الجنيد بن محمد : هو خفض الجناح ولين الجانب (٣) .

والقرآن الكريم يحث على التواضع ويجعله من صفات عباده المؤمنين .

قال تعالى : ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٤) ) ، والهون بفتح الهاء الرفق واللين والمعنى هنا بسكينة ووقار متواضعين غير أشرين ، ولا مرحين ولا متكبرين ،

---

(١) المسند جـ ٣ ص ١٣٦ ، ١٣٧ وأخرجه مسلم في كتاب الأمارة جـ ٣ ص ١٥١٠ رقم الحديث ١٤٥ .
(٢) لسان العرب مادة وضع .
(٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٣٢٩ .
(٤) الفرقان الآية ٦٣ .

" قال الحسن : علماء حلماء ، وقال محمد بن الحنفية : أصحاب وقار وعفة لا يسفهون ، وان سفه عليهم حلموا "(١) .

قال ابن كثير رحمه الله : " وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم اذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له ، .. ويروى أن عمر رأى شابا يمشي رويدا فقال : ما بالك أأنت مريض ، قال لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشي بقوة ، وانما المراد بالهون هنا السكينة والوقار "(٢)

ومن وصية لقمان لابنه وهو يعظه :

قال تعالى حكاية عنه : ( وأقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير )(٣) .

والقصد من المشي التوسط بين الدبيب والاسراع ، وقرئ بقطع الهمزة من أقصى الرامي اذا سدد سهمه نحو الرمية ، والمراد والله أعلم أن القصد عدم الاسراف وعدم التبختر والتثني ، والتوجيه القرآني يحث على الاتجاه الى الهدف المقصود بالمشية المعتدلة ، وغض الصوت قصره على مستمعيه ، وغض الصوت فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان الى صدق الحديث وقوته ، وفي قوله تعالى : " ان أنكر الأصوات لصوت الحمير " تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبني على(::) تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، وافراط في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه ، وافراد الصوت مع اضافته الى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس(٤) .

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٣٢٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٣٩ .
(٣) لقمان الآية ١٩ .
(٤) تفسير "أبو السعود" جـ ٤ ص ٣٧٨ .
(::) لعله أراد بالافراط من أفرطت السقاء ملأته والقصد ملوء القلب بالرعب .

ويأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالتواضع للمؤمنين :
قال تعالى : ( واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين )(١) وقال تعالى : ( ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك )(٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد "(٣) . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد المتواضعين ، فكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت ، وكان اذا أكل لعق أصابعه الثلاث ، وكان عليه الصلاة والسلام يكون فى بيته فى خدمة أهله ، ولم يكن ينتقم لنفسه قط ، وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب الشاة لأهله ، ويعلف البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويجالس المساكين ، ويمشى مع الأرملة واليتيم فى حاجتهما ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويجيب دعوة من دعاه ، وكان صلى الله عليه وسلم هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه بساما ، متواضعا من غير ذلة ، جوادا من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، خافض الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم " .

* <u>أثر التواضع فى حياة الانسان :</u>

المتواضع محبوب عند الله وعند الناس ، قال عليه الصلاة والسلام " ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله "(٤) . والتواضع يورث العز لأن من تذلل لله أعزه الله ، ويورث الرفعة فمن تواضع لله رفعه الله ، لذلك فالناس يجلون المتواضع ويحترمونه ،

---

(١) الحجر الآية ٨٨ .
(٢) آل عمران الآية ١٥٩ .
(٣) رواه مسلم ، الجنة ج ٤ ص ٢١٩٨ رقم ٦٤ .
(٤) رواه مسلم كتاب البر والصلة ج ٤ ص ٢٠٠١ رقم ٦٩ .

ويبغضون المتكبر ويمقتونه ويحتقرونه ، وبالتواضع تحصل الألفة وتـــزول الكلفة ، فان كان المتواضع عالما استفاد الناس منه وكثر الاقبال عليـــه وانتفعوا بعلمه بسبب تواضعه ، وان كان تاجرا أقبلوا عليه واستفادوا من صدقه وأمانته ، وان كان مسئولا حكيما أقبلوا عليه دون تهيب أو خـــوف وشرحوا قضاياهم لديه ، وحلوا مشاكلهم عنده ، وان كان مربيا استفـــاد الناس من سلوكه ، ونهجوا منهجه ، واقتدوا به فى تواضعه ، والمشاهد أن التواضع له أثر كبير فى حياة الأفراد والجماعات لا يستطيع أحـــــد نكرانه ،.

٣ ـ كظم الغيظ والعفو :

يدعو القرآن الكريم الى كظم الغيظ والعفو والصفح :

قال تعالى : ( والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، واللـــه يحب المحسنين )(١) .

وقال تعالى : ( وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره عـــلى الله )(٢) .

وقال تعالى : ( وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم )(٣) .

وقال تعالى : ( فاصفح الصفح الجميل )(٤) .

وقال تعالى : ( وأن تعفوا أقرب للتقوى )(٥) .

وكظم الغيظ حبسه ، يقال كظم غيظه أى حبسه ، قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه " والكاظمين الغيظ " هم الذين لا يعملـــون

---

(١) آل عمران الآية ١٣٤ .
(٢) الشورى الآية ٤٠ .
(٣) النور الآية ٢٢ .
(٤) الحجر الآية ٨٥ .
(٥) البقرة الآية ٢٣٧ .

غضبهم فى الناس بل يكفون عنهم شرهم مع القدرة على امضائه ، قال عليه الصلاة والسلام : " من كظم غيظا وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا "(١) .

" والعافين " أى التاركين عقوبة من استحق المؤاخذة ، فهم مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الأحوال ، جاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم " ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا "(٢) .

والقرآن الكريم يعترف بالانفعالات النفسية لأنها من طبيعة البشر والغيظ أحد هذه الانفعالات وهو ضرورى للانسان لكن القرآن هذب هذا الانفعال ودعا الى كظمه حينما يكون الذى يثيره متعلقا بحظ النفس أو حق من حقوقها الشخصية ، ولم يدع القرآن الى محوه من النفس فى كل الأحوال . فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب حينما تنتهك حرمات الله ، ولم يغضب لحقه الشخصى ، والقرآن الكريم حينما دعا الى كظم الغيظ ، قرنه بطلب العفو الصادر عن القلب حتى لا يظل حقدا دفينا وشواظا يلهب المشاعر ، أما حين يعفو ويصفح فان القلب تشرق فيه أنوار التقوى فيرتفع الانسان عن حقوق الذات محلقا فى أفق أسمى من تلك الحقوق راجيا مثوبة الله تعالى .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : " ان الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ، وشواظ يلفح القلب ، ودخان يغشى الضمير ، فأما حين تصفح النفس ، ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير "(٣) .

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب ج ٢ ص ٥٤٨ والترمذى فى كتاب البر والصلة بمعناه ج ٤ ص ٣٧٢ .
(٢) رواه مسلم ج ٤ ص ٢٠٠١ .
(٣) فى ظلال القرآن ج ٤ م ٢ ص ٧٧ .

أقول : والقرآن يقر الحق أولا ويزيل الظلم ثم يندب الى الفضل وهو العفو ، ففي قوله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " يشترط .. المثلية فى القصاص ، وكذا فى قوله تعالى : ( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم )(١) ويعقب عليها بقوله تعالى " واتقوا الله " اذ لابد من ملازمة التقوى للانسان فى حال الانتصاف والا حصل الظلم ، وكذا قوله تعالى : (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به )(٢) ويعقب عليها بقوله تعالى ( ولئن صبرتم لهو خير للصابرين )(٣) ، لكنه لما كان تحرى المثلية من الصعب بمكان ندب تعالى الى العفو فقال : ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله ) أى لا يضيع ذلك عنده سبحانه وتعالى ، والعفو أقرب الى تقوى الله تعالى.

٤ ـ <u>دفع السيئة بالحسنة :</u>

والقرآن يدعو الى ما هو أرفع من العفو وهو دفع السيئة بالحسنة ، قال تعالى : ( ادفع بالتى هى أحسن السيئة )(٤) وقال تعالى : ( ادفع بالتى هى أحسن فاذ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم )(٥) .

يرشد الله تعالى الانسان فى هاتين الآيتين الى الدواء النافع فى معاملة الناس ومخالطتهم وهو الاحسان الى المسىء ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة ، وبغضه محبة .

قال ابن كثير رحمه الله : " من أساء اليك فادفعه عنك بالاحسان اليه قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه "(٦) .

---

(١) البقرة الآية ١٩٤.
(٢) النحل الآية ١٢٦.
(٣) نفس السورة ونفس الآية .
(٤) المؤمنون الآية ٩٦ .
(٥) فصلت الآية ٣٤ .
(٦) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٠٩ .

أقول : وفى هذا تربية للنفس الانسانية على الصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشر بمثله ، وهذا لا يكون الا فى حالات الاساءة الشخصية ، أما فى حالة الاساءة الى العقيدة وانتهاك حرمات الله فيجب الرد بقوة ، والمقاومة بكل مستطاع لقوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان (١) " .

٥ — الايثــار :

هو البذل وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك .

قال تعالى فى مدح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) والايثار لا يكون بالمال فقط بل يكون بالوقت وبالجهد لرعاية مصالح الآخرين ولكن بحيث لا يؤدى ذلك الى اتلاف ما لا يجوز فى الدين ، كأن تؤثرهم بمالك وتقعد كلا مضطرا مستشرفا للناس أو سائلا ، أو تؤثرهم بوقتك الذى فيه قربة لله تعالى فتتعطل تلك القربة بسبب ذلك .

ولا يسمى ايثارا الا فى حالة الجود به مع الحاجة اليه ، سواء أكان مالا أم وقتا أم جهدا ونحوه ، قالت عائشة رضى الله عنها : ( ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولكنه كان يؤثر على نفسه (٢) ) ، ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف الى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته باطفاء السراج ،

---

(١) رواه مسلم ج ١ كتاب الايمان ص ٦٩ رقم الحديث ٧٨ .
(٢) احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٥٧ وأصله فى مسلم ، قال الحافظ العراقى أخرجه البيهقى فى الشعب بهذا اللفظ .

وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد عجب الله من صنيعكم الليلة الى ضيفكم ؟ ونزلت ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) (١) .

قال عمر رضى الله عنه : " أهدى الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : ان أخى كان أحوج منى اليه فبعث به اليه ، فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى تداوله سبعة ورجع الى الأول (٢) .

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : ان كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه ، فاذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار الى أن نعم ، فاذا رجل يقول آه ... فأشار ابن عمى الى أن انطلق به اليه ، فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال آه ... فأشار هشام أنطلق به اليه ، فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات ، فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين " (٣) .

هؤلاء هم الرهط الكرام الذين تربوا فى مدرسة النبوة ، وهم الذين استحقوا الثناء من الله تعالى فى محكم كتابه ، وهذه هى التربية العملية فى حياة المسلمين والتى ينبغى لنا أن نلتزم بها فى سلوكنا نهجا وتطبيقا .

٦ — السباق فى ميدان الخير :

ويحث القرآن الكريم على السباق فى الخير فهو ميدان الشرف الحقيقى

---

(١) رواه البخارى فى التفسير ج ٦ ص ١٨٥ .
(٢) أنظر احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٥٨ .
(٣) المصدر السابق .

وجائزة الفائز مغفرة الله وجنته ، قال تعالى : ( فاستبقوا الخيرات )[1] وقال تعالى : ( سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم )[2] ، وقال تعالى : ( وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين )[3] .

وفى وصف الله تعالى لعباده المؤمنين يقول تعالى : ( ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون )[4] ويقرر القرآن الكريم بأن السابقين هم المقربون عند الله تعالى ينالون جائزته ويتنعمون بجنته ، قال تعالى : ( والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم )[5] .

٧ — البر والاحسان :

والقرآن الكريم يدعو الى البر والاحسان ، والمراد بالبر عمل الخير أيا كان نوعه فيشمل صلة الأرحام وذوى القربى كما يشمل الصدق والطاعة

---

(١) البقرة الآية ١٤٨ ، المائدة الآية ٤٨ .
(٢) الحديد الآية ٢١ .
(٣) آل عمران الآيات ١٣٣ — ١٣٦ .
(٤) المؤمنون الآيات ٥٧ — ٦١ .
(٥) الواقعة الآية ١٠ .

والصلاح (١) ، والاحسان ضد الاساءة سواء أكان للوالدين أم الجيران أم الأقربين أم كان لغير المسلمين ، الا أن القرآن يؤكد حق الوالدين في البر والاحسان حتى قرن هذا الاحسان بعبادة الله تعالى ، قال تعالى ( وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (٢) ) وقال تعالى: ( ووصينا الانسان بوالديه احسانا (٣) ) وقال تعالى : ( ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك الى المصير ، وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا (٤) ) ، وقال تعالى : ( وبالوالدين احسانا (٥) ) .

وفي الاحسان الى ذوي القربى قال تعالى : ( ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى (٦) ) ، وقال تعالى : ( وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين (٧) ) وقال تعالى : ( وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل (٨) ) ، وقال تعالى : ( ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين (٩) ) ، وقال تعالى : ( ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب (١٠) ) .

---

(١) لسان العرب مادة برر .
(٢) الاسراء الآية ٢٣ .
(٣) الأحقاف الآية ١٥ .
(٤) لقمان الآيتان ١٤ ، ١٥ .
(٥) النساء الآية ٦ .
(٦) النحل الآية ٩٠ .
(٧) النساء الآية ٣٦ .
(٨) الاسراء الآية ٢٦ .
(٩) النور الآية ٢٢ .
(١٠) البقرة الآية ١٧٧ .

وفى الاحسان الى الجيران يقول تعالى : ( وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل )(١) .

وفى الاحسان الى غير المسلمين يقول تعالى : ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين )(٢) .

وفى الاحسان الى اليتيم قال تعالى : ( يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل )(٣) وقال تعالى : ( وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين )(٤) ، وقال تعالى : ( ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا )(٥) ، وقال تعالى : ( أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة )(٦) ، وقال تعالى : ( كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين )(٧) .

ومن الآيات السابقة يتبين لنا أيضا الحث على الاحسان الى الفقراء والمساكين ، وابن السبيل ، والأسير . وفى الاحسان الى هؤلاء جميعا حكمة عظيمة فى التشريع الاسلامى هى تنظيم التكافل الاجتماعى ، فلو أن كل موسر أنفق زكاته وصدقته الى من ذكر لندر وجود محتاج فى المجتمع الاسلامى كما حدث فى زمن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ،

---

(١) النساء الآية ٣٦ .
(٢) الممتحنة الآية ٨ .
(٣) البقرة الآية ٢١٥ .
(٤) نفس السورة الآية ٨٣ .
(٥) الانسان الآية ٨ .
(٦) البلد الآيتان ١٤ ، ١٥ .
(٧) الفجر الآية ١٧ — ١٨ .

وذلك أن عامله على مصر بعث اليه يخبره أنه لم يجد من يأخذ منه الزكاة التى جمعها فرد عليه عمر بأن يصرفها فى شراء الرقيق وعتقه ، وفى زمننا هذا وقد فجر الله ينابيع الثروة ومكن لكثير من الناس من خزائن الأرض أعتقد جازما أن الأغنياء لو أخرجوا الزكاة المفروضة وصرفوها فى مصارفها الشرعية ما بقى فقير ، ولاختفت الأيدى المتسولة ، وساد المجتمع التكافل والتعاون والتآلف والتحاب .

وبتأمل الآيات القرآنية التى تحث على اطعام الأسير والعناية به وفك رقبته من الأسر تظهر لنا الميزة العظيمة لتربية النفوس البشرية التى جاء بها الاسلام واحترامه للنفس الانسانية ، فالأسير عند الأمم الخالية كان نصيبه أن يجوع ويقتل ويسلخ جلده ، ويطعم للوحوش فى ملاعب اللهو ، هكذا دون رحمة أو شفقة وكأنه دمية من دمى الأطفال يتفكه الطفل بالعبث بها كيف يشاء ، اذ الرقيق عندهم شىء من الأشياء لا شخص من الأشخاص الحية .

ويعنى القرآن باليتيم عناية خاصة وينهى عن الاقتراب من ماله الا اذا كان فى مصلحته من استثمار وتنمية له ، قال تعالى : ( ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن )(١) ، ويجعل القرآن أكل مال اليتيم نارا فى البطون وطريقا الى عذاب السعير ، قال تعالى : ( ان الذين(٢) يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ) ويذكر القرآن الانسان بأولاده ويهز عاطفته بهم هزا رقيقا حانيا ويذكره بتقوى الله فى اليتيم الذى فقد أبويه أو أحدهما ، قال تعالى : ( وليخش الذين(٣) لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ).

---

(١) الاسراء الآية ٣٤ .
(٢) النساء الآية ١٠ .
(٣) نفس السورة الآية ٩ .

٨ ــ العـــدل :

ويدعو القرآن الى العدل لا باعتباره فضيلة يؤدى بها كل ذى حــق حقه دون أن يظلم أو يظلم ، ولكن باعتباره قاعدة عظيمة من قواعد التشريــع الاسلامى تنظم كافة العلاقات والمعاملات الانسانية سواء أكانت بـــين المسلمين بعضهم مع بعض ، أم كانت بين المسلمين وغيرهم من سائر الملــل والنحل .

والنظرة الى العدل فى الاسلام لا تقف عند الحياة المادية فحســب ولكنها تشمل جميع جوانب الحياة المادية والفكرية ، والروحية ،والسياسية والاجتماعية بل تشمل الكون كله لأن بالعدل قامت السموات والأرض ، .. (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق )(١) .

وسنعرض فى هذا البحث للعدل الاجتماعى فى الاسلام اذ بتحقيقـه تقوم الحياة الانسانية الفاضلة ، قال تعالى : ( أن الله تعالى يأمركـــم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(٢) ففى هذه الآية الكريمة تعميم صريح فى جانب الحكم بالعدل اذ جعــله حقا لكل انسان لا يغض من حقه فيه جنس أو لون أو لغة أو عقيـــدة أو مكان فى المجتمع الذى يعيش فيه . فكل انسان فى منطق البيــان القرآنى مأخوذ بالعدل ، وكل انسان له فى العدل حقوق وعليه واجبات، والخطاب موجه للولاة والحكام بالدرجة الأولى ، ويدخل فى ذلك جميــع الخلق يستدل لذلك بقوله عليه الصلاة والسلام " ان المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهــم وأهليهم وما ولــوا "(٣) .

---

(١) الحجر الآية ٨٥ .
(٢) النساء الآية ٥٨ .
(٣) رواه مسلم ــ كتاب الأمارة ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم الحديث ١٨ .

"والحياة الاجتماعية التى تربط الأفراد والجماعات برباط المنافع والتبادل للمصالح يجب أن يحكمها التعاون ويسودها العدل فلا يشعر فرد فى الأمة أنه مغبون فى نيل حقوقه ٠

فالأسرة فى البيت والمدرسة والمصنع ، والمزرعة والمتجر ، ومكاتب العمل والمساجد والنوادى والطرقات كل ذلك يجب أن يسوده العدل بأوسع معانيه وأعمق صوره "(١) ٠

يقول ابن القيم رحمه الله : " ان الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات ، فاذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه (٢) ٠

وقال تعالى : ( ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى )(٣) ، ففى هذه الآية الكريمة يأمر الله بثلاثة أمور وينهى عن ثلاثة أمور ، والعدل فى مقدمة هذه كلها للاشعار بأنه أول الفضائل العملية وهو حق عام لكل انسان ، وختم هذه الأمور بالنهى عن البغى وهو تجاوز الحد فيدخل فيه الكبر والغرور والبطر والظلم والحقد والتعدى على الحقوق ٠

قال القاضى أبو بكر العربى : " العدل بين العبد وربه ايثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر ، وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، قال تعالى : ( ونهى النفس عن الهوى ) "وعزوب الأطماع عن الاتباع

---

(١) الموسوعة فى سماحة الاسلام لشيخنا محمد الصادق عرجون ج ١ ص ٢٧٣ ٠

(٢) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم ص ٢٥ ط المنيرية ، قدم لها وعلق عليها محمود عرنوس ٠

(٣) النحل الآية ٩١ ٠

ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى . وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل وكثر ، والانصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك مساءة الى أحد بقول ولا فعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقل ذلك الانصاف من نفسك وترك الأذى "(١) .

والحياة لا تستقيم بدون العدل ، لذلك يوجه القرآن النفوس البشرية الى اقامة العدل ، ويخص المؤمنين بالخطاب فى بعض الآيات لأنهم وحدهم الذين لهم حق القوامة على أمانة الله وتبليغ دعوته وهداية خلقه ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا )(٢) ، وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى )(٣) .

بهذا الأسلوب السامى الرفيع يخاطب الله المؤمنين بهذا النداء اللطيف يحرك القرآن مشاعر تلك النفوس القوامة على أمانة الله والحاملة لدعوة الله والمبلغة هداية الله للبشرية يطلب منها اعداد نفسها اعدادا خاصا يميزها عن سائر البشر ، وذلك بأن تجعل العدل عنصرا من عناصر تكوينها حتى تكون هذه الفضيلة ديدنها فى حياتها لتبلغ بها حد الكمال وتحقيقها فى واقع الحياة .

---

(١) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١١٧٢ ط عيسى الحلبى تحقيق على محمد البجاوى .
(٢) النساء الآية ١٣٥ .
(٣) المائدة الآية ٨ .

ولا يتحقق هذا الكمال حتى يكون ( العدل ) خلقا للمؤمن يقوم به على نفسه أولا ثم يكون خلقا يقوم به المؤمن على أعز الناس عليه وأحبهم لديه وأقربهم منه ٠

والآيتان الكريمتان تحملان معنى واحدا فى الجملة هو توجيه المؤمنين أن يجعلوا العدل خلقا لهم وينهضوا به بين الناس امتثالا لأمر الله لا تحيد بهم محبة مهما عظمت أو بغض مهما اشتد عن اقامته احقاقا للحق ، وانصافا للمظلوم وانتصارا للضعيف ٠

بيد أنه يوجد اختلاف فى معنى الآيتين فى التفصيل فالآية الأولى تدعو الى اقامة العدل مراغمة كافة عواطف الحب والمودة والقرابة ، والتوجيه الكريم فى الآية الثانية يدعو المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالعدل مراغمة كافة عواطف البغض والعداوة ٠

يقول الامام الفخر الرازى رحمه الله : " وقوله تعالى :(ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا )[1] أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فيهم ٠ والآية عامة والمعنى ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم ، بل اعدلوا فيهم وان أساءوا اليكم ، وأحسنوا اليهم وان بالغوا فى ايحاشكم ، فهذا خطاب عام ، ومعناه أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدا الا على سبيل العدل والانصاف وترك الظلم والميل والاعتساف "[2] ٠

وقد تكرر الأمر بالعدل فى البيان القرآنى بصور مختلفة وأساليب متعددة ، ولا سيما ما كان تحذيرا عن الميل الى القرابة وأهل المودة ،

---

(١) المائدة الآية ٨ ٠

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٣ ص ٥٦٠ ط استانبول ٠

قال تعالى : ( واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى )(١) • قال الامام الطبرى رحمه الله : "يعنى تعالى ذكره بقوله : ( واذا قلتم فاعدلوا ) واذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم ، ولا تحملنكم قرابة قريب ، أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم اليكم فيه "(٢) •

" وانما تكرر هذا المعنى فى القرآن لأن غرائز البشرية وطبيعة تكوينها تقتضى الميل بالعطف والشفقة على القرابة وأهل المودة من الأصدقاء والاخوان ، وقد شرع الله تعالى العدل ليكون ميزانا يعرف به الحق لأهله مهما كانت صلتهم من حب وبغض فيجب أن يأخذ كل فرد حقه منه "(٣) •

٩ — الأمانة والوفاء :

الوفاء بالعهد وأداء الأمانة عنى بهما القرآن عناية بالغة كما عنيت بهما السنة النبوية تجلى تطبيقهما فى حياة المسلمين فى حوادث التاريخ وأثناء الوقائع الاسلامية وفى معاملات الأفراد والجماعات والأمم والشعوب •

وقد قرن الوفاء بالعهد أحيانا بالعدل كأثر من آثار التطبيق لمقتضاه ، وجاء أحيانا فى البيان القرآنى منفردا باعتباره عنوانا على يقظة الضمير الانسانى •

قال تعالى : ( ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله

---

(١) الأنعام ١٥٢•
(٢) أبو جعفر الطبرى فى تفسيره جـ ٨ ص ٨٦ ط الحلبى •
(٣) الموسوعة فى سماحة الاسلام لشيخنا د • محمد الصادق عرجون •

اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون (١) ...) ربط الله تعالى الوفاء بالعهد بالعدل فى هذه الآيات فى صورة تشعر بأن الوفاء هو الثمرة الجنية التى تجنيها الانسانية من دوحة العدل العظيمة ، وعقب الأمر بالوفاء بالعهد ينهى عن نقضه ، ثم قرن النهى بتهديد للناكثين بقوله تعالى ( ان الله يعلم ما تفعلون ) .

والسياق القرآنى بعد هذه الآيات يضرب لناقض العهود مثلا يصور بشاعة أفعالهم وموت ضمائرهم وخواب عقولهم بأمرأة حمقاء قضت معظم وقتها فى احكام غزلها وبعد اكتمال نسجه قامت بنكثه وأعادته خيوطا منفوشة فضيعت أيام حياتها وثمرة عملها بضعف عقلها وحمقها .

قال تعالى : ( ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا (٢) ) والاسلام يجعل الوفاء بالعهد فضيلة انسانية لا يختص بجنس أو عقيدة أو جماعة ، فهو مع الكافر كحرمته مع المسلم ، مع العدو والصديق ومع البعيد والقريب سواء .

قال تعالى : ( وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق (٣) ) وقال تعالى : ( الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين (٤) ) والوفاء بالعهد من علامة تقوى الله فالمتقى يعلم

---

(١) النحل الآيتان ٩٠ ــ ٩١ .
(٢) نفس السورة الآية ٩٢ .
(٣) الأنفال الآية ٧٢ .
(٤) التوبة الآية ٤ .

أن العهد لله تعالى وأن الانسان مسئول عن هذا العهد ، قال تعالى : ( وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا )(١) وقال تعالى : ( وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم )(٢) ، وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود )(٣) .
ويجعل القرآن الكريم الوفاء بالعهد صفة ثناء على أولى الألباب الذين يتذكرون ويدركون أن ما أنزل من عند الله هو الحق فيتبعونه ، قال تعالى: ( أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق )(٤) وجعل رعاية الأمانة والعهد من صفات المؤمنين ، قال تعالى : ( والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ) والأمر بأداء الأمانة جاء صريحا فى قوله تعالى :(ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها )(٥) وفى قوله تعالى ( فليؤد الذى أئتمن أمانته )(٦) . والأمانة هى ما يؤتمن عليه الانسان من أمور الدين والدنيا فتشمل أمانة الانسان مع خالقه ومع نفسه ، ومع أسرته ، ومع مجتمعه ، ومع سائر الناس .

" فالأمانة المطالب بها الانسان عظيمة كيف لا وقد تبرأت من حملها السموات والأرض والجبال فهو مطالب بأداء الأمانة نحو خالقه بتوحيده واخلاص العبادة له ، ومطالب بها نحو نفسه بحفظها مما يوبقها ، وحملها على ما ينفعها فى الدنيا والآخرة ، ومطالب بأدائها فى أسرته باحسان تربيتها ، والقيام على أمورها ، وفى هذا يقول تعالى :( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) ومطالب بها فى مجتمعه باتقان العمل الذى يعود بالنفع على المجتمع ، وتقديم النصح لأفراده والتواصى بالحق والصبر على الأذى فيه ، ومع سائر الناس بالتناصح والتعاون على البر والتقوى "(٧) .

---

(١) الاسراء الآية ٣٤ .
(٢) النحل الآية ٩١ .
(٣) المائدة الآية ١ .
(٤) الرعد الآيـة ٩ .
(٥) النساء الآية ٥٨ .
(٦) البقرة الآية ٢٨٣ .
(٧) الموسوعة فى سماحة الاسلام ص ٢٦٩ بتصرف .

وفي هذا التوجيه القرآني تربية للنفس الانسانية على الوفاء بالعهد وأداء الأمانة وتحذير من نكث العهد وخلف الوعد ، والخيانة ، ولهذا يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : ( لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ) (١) .

ومن الوفاء أيضا وفاء الكيل والوزن ، قال تعالى : ( وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاط المستقيم ) (٢) وقال تعالى : ( وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ) (٣) وقال تعالى : ( فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) (٤) وقال تعالى : ( وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ) (٥) وقال تعالى : ( ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ) (٦) وأنت ترى هذا الأمر مقرونا بالوعيد الشديد لمن خاست نفسه وأمتلأ بالجشع قلبه يستوفي حقه ويخسر حق غيره استحكمت فيه الأنانية فلا يرى الا نفسه يدور حولها ويلبي رغباتها ، لذلك كان جزاؤه الهلاك لأن تصرفه ينبئ عن عدم ايمانه باليوم الآخر والبعث والجزاء ( ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ) (٧) .

والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، ووفاء الكيل والوزن فضائل يربي القرآن النفوس البشرية عليها ، ويدعو الى تحقيقها والحفاظ عليها ، فمتى سادت في مجتمع حصلت الثقة بين أفراد ذلك المجتمع ، ومتى فقدت منه نخر الفساد في كيانه ، وانعدمت الثقة بين أفراده ، وحل محلها الشك والتخوف وضرب النفاق أطنابه فيه ، مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن

---

(١) رواه أحمد جـ ٣ ص ١٣٥ وغيرها .
(٢) الإسراء الاية ٣٥ .
(٣) الأنعام الاية ١٥٢ .
(٤) الأعراف الاية ٨٥ .
(٥) الرحمن الاية ٩ .
(٦) المطففين الآيات ١ — ٣ .
(٧) نفس السورة الآيتان ٤ ، ٥ .

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا أئتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر )(١) ، ومتى وجد النفاق في مجتمع ساءت حاله بكثرة الدسائس والمكر والخداع كما حصل لمجتمع المدينة فى صدر الاسلام فكم دبرت من مكائد وكم حيكت من مؤامرات ضد المسلمين ، لكن القرآن كان يتنزل على رسول الله يفضح كيدهم ويكشف مؤامراتهم ويبين خداعهم ، أما نفاق اليوم فكشفه لا يتأتى الا من خلال سلوك الناس ومعاملاتهم فيما بينهم .

## ١٠ — الصبر :

ويدعوا القرآن الكريم الى الصبر ويربى المؤمنين عليه ، وقد تكرر فى القرآن الكريم ما يقرب من تسعين موضعا ، والصبر فى اللغة الحبس والكف(٢) ، ومنه قوله تعالى : ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه )(٣) أى أحبس نفسك معهم .

وحقيقته : حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش(٤) .

وهو على ثلاثة أقسام :

( ١ ) صبر على طاعة الله .

( ٢ ) صبر عن معصية الله .

( ٣ ) صبر على امتحان الله .

فالصبر على طاعة الله يكون بالمحافظة عليها والاخلاص فيها وأدائها بمقتضى كتاب الله وسنة رسوله ، فان حافظ عليها وترك الاخلاص فيها كان

---

( ١ ) متفق عليه .
( ٢ ) اللسان مادة صبر .
( ٣ ) الكهف الآية ٢٨ .
( ٤ ) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٥٦ .

الباعث عليها غير وجه الله تعالى ، وبذلك لا تفيد الانسان شيئا بل تضره ، ومن حافظ عليها وأخلص فيها ولم يؤدها طبقا لأوامر الله كانت مردودة عليه لقوله صلى الله عليه وسلم : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد (١) " .

والصبر عن المعصية يكون بالخوف من الله والحياء منه ، الخوف من وعيده وعذابه ، والحياء من الله تبارك وتعالى من أن يستعان بنعمه على معاصيه ، ابقاء على ايمان العبد كاملا لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن (٢) " ، وحذرا من الحرام فهو يصبر عن الشهوات فيترك الشبهات ويكف عن الاسراف في المباحات خوفا من الوقوع في الحرام ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم : " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام (٣) " . والحياء من الله يدل على مراقبته ، ومتى اجتمع الخوف والحياء كانا سياجا قويا يتقي به الانسان المعاصي ، وحصنا منيعا يمنعه من هوى النفس وتسلط الشيطان .

والصبر على البلاء يكون بتسليم الأمر الى الله ، وبتذكر نعمه على الانسان التي لا تحصى ماضيها وحاضرها ، واليقين بما عند الله من الجزاء بدون حساب ( انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (٤) ) .

والصبر على الطاعات أكمل من الصبر عن المعصية ، قال ابن تيمية رحمه الله :

---

( ١ ) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم ج ٣ ص ١٣٤٣ .

( ٢ ) رواه البخاري ومسلم وغيرهما واللفظ لمسلم كتاب الأيمان ج ١ ص ٧٦ رقم ١٠٠ .

( ٣ ) رواه البخاري ج ١ كتاب الايمان ص ٢٠ .

( ٤ ) الزمر الآية ١٠ .

" أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فان مصلحة فعل الطاعة أحب الى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض اليه وأكره من مفسدة وجود المعصية "(١) .

والصبر عن المعصية أقوى وأكمل من الصبر على البلاء لأن البلاء ليس من كسب العبد وليس له فيه الا التسليم أما الصبر عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس ، ولهذا قال الامام ابن تيمية :

" كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها : أكمل من صبره على القاء اخوته له فى الجب وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فان هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة "(٢) .

ولذلك كان جزاؤه التمكين فى الأرض واعطاءه الملك وتعليمه العلم لأنه كان من المحسنين .

قال تعالى : ( انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين )(٣) والآيات التى تحث على الصبر كثيرة كما أسلفنا منها قول الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون )(٤) وقوله تعالى : ( واصبروا ان الله مع الصابرين )(٥) وقوله تعالى : ( واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور )(٦) وقوله تعالى : ( وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر )(٧) وقوله تعالى : ( وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص١٥٧ ، ص ١٥٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) يوسف الآية ٩٠ .
(٤) آل عمران الآية ٢٠٠ .
(٥) الأنفال الآية ٤٦ .
(٦) لقمان الآية ١٧ .
(٧) العصر الآية ٣ .

مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون )(١) وقوله تعالى : ( وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة )(٢).

ففي هذه الآيات حث على الصبر والمصابرة في آية آل عمران فدعــوة الى المرابطة والتقوى وفي الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى جماع الخير كله لأن الله تعالى علق الفلاح بها ، قال تعالى : ( لعلكم تفلحون ) . والمصابرة مفاعلة في الصبر ، أي مصابرة الأعداء بحيث لا ينفذ صبر المؤمنين بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى نفوسا وأثبت جأشا منهم .

ولاشك أن الأعداء يصبرون وهذه حقيقة يقررها القرآن الكريم ، ومع ذلك يدعو المؤمنين الى أن يكونوا أصبر من عدوهم وأقوى منهم على تحمل المشاق لأن المؤمنين يرجون بصبرهم وثباتهم رضوان الله والجنة ، بخلاف غيرهم فهم لا يرجون شيئا من ذلك ، ولهذا يقل صبرهم بل وينهار في أغلب الأحيان عند أدلهام الخطوب ، وهذه ميزة فريدة للمؤمنين على عدوهم قال تعالى : ( فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون )(٣) .

والمرابطة في مواقع الجهاد وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء والمرابطة للصد عن دين الله مطلوبة من كل مؤمن باللسان والسنان ، بالمال والجاه ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظا على دين الله والصبر على الأذى فيه ، والتقوى هي الحارس الذي لا يغفل يحرس النفس الانسانية من داخلها من الغفلة والضعف كما يحرسها من الاعتداء أو أن تحيد عن الطريق .

وفي آية الأنفال الحث على الصبر مقرون بوعد الله تعالى للصابرين بالمعية ، وهذه المعية هي الضمان للصابرين بالفوز والفلاح والمراد بها

---

(١) البقرة الآيات ١٥٥ — ١٥٧ .
(٢) البلد الآية ١٧ .
(٣) النساء الآية ١٠٤ .

النصر والتأييد لأنها جاءت عقب نداء الله تعالى للمؤمنين بالثبات عند احتدام المعارك ، وأمرهم بذكر الله كثيرا فى هذه المواطن ، وطاعة الله ورسوله ، ونهيهم عن النزاع حتى لا يحصل الفشل وتذهب القوة والدولة ، وبذلك وعدهم تعالى بأن يكون معهم يؤيدهم وينصرهم متى امتثلوا لأوامره وصبروا على ذلك .

وبين سبحانه وتعالى أن الصبر على البلاء من عزم الأمور أى عزما منه سبحانه وتعالى ، ولذلك أثنى الله تعالى على عبده أيوب عليه السلام بقوله تعالى : ( انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب )(١) وبشر عباده الصابرين الذين يثبتون عند المصائب والمحن ويرجعون اليه سبحانه وتعالى ويسلمون أمرهم كله لله ، بشرهم بالصلوات والرحمة من ربهم جل وعز ووصفهم بأنهم هم المهتدون الذين نالوا هداية الله ، وذكر سبحانه وتعالى بأن أهل الصبر المتواصين به هم أصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم يوم القيامة ، وفى سورة العصر جاء الصبر بعد الدعوة الى التواصى بالحق ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر عدته وعتاده ، لذلك قرنه به واتبعه اياه ، فمن لم يتحصن بالصبر لن يستطيع قول الحق ، والقرآن الكريم حينما يربى أفراد الجنس البشرى على الصبر انما يريد بذلك انشاء أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخ ، ولما كان التواصى بالحق ضرورة ، والمعوقات عن الحق كثيرة منها هوى النفس وتصورات البيئة والظلم والجور ، والخوف على المصلحة كان الصبر الذى حثت عليه الآية وختمت به سورة العصر هو الدرع الواقى من تلك المعوقات وغيرها .

---

(١) سورة ص الآية ٤٤ .

## ■ ثمرات الصبر :

والصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الأذى له ثمراته اللذيذة التي تعود على النفس الانسانية بالسعادة في الدارين • فهو أولا : زاد الرحلة القصيرة على هذه الأرض يتزود به المؤمن في كل أحواله في محاربة النفس ، ومدافعة الهواء ، ومعاركة الأعداء ، ومجادلة الملحدين ، ومخاصمة المبتدعين • وهو ثانيا : العدة القوية في الدعوة الى الله فمن ملكها تربع على عرش القلوب واستولى على مفاتيح النفوس • وهو ثالثا : يعطي الانسان سعادة في نفسه وسرورا في قلبه يعيش بهما هادئا مطمئنا لأنه استحق محبة الله ، قال تعالى : ( والله يحب الصابرين )(١) • وهو رابعا : يدفع المؤمن الى مضاعفة الجهد في سبيل اعلاء كلمة الله رغبة فيما عند الله من الجزاء الأوفى • لقوله تعالى : ( ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون )(٢) وانتظارا للمدد من الله تعالى في النصرة والتأييد ، لقوله تعالى : ( بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم ••• )(٣) ، كما يأمن المؤمنون كيد أعدائهم فمهما كادوا لهم لن يضرهم ، قال تعالى : ( وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا )(٤) والتواصي بالصبر يبعث احساس لدى الناس بوحدة الهدف فيحصل التساند والتعاون على الخير كما تسودهم المحبة والألفة ووحدة العزيمة وقوة الارادة التي لا حياة لأمة الا بها ، ولما كان الصبر عونا على الشدائد كلها كان عونا على دفع السيئة بالحسنة ، قال تعالى : ( وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم )(٥) •

---

(١) البقرة الآية ١٤٦ •
(٢) النحل الآية ٩٦ •
(٣) آل عمران الآية ١٢٥ •
(٤) نفس السورة الآية ١٢٠ •
(٥) فصلت الآية ٣٥ •

## ■ آداب :

ان القرآن الكريم يضع قواعده الفريدة فى الآداب حرصا على سلامة النفوس وطهارتها ، وبناء المجتمع النقى النظيف الذى يسود أفراده العفة والاحترام كما تحول دون نشوء المفاسد ووقوع الجرائم .

وهذه القواعد بمثابة السياج الواقى الذى يحمى الانسان من الوقوع فيما لا ينبغى وارتفاع به الى مستوى يليق به كانسان مهذب يشعر بالتبعة الملقاة عليه من قبل الله كخليفة فى هذه الأرض ، منها :

### ١ ــ الاستئذان :

قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴿ فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ) .

خصص الله تعالى الناس بالبيوت فجعلها سكنا وأمنا سترهم فيها عن الأبصار حفاظا على الحرمات وسترا للعورات واطمئنانا للنفوس وراحة للأعصاب ، حظر على غير أهلها أن يطلعوا على ما فيها أو يدخلوها بغير اذن أهلها ، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخليين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات ، وقد تلتقى بمفاتن تثير الشهوات فينتج عن ذلك المفاسد والانحرافات . لذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب الرفيع فجعل الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها وموافقتهم على دخولها شرطا لابد منه قبل الدخول اليها لأن الشريعة الالهية عندما تحرم الجريمة ، فانها تضرب بينها وبين الانسان بسياج يمنع أسبابها ودواعيها ووسائلها حتى يقف الانسان بعيدا عنها لا يكاد يراها .

والخير المحض للانسان فى منعه من الأسباب والبواعث المؤدية الى الجريمة ، والتسليم على أهلها كيفية فى الاذن ، ووجه التعبير عن الاستئذان بالاستئناس أنه مثله فى معنى الاستعلام ، (١) قال الأستاذ المودودى : ( الاستئناس أعم وأشمل من كلمة " الاستئذان وغيره " وفسر ذلك بمعرفة أنس أهل البيت بدخولكم عليهم. (٢)

وحكمة التعداد فى الاستئذان : أن الأولى استعلام ، والثانية تأكيد ، والثالثة اعذار " (٣) قال عليه الصلاة والسلام : " اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " (٤) ، وقد كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم طبقها على نفسه الشريفة ، عن قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : ( السلام عليكم ورحمة الله " فرد سعد ردا خفيا ، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " السلام عليكم ورحمة الله " فرد سعد ردا خفيا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السلام عليكم ورحمة الله " ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد ، فقال ( يارسول الله انى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام ، قال فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٥).

والمراد بالبيوت غير المسكونة : الفنادق وما فى حكمها من البيوت المعدة للضيوف والأماكن التى للناس فى دخولها اذن مشاع.

---

(١) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١٣٥٩.
(٢) تفسير سورة النور للأستاذ المودودى ص ١٤٢ ط دار الفكر.
(٣) أحكام القرآن لابن العربى جـ ٣ ص ١٣٥٩.
(٤) رواه البخارى ومسلم.
(٥) رواه أبو داود — كتاب الأدب جـ ٢ ص ٦٣٨ .

وكما كان الأمر بالاستئذان فى الآيات عاما فى الأشخاص والأوقات فانه فى الآيات التالية خاصا بأشخاص وأوقات ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ) (١) .

ان الاسلام منهج حياة كامل فكما تكفل ببيان التكاليف الشرعية وأحكام المعاملات بين الناس تكفل أيضا ببيان الآداب اليومية ، وقد سبق ذكر أحكام الاستئذان على البيوت ، وفى هذه الآيات بيان لأحكام الاستئذان فى داخل البيوت .

فالرقيق والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون البيوت عادة بدون استئذان الا فى ثلاثة أوقات لأنها مظنة ان تنكشف فيها العورات وهى قبل صلاة الفجر ووقت القيلولة عند الظهيرة ، وبعد صلاة العشاء ، وفى هذه الأوقات تخلع فيها الملابس فى العادة وتغير بأخرى ، وهى أوقات خلوة يستريح فيها الانسان مع أهله ، وشرع الاستئذان فى هذه الأوقات لمن ذكر كى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم ، وفى هذا من الأدب الرفيع ما يغفل عنه كثير من الناس .

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : " وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية والعصبية ، والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم الى عورات السادة ، وأن الصغار قبل

---

(١) النور الآيتان ٥٨ — ٥٩

البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر ، بينما يقرر النفسيون اليوم أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها "(١).

أما حين يبلغ الأطفال سن البلوغ فانهم يستأذنون كما استأذن الكبار من قبلهم فى كل وقت وليس الأوقات الثلاثة فحسب . وهكذا يبين الله تعالى شرائعه وأحكام دينه للناس ويأتى التعقيب بقوله تعالى : " والله عليم حكيم " لأن المقام مقام علم الله تعالى بأحوال النفوس وتغيرات القلوب ومقام حكمة فى تقديم العلاج الناجح لاصلاحها ووقايتها .

٢ ـ غض البصر :

من توجيهات القرآن الكريم يظهر فى الآيات التالية معنى الوقاية جليا . وقاية النفس الانسانية مما يجرها الى معصية الله ، وبالتالى وقاية المجتمع الانسانى من الوقوع فى حضيض الرذيلة : قال تعالى :

( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون )(٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٨ م ٦ ص ١٢٣ .

(٢) النور الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

ومعنى الغض لغة النقص والخفض والوضع (١) . ومعناه بهذا الاعتبار أن لا ينظر الى شيء بملء العين وأن يكف النظر عما لا يحل له بخفضه الى الأرض ، ففي الآيتين أمر بغض الأبصار وستر العورات واخفاء الزينة ، أما غض الأبصار وستر العورات فالأمر فيه مشترك بين الرجال والنساء في الآية الأولى ، لأن الخطاب يشمل الذكر والأنثى كقاعدة القرآن الكريم في كل خطاب عام ، الا أن الله تعالى قد يخص الاناث بالخطاب كتأكيد للخطاب العام كما أكده هنا في الآية الثانية . وأما اخفاء الزينة فهو حكم خاص بالنساء يطلب منهن عدم ابداء زينتهن لغير المحارم ومن يحل لهن كالأزواج وذلك حذرا من الفتنة ، وبدأ بالأمر بغض الأبصار قبل الأمر بحفظ الفروج ، لأن البصر رائد القلب ، قال الشاعر :

ألم تر أن العين للقلب رائد ∴ فما تألف العينان فالقلب آلف

وفي الخبر : " النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي أبدلته ايمانا يجد له حلاوته في قلبه " (٢) . فلا يحل للرجل أن ينظر الى المرأة ، ولا للمرأة أن تنظر الى الرجل ، فان علاقتها به كعلاقته بها وقصدها منه كقصده منها (٣) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " (٤) .

---

(١) لسان العرب جـ ٧ مادة غضض ص ١٩٧ .
(٢) رواه الطبراني وفيه عبدالله بن اسحاق الواسطي وهو ضعيف . أنظر مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٦٣ .
(٣) أحكام القرآن لابن العربي جـ ٣ ص ١٣٦٧ .
(٤) رواه أحمد جـ ٢ ص ٢٧٦ وغيرهما .

وفى قوله تعالى : " ذلك أزكى لهم " بمعنى أن غض البصر وحفظ الفرج أطهر للانسان من الذنوب وأنمى لأعماله فى الطاعة (١).

قال ابن جرير : " يقول : فان غضها من النظر عما لا يحل النظر اليه ، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين أطهر لهم عند الله وأفضل " (٢).

أقول : وفى التعبير بـ " من " التبعيضية فى الآيتين معنى رائع من روائع البيان القرآنى ، ذلك أن الله تعالى العليم بمصالح عباده أباح النظر الى أشياء ، قال تعالى : ( قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض ) فلو كان الأمر بغض الأبصار مطلقا لتعذر النظر فى السموات والأرض كما يتعذر النظر الى الأزواج وذوى المحارم ولكان الانسان مؤاخذا على نظرة الفجاءة ولكن فى التعبير بـ " من " انتفى ذلك كله وقصر الحظر على ما لا يحل النظر اليه ، قال ابن العربى رحمه الله :

وللعلماء فى ذلك ثلاثة أقوال :

الأول : أن غض الأبصار مستعمل فى التحريم ، لأن غضها عن الحلال لا يلزم ، وانما يلزم غضها عن الحرام ، فلذلك أدخل حرف التبعيض فى غض الأبصار ، فقال من أبصارهم .

الثانى : أن فى نظر العين ما لا يحرم ، وهو النظرة الأولى فمازاد عليها محرم ، وليس من أمر الفرج شيء ما يحلل .

الثالث : أن فى النظر ما يحرم ، وهو ما يتعلق بالأجانب ، ومنه ما يحلل ، وهو ما يتعلق بالزوجات وذوى المحارم ، بخلاف الفرج فان ستره واجب فى الملأ والخلوة ، لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى ج ٣ ص ١٣٦٦.

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ج ١٨ ص ١١٦.

معاوية بن حيدة القشيرى ، قال : قلت يارسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : احفظ عورتك الا من زوجك أو ما ملكت يمينك ، فقال الرجل يكون مع الرجل ؟ قال ان استطعت أن لا يراها أحد فافعل ، قلت : فالرجل يكون خاليا ؟ قال : الله أحق أن يستحيا منه "(١).

وفى قوله تعالى : " وليضربن بخمرهن على جيوبهن " فيه أمر باسدال الخمر وهى المقانع على الجيوب أى الأعناق والصدور وذلك محافظة على اخفاء الزينة التى لا ينبغى أن يراها من لا يحل له .

ومن هذه التربية الفريدة نذكر أنموذجا لأثرها فى نفوس الصحابيات الجليلات رضى الله عنهن فما أن سمعن هذه الآية الكريمة حتى بادرن بالامتثال سامعات مطيعات مطبقات لمضمون الآية ، قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : " رحم الله نساء المهاجرات الأول لما نزل ( وليضربن بخمرهن على جيوبهن ) شققن مروطهن — وفى رواية شققن أزرهن — فاختمرن بها "(٢) ، فالاستجابة السريعة منهن تدل على مدى ما وصلن اليه — رضى الله عنهن — من ايمان عميق بالله ورسوله ، ومستوى رفيع من الأدب مع الله ورسوله .

٣ — التحية وردها :

والتحية أمر هام فى نظر الاسلام ، لذلك كان الاستئذان مقرونا بالسلام " السلام عليكم أدخل ؟ " .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الأدب من جامعه ج ٥ ص ٩٧ وقال هذا حديث حسن . ورواه أبو داود فى — السنن — الحمام ج ١ ص ٣٦٤ ، ورواه ابن ماجه فى السنن كتاب النكاح ج ١ ص ٦١٨ .

(٢) رواه البخارى ج ٦ تفسير ص ١٣٦ .

قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها )(١) .

وقال تعالى : ( فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة )(٢) أى فليسلم بعضكم على بعض ، وهو الراجح من الأقوال فى هذه الآية واختاره ابن جرير رحمه الله(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : " أفلا أدلكم على أمر اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم "(٤) ، أى أن السلام مفتاح القلوب ولذلك كان الأمر برد التحية بأحسن منها ، أو ردها بمثلها ، قال تعالى : ( واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها )(٥) ، وكان الندب الى الأفضل لما فى ذلك من ادخال السرور على القادم لأن لكل قادم دهشة . والسلام ليس قاصرا على المعروفين فقط ولكن ينبغى أن يشيع بين الجميع لقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث ( .. وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف "(٦) ، ولا يخفى ما فى ذلك من اشاعة الألفة وازالة الوحشة بين أفراد المجتمع الاسلامى .

٤ — أدب الجلوس :

والقرآن الكريم يدعو الى الأدب فى الجلوس مع الناس ، ويتولى تربية النفوس على ذلك وتعليمها السماحة والطاعة ، ويستعمل أسلوب التشويق ، وبذلك يتحول الشعور من حب الذات الى ايثار الغير على النفس .

---

(١) النور الآية ٢٧ .
(٢) نفس السورة الآية ٦١ .
(٣) ابن جرير جـ ١٨ ص ١٧٥ .
(٤) رواه أبو داود فى السنن — كتاب الأدب — جـ ٢ ص ٦٤٠ .
(٥) النساء الآية ٨٦ .
(٦) أبو داود جـ ٢ ص ٦٤١ .

قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير )(١) .

ففى الآية الكريمة أمر للمؤمنين بالافساح فى المجالس ووعد لهم بالافساح من الله والسعة فى كل ما يريدون التفسح فيه من المكان والرزق ، والصدر ، والقبر وغيرها ، ووعد لمن أطاع الأوامر برفعة من الله وذلك جزاء تواضعهم وسرعة استجابتهم والرفعة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر ، وحسن الذكر فى الدنيا ، والايواء فى غرف الجنان الرفيعة فى الآخرة ، ومن رفعه الله لن يوضع أبدا .

٥ ـ أدب الحديث :

ويدعو القرآن الى استعمال الألفاظ المهذبة فى الحديث مع الناس قال تعالى : ( وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا )(٢) ، وقال تعالى : ( وقولوا للناس حسنا )(٣) وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى اليه تحشرون )(٤) .

ففى الآية الأولى يأمر الله عباده باختيار أحسن الأقوال فى محادثاتهم ويحذرهم من نزغات الشيطان ويذكرهم بأن عداوة الشيطان للانسان قديمة فهو دائما يحاول الافساد بين الناس فالكلمة الخشنة يعقبها الرد السىء ، يتلو ذلك تفكك عرى الأخوة وذهاب الود والمحبة ، ويحل محلها

---

(١) المجادلة الآية ١١ .
(٢) الاسراء الآية ٥٣ .
(٣) البقرة الآية ٨٣ .
(٤) المجادلة الآية ٩ .

الخلاف والجفوة ، ويتضح لنا معنى عظيم من قوله عليه الصلاة والسلام " الكلمة الطيبة صدقة "(١) ذلك أنها تفتح القلوب وتأسو جراحها وتؤلف بين الأفراد وتجمعهم على الود والاخاء ، والسماحة والندى ،وأى صدقة أعظم شأنا منها ؟ .

وفى الآية الثانية : قال ابن كثير : ( " وقولوا للناس حسنا " أى كلموهم طيبا ، لينوا لهم جانبا ، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، كما قال الحسن البصرى فى قوله تعالى : " وقولوا للناس حسنا " فالحسن القول يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسنا كما قال الله ، وهو كل خلق حسن رضيه الله .. ثم قال : وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعدما أمرهم بالاحسان اليهم بالفعل ، فجمع بين طرفى الاحسان الفعلى والقولى "(٢) .

قلت : وهو فى هذا يشير الى ما تقدم فى الآية من الأمر بالاحسان للوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين .

وفى الآية الأخيرة نهى عن التناجى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، والتناجى هو المسارة بين شخصين فأكثر . الا أن هذا النوع من التناجى من الخطورة بمكان على حياة الأمة المسلمة فهو صفة من صفات المنافقين والنجوى على هذا النحو من ايحاء الشيطان ، وهنا تكمن الخطورة على حياة المجتمع الاسلامى بما يترتب على هذه النجوى من البلبلة فى الصفوف ، وما ينتج عن ذلك من تمزق لوحدة الكيان المسلم، وتشتت لقواه وذهاب لريحه ، وفى الآية دعوة الى التناجى بالبر والتقوى

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٣ .

وهذا هو الذى يليق بهم ، كما يذكرهم الله تعالى فى الآية بالخوف منه وردهم اليه ورقابته عليهم بقوله " واتقوا الله الذى اليه تحشرون " ٠

ونكتفى بهذا القدر من الأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة التى يدعو اليها القرآن ويربى الانسانية عليها ٠

ونشرع فى ذكر نماذج من الأخلاق الذميمة التى نهى عنها القرآن الكريم وحذر منها صيانة للنفس الانسانية عما يترتب على هذه الأخلاق من المفاسد وارتفاعا بها الى درجة من السمو الخلقى والكمال النفسى ٠

ومما لا يخفى أن كل خلق كريم دعا اليه القرآن وأمر به وحث عليه يدخل ضمنه نهى عن خلق ذميم يقابله ، ذلك لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده ، فمثلا : أمر الله تعالى بالصدق وحث عليه ، وفى هذا نهى ضمنى عن الكذب وشهادة الزور ، والافتراء واليمين الكاذبة ٠

لكن مع هذا لم يترك القرآن الكريم الأمر بهذا الاجمال بل سمى كل خلق ذميم باسمه ونهى عنه وحذر منه وبين فى كثير من الحالات المفاسد المترتبة على فعله ( ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة ) ٠

١ ــ __الكـذب :__

هو لغة : نقيض الصدق (١) ، وحقيقته ما خالف الواقع ٠

قال تعالى : ( انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون ) (٢) ٠

---

(١) لسان العرب مادة كذب ٠

(٢) النحل الآية ١٠٥ ٠

والكذب خصلة من خصال المنافقين : قال تعالى : ( ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ماكانوا يعملون )(١) ، وقال تعالى : ( ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين )(٢) ، والافتراء صنوه ومرادفه قال تعالى : ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا )(٣) ، وقال تعالى : ( وقد خاب من افترى )(٤) وقال تعالى : ( ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم )(٥) ... الى غير ذلك من الآيات .

فالكذب اذا ، جريمة عظيمة لا يقدم عليها الا المجرمون المنافقون ومن على شاكلتهم ، أما المؤمن فلا يمكن أن يكون كذابا بدليل الآية الأولى فى هذه المجموعة " انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ... الآية ) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المؤمن أيكون كذابا قال لا ، روى الامام مالك رحمه الله عن صفوان بن سليم أنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال " نعم " فقيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ فقال " نعم " فقيل له أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال " لا "(٦) .

والكذب وحده جريمة لكن المنافقين لما كانوا يعرفون أن كثيرا من المسلمين يفهمون كذبهم أردفوا كذبهم بالحلف محاولة منهم تغطية نفاقهم وستر خداعهم ، لكن القرآن الكريم كان يفضح مخازيهم . قال تعالى : ( اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم

---

(١) المجادلة الآيتان ١٤، ١٥ .
(٢) الانعام الآية ٢١ .
(٣) هود الآية ١٨ .
(٤) طه الآية ٦١ .
(٥) النحل الآيتان ١١٦، ١١٧ .
(٦) رواه مالك فى الموطأ ص ٦١٢ ط الشعب من كتاب الكلام رقم الحديث ٨٩ والحديث حسن مرسل قال بذلك : أبو عمر ، أنظرت محمد فؤاد عبدالباقى على الموطأ .

انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون )(١) . وقد توعد الله الكاذبين بسوء المصير وبالعذاب الأليم ، ووصف الكاذبين بأنهم بعيدون عن الفلاح ، ومعنى ذلك أنهم فى شقاء فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة .

## ٢ — الرياء :

والرياء نوع من النفاق ، وهى صفة ملازمة للمنافقين ، قال تعالى : ( والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا )(٢) ، وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ..)(٣) وقال تعالى : ( فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون )(٤) ، وقال تعالى : ( واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس)(٥) .

كل هذه الآيات تحذر تحذيرا شديدا من الرياء ، ففى الآية الأولى من هذه المجموعة يجعل القرآن الكريم المرائى قرين الشيطان لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وفى الثانية نهى للمؤمنين عن المن والأذى فى الصدقات وتحذير لهم من التشبه بالمرائين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وفى الآية الثالثة وعيد شديد للمتهاونين بالصلاة المرائين فيها ، وفى الآية الرابعة وصف للمنافقين فى حالة قيامهم للصلاة. والرياء نوع من الكذب لأن صاحبه يبطن خلاف ما يظهره فهو فى الحقيقة نوع من النفاق .

---

(١) المنافقون الآيتان ١ ، ٢ .
(٢) النساء الآية ٣٨ .
(٣) البقرة الآية ٢٦٤ .
(٤) الماعون الآيات ٤ — ٦ .
(٥) النساء الآية ١٤٢ .

٣ — قول الزور ، وشهادة الزور :

وقول الزور أعم من شهادة الزور لأنه يشمل كل قول مزين يريد به صاحبه الباسه ثوب الحق وهو باطل ، لذا حذر القرآن الكريم منه قال تعالى : ( واجتنبوا قول الزور ) (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ألا وقول الزور ثلاثا .

وقد جعل القرآن الكريم الامتناع عن شهادة الزور صفة من صفات عباد الرحمن ، قال تعالى : ( والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما ) (٢) . وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهادة الزور وجعلها عدل الاشراك بالله ، فعن خريم بن فاتك رضى الله عنه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، فلما انصرف قام قائما فقال : " عُدِلَتْ شهادة الزور بالاشراك بالله " ثلاث مرات ثم قرأ ( واجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ) " (٣) .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وقول الزور " ثلاثا ، ثم قال : " هل بلغت " ثلاثا (٤) . وقد عدت شهادة الزور من الكبائر ، فعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أكبر الكبائر الاشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور ، أو قال شهادة الزور " (٥) . وفى الجانب المقابل ينهى القرآن الكريم عن كتمان الشهادة بالحق ، قال تعالى : ( ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ) (٦) ، وقال تعالى : ( وأقيموا الشهادة لله ) (٧) وقال تعالى :

---

(١) الحج الآية ٣٠ .
(٢) الفرقان الآية ٧٢ .
(٣) رواه أبو داود — الاقضية ج ٢ ص ٢٧٤ وابن ماجه الاحكام ج ٢ ص ٧٩٤ ، وأحمد ج ٤ ص ١٧٨ .
(٤) رواه البخارى — كتاب العلم ج ١ ص ٣٤ .
(٥) رواه البخارى ج ٩ ص ٤ .
(٦) البقرة الآية ٢٨٣ .
(٧) الطلاق الآية ٢ .

( ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله )(١) ، وحذر القرآن الكريم من كتمان ما بينه الله تعالى من الآيات فى كتبه ، وتوعد من فعل ذلك بالطرد من رحمته بلعنته ولعنة الملائكة والناس أجمعين ، قال تعالى: ( ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون )(٢) .

٤ — الجهر بالسوء :

وقد عنى القرآن الكريم بتطهير الضمير الانسانى بمقدار عنايته بتربية العقيدة الصحيحة فى النفوس حتى سما المجتمع الاسلامى الشريف النظيف فى صدر الاسلام وفاق على كل المجتمعات فاستحق قيادة البشرية . قال تعالى : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما ، ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا )(٣) . قال أبو السعود رحمه الله : " وعدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه ، أى لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء الا من ظلم أى جهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مسخوط عنده سبحانه "(٤) .

أقول : فى هذه الحالة يجوز للمتظلم أن ينتصر ممن ظلمه دفعا لعدوان ورد السوء وقع عليه(٥) ، قال تعالى : ( ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل )(٦) . وقال تعالى : ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) وبهذا الحق الذى أعطاه القرآن الكريم للمظلوم يتحقق العدل والانصاف لأن ذلك هو الهدف لا مطلق التشهير ، اذ الاسلام يحمى المجتمع كله من اساءة السمعة ويحمى الأخلاق من أن تدنس ، لكنه فى نفس

---

(١) البقرة الآية ١٤٠ .
(٢) نفس السورة الآية ١٥٩ .
(٣) النساء الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٤) تفسير "أبو السعود" ج ١ ص ٨٠٤ .
(٥) الشورى الآية ٤١ .
(٦) نفس السورة الآية ٤٠ .

الوقت يرى عدم حماية الظالم التزاما منه بجانب العدل ، ومع هذا فهو يندب الى العفو عند المقدرة لأنها الصفة المثلى فهو يدعو المؤمنين ويوجههم الى التخلق بها لأنها من أخلاق الله ، قال تعالى : (ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا)(١) ، وقال تعالى : ( وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم)(٢) ، وقال تعالى: ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله)(٣) ، وقال تعالى : ( ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)(٤) .

٥ ــ اليمين الكاذبة :

واليمين الكاذبة هى من قول الزور ، لذلك حذر القرآن الكريم من تعاطيها وقرر أن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة وتوعدهم رب العزة بعدم كلامه لهم ونظره اليهم يوم القيامة ، وذلك كناية عن شدة سخطه تعالى عليهم ، كما توعدهم بالعذاب الأليم .

قال تعالى : ( ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)(٥) .

وقال تعالى : ( ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها)(٦)
وقال تعالى : ( ويحلفون على الكذب وهم يعلمون)(٧) .

---

(١) النساء الآية ١٤٩ .
(٢) التغابن الآية ١٤ .
(٣) الشورى الآية ٤٠ .
(٤) نفس السورة الآية ٤٣ .
(٥) آل عمران الآية ٧٧ .
(٦) النحل الآية ٩٤ .
(٧) المجادلة الآية ١٤ .

ففى هاتين الآيتين ينهى عن اتخاذ الأيمان دخلا أى خيانة وغدرا ويصف أولئك الذين يحلفون على الكذب بالعلم أى يعلمون أن الحلف بالكذب حرام ، ومع هذا فهم يرتكبونه ويتخذون الأيمان وسيلة لتحقيق مآربهم الدنيوية التافهة .

والقرآن الكريم يدعو الى عدم الاكثار من الحلف بحيث تصبح عرضة أى حاجزا تمنعهم عن الخير ، ذلك أن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة الرحم أو احسان الى الغير ، أو اصلاح بين الناس بأن لا يفعل كذا ثم يمتنع عن فعله محللا لذلك بأنه قد حلف أن لا يفعله ، فنهوا عن ذلك الحلف (١) ، قال تعالى : ( ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ) (٢) .

واليمين الكاذبة هى اليمين الغموس التى عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ، روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس " (٣) ، ومعناها أن يحلف امرؤ على شيء وهو يعلم أنه كاذب وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الاثم ثم فى النار ، وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان" فأنزل الله تصديق ذلك" ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا .. الى آخر الآية " (٤) الى غير ذلك من الأحاديث .

---

(١) تفسير الشوكانى ج الأول ص ٢٣٠ بتصرف .
(٢) البقرة الآية ٢٢٤ .
(٣) رواه البخارى ج ٨ ص ١٧١ كتاب الأيمان .
(٤) المصدر السابق ص ١٧١ .

وفى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تربية للضمير الانسانى ، وتطهير له من الحلف الكاذب وأبعاده عن الطمع وترويضه على القناعة وعدم التطلع الى ما عند الآخرين ، والزام له بالسلوك القويم وتعويد له على قول الصدق ومجانبة الكذب وتمرين له على قبول الحق وأخذ الحق منه وله .

٦ — الهمز واللمز والنبز والسخرية :

والهمز : هو العيب بالغيب والهماز والهمزة الذى يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم وهو مثل العيبة يكون ذلك بالشدق والعين والرأس (١) .

واللمز : كالغمز في الوجه تلمزه بفيك بكلام خفى ، ورجل لمزة يعيبك فى وجهك ، ورجل همزة يعيبك فى الغيب ، وقال الزجاج الهمزة اللمزة الذى يغتاب الناس ويغضهم (٢) .

والنبز : بالتحريك اللقب من نبزه ينبزه نبزا أى لقبه والتنابز التداعى بالألقاب (٣) .

والسخر والسخرية : الاستهزاء من سخر منه اذا هزئ به (٤) .

وهذه الصفات الخبيثة لا يتصف بها الا انسان حقير يجد فى نفسه حسدا للآخرين وحقدا عليهم فيتجه الى ذم الناس والغض من شأنهم والسخرية منهم تغطية لما يجده فى نفسه من الحقارة والدناءة وهو

---

(١) لسان العرب مادة همز جـ ٥ ص ٤٢٦ .
(٢) المصدر السابق ، مادة لمز جـ ٥ ص ٤٠٦ .
(٣) المصدر السابق ، مادة نبز جـ ٥ ص ٣١٣ .
(٤) المصدر السابق مادة سخر جـ ٤ ص ٣٥٢ .

ما يسميه علماء النفس " بمركب النقص " ، لذلك فالقرآن الكريم ينهى عن الاتصاف بهذه الصفات ويحذر منها ويتوعد أولئك الذين انحطت نفوسهم بالعذاب الأليم ويصمهم بالظلم والفسوق .

قال تعالى : ( ويل لكل همزة لمزة ) (١) ، وقال تعالى : ( الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم ، فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ) (٢) وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (٣) )

وبهذه الآيات الكريمة تتضح عناية القرآن الكريم بكرامة النفس الانسانية وكرامة المجتمع الاسلامي بتحريم ما يؤدى الى تفككه وضعف تماسكه اذ كرامة الفرد من كرامة الجماعة ولمز أى فرد هو لمز للجماعة ، وبهذا جاء التعبير القرآني " ولا تلمزوا أنفسكم " .

كما أن القرآن الكريم يشير في الآية الأخيرة من هذه المجموعة الى أن القيم الأرضية الظاهرة التى تعارف عليها الناس من غنى وفقر ، وجمال وقبح ، وقوة وضعف الى غير ذلك ليست هذه هى القيم الحقيقية التى يوزن بها الناس عند الله ، فالمقياس الصحيح هو مقدار مكانة الانسان عند الله وارتباطه به وتوجهه اليه . ومع ذلك فالقرآن الكريم يهز العاطفة الايمانية ويذكر المؤمنين بأن من حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ، ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه ، وهذه احدى قواعد الأدب النفسي في القرآن الكريم .

---

(١) الهمزة الآية ١ .
(٢) التوبة الآية ٧٩ .
(٣) الحجرات الاية ١١ .

٧ — الظن والتجسس والغيبة :

القرآن الكريم يتتبع بواطن النفوس الانسانية وهواجسها ، فيربيهـــا ويهذبها ويبعدها عن ما من شأنه أن يوقع العداوة والخصام بين أفـــراد الأمة ومن ذلك الظن الذى لا دليل عليه وهو الشك ، اذ كان لـــه أسوأ الأثر فى نفوس الأفراد والجماعات .

لذلك فالقرآن الكريم يدعو الى اجتناب كثير من الظن ، ويصم بعضه بالاثم ، والمراد به ترك تحقيق الظن الذى يضر بالمظنون به ، وكـذا ما يقع فى القلب من غير دليل . قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنـــوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتـــب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقـوا الله ان الله تواب رحيم )(١) .

قال القرطبى رحمه الله : " أى لا تظنوا بأهل الخير سوءا ان كنـــتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير "(٢) وثبت فى الصحيحين عن أبى هريـــرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " اياكم والظن فـــان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافســـوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا .. "(٣) قال القرطبى : قال علماؤنا ، فالظن هنا وفى الآية هو التهمة ومحـــل التحذير والنهى انما هو تهمة لا سبب لها يوجبها ، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، ثم قال : ودليـــل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى : " ولا تجسسوا وذلك انه قـــد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنـــه ،

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٣١ .
(٣) رواه الشيخان واللفظ لمسلم ، ففى مسلم جـ ٤ كتاب البر ص ١٩٨٥ وفـــى البخارى جـ ٧ كتاب النكاح ص ٢٤ .

ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك (١) .

قال الحافظ ابن حجر : دل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهى عن الخوض فيه بالظن ، فان قال الظان : أبحث لا تحقق ، قيل له : ( ولا تجسسوا ) فان قال تحققت من غير تجسس قيل له : ( ولا يغتب بعضكم بعضا ) .. ثم قال : " وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث ، مع أن تعمد الكذب الذى لا يستند الى ظن أصلا أشد من الأمر الذى يستند الى الظن ، فللاشارة الى أن الظن المنهى عنه هو الذى لا يستند الى شيئ يجوز الاعتماد عليه ، فيعتمد عليه ويجعل أصلا ويجزم به ، فيكون الجازم به كاذبا ، وانما صار أشد من الكذب لأن الكذب فى أصله مستقبح مستغنى عن ذمه ، بخلاف هذا فان صاحبه بزعمه مستند الى شيئ فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة فى ذمة والتنفير منه ، واشارة الى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبا ووضوح الكذب المحض (٢) " .

والتحسس والتجسس : قيل هما بمعنى واحد ، وقيل بالجيم البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال فى الشر — وبالحاء استماع حديث القوم ، أو البحث عما يدرك بحاستى العين والأذن ، وقيل بالجيم تتبع الشخص لأجل غيره ، وبالحاء تتبعه لنفسه وهذا الأخير اختيار ثعلب (٣) .

قال الراغب : أصل الجس مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم ، وهو أخص من الحس فان الحس تعرف ما يدركه الحس ، والجس تعرف حال ما من ذلك ، ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس (٤) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٣١ .
(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٨٢ .
(٤) مفردات الراغب ص ٩٣ .

والتجسس بهذا المعنى حرام بنص الكتاب والسنة لأن ذلك يؤدى الى عدم الثقة بين الأفراد والجماعات ، والقرآن الكريم جعل لكل فرد حرمة لا يجوز لأحد انتهاكها فى تجسس أوغيره من تتبع للعورات . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع العورات من صفات المنافقين وحذر تحذيرا شديدا من ذلك وتوعد من فعل ذلك بالفضيحة ولو فى بيته .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : " صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فنادى بصوت رفيع فقال : " يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه إلا لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله ".(١)

ولهذا كان لحرمات الناس أهمية عظيمة فى توجيه القرآن الكريم والسنة المطهرة وذلك للحفاظ على كرامة الانسان وصونا لحريته الشخصية التى تقوم على العدل والمساواة يعيش آمنا مطمئنا فى بيته وعمله ، آمنا على حفظ أسراره ، مطمئنا من الغدر والمتابعة غير المشروعة ، ولهذا كان الاستماع الى حديث قوم بغير اذنهم ، والنظر الى قوم فى بيوتهم من غير اذن منهم من أشد ما توعد عليه ، قال عليه الصلاة والسلام : " من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون ، صب فى أذنيه الآنك(٢) يوم القيامة "(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " من اطلع فى بيت قوم بغيراذنهم فقد حل لهم أن يفقأوا عينه ".(٤)

---

(١) الترمذى ج ٤ ص ٣٧٨ ، وأبو داود ج ٢ ص ٥٦٨.

(٢) هو الرصاص المذاب .

(٣) رواه البخارى الجامع الصحيح ج ٩ ص ٨ ، ص ١٣ من كتاب الديات ورواه النسائى والترمذى وأحمد .

(٤) رواه البخارى تعبير ج ٩ ص ٥٤ ورواه الترمذى والدارمى .

ويستثنى من ذلك تتبع المجرمين الذين يتعدى اجرامهم الى الآخرين فيضر بالأنفس أو الأعراض أو الأموال أو الدين ، ذلك أن الاسلام جاء لحفظ هذه الضرورات .

قال الحافظ بن حجر رحمه الله :

ويستثنى من النهى عن التجسس ما لو تعين طريقا الى انقاذ نفس من الهلاك مثلا كأن يخبره ثقة بأن فلانا خلا بشخص ليقتله ظلما ، أو بامرأة ليزني بها فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرا من فوات استدراكه ، نقله النووى عن : " الأحكام السلطانية " للماوردى واستجاده ، وأن كلامه : ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات ولو غلب على الظن استسرار أهلها بها الا هذه الصورة "(١) .

أقول : ومثل ذلك ما اذا غلب على الظن أن شخصا أو أشخاصا يدبرون الالحاد فى دين الله سرا ويجتمعون بفئات من الناس خفية ويلقون عليهم سمومهم ويفسدون عقائدهم وأخلاقهم فان هذا مما ينبغى أن يتابع أمرهم ويكشف حالهم ويؤخذ على أيديهم قبل فوات الأوان ، لأن ذلك من باب الحفاظ على دين الله وهو من أهم الضرورات التى جاء الاسلام لحمايتها .. والله أعلم .

<u>الغيبة :</u>

هى من اغتابه اغتيابا اذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب(٢) ، وقد عرفها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره . فقيل أرأيت ان كان فى أخى ما أقول ؟ فقال ان كان فيه

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٨٢ .
(٢) لسان العرب مادة غيب .

ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " (١) قال الحسن الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى ، الغيبة والافك والبهتان ، فأما الغيبة فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه ، وأما الافك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فهو أن تقول فيه ما ليس فيه ، ولا خلاف لدى العلماء أن الغيبة من الكبائر. (٢)

قال النووي رحمه الله : " الغيبة هي : ذكرك الانسان بما فيه مما يكره ، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه ، أو نفسه ، أو خلقه ، أو ماله ، أو ولده ، أو والده ، أو زوجه ، أو خادمه ، أو مملوكه ، ....... أو غير ذلك مما يتعلق به ، سواء ذكرته بلفظك ، أو كتابك ، أو رمزت أو أشرت اليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك " (٣) أ . هـ المراد منه.

وقد نهى القرآن الكريم عنها ومثل مرتكبها وصوره بأشنع صورة طبعا وعقلا وشرعا ، قال تعالى : ( ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ) قال الشوكاني رحمه الله : " مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه ، ذكر معناه الزجاج ، وفيه اشارة الى أن عرض الانسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه ، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لفاعلها ، والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فان لحم الانسان مما تنفر عن أكله الطباع الانسانية وتستكرهه الجبلة البشرية فضلا عن كونه محرما شرعا " (٤).

أقول : وفي هذا أدب رفيع عالج به القرآن الكريم النفس الانسانية واستعمل وسيلة من أنجح الوسائل لاثبات المعنى المراد في النفوس

---

(١) رواه مسلم وغيره.
(٢) تفسير القرطبي جـ ١٦ ص ٣٣٥.
(٣) الأذكار للامام النووي ص ٢٩٨.
(٤) تفسير الشوكاني جـ ٥ ص ٦٥.

وهو كراهية الغيبة ، تلك الوسيلة هى اثارة الاشمئزاز والتقزز من أكــل لحم الآدمى ميتا ، ومثل ذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى هذا المعنى ، روى الحافظ ابن كثير عن أبى يعلى مـــن حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال : " لما اعترف ماعز بالزنــا وأمر النبى صلى الله عليه وسلم برجمه فرجم سمع النبى صلى الله عليــه وسلم رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم ترالى هذا الذى ستر اللـه عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؟ ثم سار النبى صلى اللـــه عليه وسلم حتى مر بجيفــة حمار ، فقال : " أين فلان وفـــلان ؟ انزلا فكلا من جيفــة هذا الحمار " قالا غفر الله لك يارسول اللـــه! وهل يؤكل هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " فما نلتما من أخيكما آنفــا أشد أكلا منه ، والذى نفسى بيده انه الآن لفى أنهار الجنــة ينغمس فيها " ثم قال:اسناده صحيح (١) . وبمثل هذا الأسلوب وهـــذا العلاج تطهر المجتمع الاسلامى وارتفع شأنه وساده الحب والوئـــام والتماسك والاحترام بين أفراده ، وانتهى الى القمة السامقــة مـــن الكمال الخلقى والسلوك الفردى والاجتماعى .

٨ ــ القـــذف :

وهو لغة من قذف المحصنة اذا سبها (٢) ، والمراد به هنا رمـــى أى شخص بالزنا وما فى حكمه ، ولا يخفى أنه وجد بعض من ذوى النفوس المريضة فى صفوف المجتمع الاسلامى الذين لا يطيب لهم الا الولوغ فى أعراض الناس ونهش لحوم البشر ، واتهام الطاهرين الأبرار بعظائـــم الأمور وذلك لقصد خبيث فى نفوسهم هو تلويث سمعة المجتمع المســلم باتهام المؤمنين الطاهرين واشاعة الفاحشة فى الصالحين ، وتفتيت روابط المجتمع المتين .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ .
(٢) لسان العرب مادة قـذف .

ولأجل ذلك ضربت الشريعة على أيدى هؤلاء ومن يأتى على شاكلتهم من بعدهم وسدت الطريق أمام عبثهم بالأعراض وجعلت حدا صارما لكل من تسول له نفسه انتهاك حرمة الأعراض المصونة ، وبذلك ألقموا حجرا وألزموا السكوت ، حتى أولئك الذين يشاهدون بأعينهم جريمة الزنا لا يحق لهم أن يتكلموا بذلك الا لدى الحاكم الشرعى متى توفر النصاب من الشهود ووجدت الصفة التى تثبت بها الجريمة • أما دون ذلك فانهم يعرضون أنفسهم لاقامة الحد عليهم •

قال تعالى : ( والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (١) ، الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم ) • وقال تعالى : ( اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (٢) ) • وقال تعالى : ( ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٣) ) ، وقال تعالى : ( ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٤) ) •

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد حكم على من قذف محصنا بثلاث عقوبات:
الأولى : جلده ثمانين جلدة • الثانية : عدم قبول شهادته أبدا •
الثالثة : وصمه بالفسوق • ثم اتبع هذه الأحكام باستثناء التائبين من الحكم الأخير باجماع العلماء ، والحكم الثانى على خلاف بينهم ، ولا أرى الدخول فى موضوع الخلاف ، اذ محل ذلك كتب الفقه والأصول

---

( ١ ) النور الآيتان ٤ ، ٥ •
( ٢ ) نفس السورة الآية ١٥ •
( ٣ ) نفس السورة الآية ١٩ •
( ٤ ) نفس السورة الآيات ٢٣ — ٢٥ •

فليرجع اليها من أراد .

والذى يهمنى من هذا هو تربية الضمائر الواردة فى الآيـــات الكريمة واستعمال عدة وسائل لتهذيب النفس البشرية منها هـــذه الأحكام الحسية والمعنوية ، ومع ذلك فرحمة الله واسعة وباب التوبـة مفتوح لمن أراد أن يلجه ويؤوب الى ربه " الا الذين تابوا من بعـــد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم " .

وفى الآية الثانية وصف لأولئك الذين خاضوا فى الافك واتهمـــوا الحصان الرزان (١) أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى برأها الله مـن مقالتهم النكراء ، فهم يتلقون القول بلا تدبر ولا ترو ولا انعام نظر ، ثم ينقلونه بأفواههم لا بوعيهم ولا بعقولهم ، ويحسبون ذلك هينا ، لكنـه عظيم عند الله كبير اهتز له المجتمع الاسلامى كله وعاش فى محنـة وابتلاء شهرا كاملا ، حتى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم براءة زوجه الطاهرة فى عشر آيات تتلى الى يوم القيامة ، وفى الآية التى تلى ذلك توجيه تربوى للنفوس البشرية لما ينبغى أن تكون عليه فى مثل هذه المواقف وعتاب لطيف للمؤمنين . " ولولا اذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنـا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (٢) " .

هذا هو الموقف الواجب اتخاذه فى مثل هذه الحالة أن يقـــال ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا الحديث ، ولا يجوز أن يصدر منا بوجـه من الوجوه ، هذا العتاب لجميع المؤمنين الذين هزتهم الحادثـــة حين استمعوا اليها ولم يبادروا بتكذيب هذا الخبر ، لأن ذلك طعـن فى شرف أم المؤمنين ، وهى العفيفة الطاهرة الناشئة فى العش الطاهر

---

(١) العفيفة الوقور .

(٢) النور الآية ١٦ .

ورمى فى أمانتها وهى زوج سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ورمى فى ايمانها وهى المسلمة الناشئة فى حجر الاسلام منذ نعومة أظفارها ، ترمى بكل ذلك وهى بريئة غافلة ، فلم لم يبادر المؤمنون كلهم بنفى كل ذلك عنها ؟ وهو قبل هذا وبعده مس للمقام النبوى الشريف بأن يقع فى بيته مثل هذا ، وقد قال الله تعالى فيه : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)(١) !! وقد ورد أن بعضا من المسلمين كذب الخبر واستبعده كما روى أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قالت له امرأته : يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة — رضى الله عنها — قال : بلى وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ماكنت لافعله ، قال : فعائشة والله خير منك(٢) . فدلت الرواية على أن هناك قلها يقظة بادرت بتكذيب الخبر حال وقوعه . أما الآية التى تليها فى هذه المجموعة ففيها وعيد شديد لأولئك الذين تأصل الشر فى نفوسهم فلا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار الا بأشاعة الفاحشة بين المؤمنين توعدهم الله بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبأفتضاح أمرهم واقامة الحد عليهم وأما فى الآخرة فبالنار وبئس القرار . أعاذنا الله من ذلك .

وأما الآية الأخيرة فى هذه المجموعة ففيها وعيد شديد أيضا فضلا عن اللعن من قبل الله تعالى والمراد به الطرد من رحمته تعالى. ويتبادر الى الذهن فى هذا المعنى اشكال وهو كيف يكون المؤمنون الذين وقعوا فى القذف مطرودين من رحمة الله ؟ فمعنى هذا أنه لا توبة للقاذف .

---

(١) الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢ ط مصطفى الحلبى .

وأجيب على هذا الاعتراض كما قال الشوكانى : قال أهل العلم : " ان كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة ، فالمراد باللعنة الابعاد وضرب الحد وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة ، والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين ، وان كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، وان كانت فى مشركى مكة فانهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، ذلك انه قيل ان الآية خاصة بمشركى مكة لأنهم كانوا يقولون للمرأة اذا خرجت مهاجرة انما خرجت لتفجر (١) " .

وفى ذكر الجوارح وأن الله تعالى ينطقها فتشهد على أصحابها بأعمالهم القبيحة فى ذلك من التخويف والتهويل ما لا يخفى ، وهذا التخويف هو احدى وسائل التربية فى القرآن الكريم ، فحينما يجد المؤمنون القرآن يتحدث عن حماية الأعراض من اعتداء الآثمين وصيانتها من ألسنة المنافقين ويتوعد من اقترب منها باللعن والطرد والعذاب الأليم وانطاق الجوارح كى تكون شاهدة بكل ما صنع أصحابها ، حينما يسمع المؤمنون ذلك تهتز لسماعه قلوبهم وترتعد له فرائصهم خوفا من الذى يعلم السر وأخفى الذى يعلم باطنهم كما يعلم علانيتهم فيتربى فى نفوسهم حب الطهر وعفة اللسان من الولوغ فى الأعراض وبالتالى يعيش المجتمع الاسلامى نظيفا طاهرا يسوده الحب والوئام ويخيم عليه تحرى الحق وقول الحق لأن الله تعالى هو الحق وهو يوفيهم دينهم الحق أى جزاءهم الثابت وافيا كاملا الذى لا شك فى ثبوته . كما يعيش ملتزما بقاعدة القرآن الكريم فى التثبت والتبين فى مثل هذه الأقوال حتى لا توجه التهمة لبرىء فيحصل الندم على ذلك امتثالا لتوجيه الحق جل وعلا ، لقوله تعالى : ( يا أيها

---

(١) تفسير الشوكانى بتصرف جـ ٤ ص ١٧ .

الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين )[1] . وفي هذه الآية تحذير من الاعتماد على أقوال الفساق لأنهم يريدون بث الفتنة بين المسلمين كما أن في الآية قاعدة كما أسلفنا أو منهجا في التمحيص والتثبت والتحري في سماع الأخبار وروايتها وبيان أن خبر الفاسق هو محل الشك لأنه مظنة الكذب ، أما من علم منه الصلاح والتقوى فالأصل في خبره الصدق ، والا تعطل سير الجماعة المسلمة وتنظيمها .

قال سيد قطب رحمه الله : " فأما الصالح فيؤخذ بخبره لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء ، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره ، أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة ، والاسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء "[2] .

٩ — <u>البخل والاسراف :</u>

والمال في الاسلام له أهميته ومكانته لأنه وسيلة لبلوغ الغايات السامية والنفوس مجبولة على حبه ، قال تعالى : ( وتحبون المال حبا جما ) ، وليس المال في الاسلام غاية في ذاته ، لذلك جاء القرآن الكريم مهذبا للنفوس من البخل به ، وناهيا عن الاسراف والتبذير فيه : قال تعالى في ذم البخل والبخلاء : ( ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة )[3] وقال تعالى : ( ها أنتم هؤلاء

---

(١) الحجرات الآية ٦ .
(٢) في ظلال القرآن ج ٢٦ ص ٥٢٧ .
(٣) آل عمران الآية ١٨٠ .

تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (١) ) وقال تعالى : ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٢) ) ، وفى قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ألا يعطوا المساكين منها شيئا ، قال تعالى : ( انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين ، ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣) ) . وقال : ( ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة (٤) ) ، وفى تساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين وسبب دخولهم النار ، واجابة المجرمين على ذلك قال تعالى : ( فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين (٥) ) .

وفى الجانب المقابل النهى عن الاسراف والتبذير ذلك أن القرآن الكريم يربى المؤمنين على الاعتدال فى الأمور وكما قيل خير الأمور الوسط

---

(١) محمد الآية ٣٨ .
(٢) التوبة الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) سورة القلم الآيات ١٧ — ٣٣ .
(٤) الهمزة الآيات ١ — ٤ .
(٥) المدثر الآيات ٤٠ — ٤٤ .

الوسيط ، وشره الافراط والتفريط فكلا طرفي قصد الأمور ذميم ،والاعتدال هو الصفة المحمودة ، قال تعالى : ( ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ) (١) ، وقال تعالى : ( ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ) (٢) وقال تعالى : ( ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ) (٣) وقال تعالى : ( والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) (٤) فالاسراف هو الانفاق زيادة عن الحاجة فيعود الى الكم ، والتبذير هو انفاق المال في غير محله فهو يعود الى الكيف .

١٠ — **الترف :**

والترف في اللغة له عدة معان منها : كثرة التنعم في المأكل والمشرب والزينة ، ومنها البطر ومنها الاصرار على البغي ، والمترف هو الجبار المتنعم الذي يصنع ما يشاء ولا يمنع .

والآيات التي جاءت في القرآن الكريم تحمل هذه المعاني التي ذكرناها كلها ، قال تعالى : ( واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ) (٥) وقال تعالى : ( وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ) (٦) وقال تعالى : ( واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ) (٧) وقال تعالى : ( لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ) (٨) وقال تعالى : ( الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ) (٩) ، وفي وصف أصحاب الشمال

---

(١) الأنعام الآية ١٤١ والأعراف الآية ٣١ .
(٢) الاسراء الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) نفس السورة الآية ٣٩ .
(٤) الفرقان الآية ٦٧ .
(٥) الاسراء الآية ١٦ .
(٦) سبأ الآية ٣٤ .
(٧) هود الآية ١١٦ .
(٨) الأنبياء الآية ١٣ .
(٩) المؤمنون الآية ٣٣ .

قال تعالى : ( وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم • وظل من يحموم • لا بارد ولا كريم • انهم كانوا قبل ذلك مترفين )[١] والترف لم يذكر فى القرآن الا صفة للظالمين والكافرين • اذن فالترف الذى يحذر منه القرآن الكريم هو الذى يؤدى بصاحبه الى الفسوق والكبرياء عن قبول الحق كما يؤدى به الى الدعة وحب الراحة والخمول فتترهل بذلك أجسام المترفين وتفقد القوة والشجاعة اللذين يدعو اليهما القرآن فى كثير من آياته • وبالتالى تتعرض الأمة بسبب المترفين الى غزو أعدائها واستهانتهم بها • واحتقارهم لها • فالواجب على الأمة محاربة هذا الداء قبل استفحاله • والأخذ على أيدى السفهاء من المترفين • وصرف الفائض من النعم فى مرضاة الله تعالى واعداد الأمة اعدادا نفسيا وعسكريا • وبث روح الجهاد فى صفوف الشباب عملا بقوله تعالى : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة )[٢] •

قال سيد قطب : " والمترفون فى كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال • ويجدون الخدم ويجدون الراحة • فينعمون بالدعة • وبالراحة وبالسيادة • حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع فى الفسق والمجانة • وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات • وتلغ فى الأعراض والحرمات • وهم اذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادا • ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوها • وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب الا بها ولها • ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى • وتفقد حيويتها • وعناصر قوتها وأسباب بقائها • فتهلك وتطوى صفحتها "[٣] •

---

(١) الواقعة الآيات ٤١ ـ ٤٥ •
(٢) الأنفال الآية ٦٠ •
(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ١٥ م ٥ ص ٢١٢ •

أقول : والترف مفسد للفطرة السليمة فهو يحرفها عن مسارها الصحيح ويوجهها الى الشهوات والملذات فيفقد المترف بالتالي الاحساس بالمسئولية أمام الله تعالى وأمام المجتمع الذى يعيش فيه ، كما يفقد التمييز بين الخير والشر فهو يسمع ، ولكن لا يعى ولا يتأثر ويتلقى دعوة الله ولكن لا يستجيب لها ، قال تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون )(١) ، لأنه لا هم له الا أن يستمتع بالطيبات فى الحياة الدنيا وليس للآخرة لديه أى حساب وكان ممن ينطبق عليه قول الله تعالى : ( أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون )(٢) .

١١ـ الكبر والعجب :

قال الراغب : الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب(٣) . فالكبر الحالة التى يختص بها الانسان من اعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره ، وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه ، بأن يمتنع من قبول الحق والاذعان له بالتوحيد والطاعة(٤) .

قال ابن حجر : " والتكبر يأتى : على وجهين : أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة زائدة على محاسن الغير ، ومن ثم وصف سبحانه وتعالى بالمتكبر . والثانى : أن يكون متكلفا لذلك متشبعا بما ليس فيه ، وهو وصف عامة الناس نحو قوله تعالى : ( كذلك يطبع الله على كل قلب

---

(١) الأعراف الآية ١٧٩ .
(٢) الأحقاف الآية ٢٠ .
(٣) مفردات الراغب الأصفهانى ص ٤٢١ .
(٤) المصدر السابق .

متكبر جبار ) والمستكبر مثله .

قال الامام الغزالي : الكبر على قسمين : فان ظهر على الجوارح يقال تكبر ، والا قيل في نفسه كبر . والأصل هو الذي في النفس وهو الاسترواح الى رؤية النفس .

والكبر يستدعى متكبرا عليه يرى نفسه فوقه ومتكبرا به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب فمن لم يخلق الا وحده يتصور أن يكون معجبا لا متكبرا(١).

قال تعالى في ذلك : ( انه لا يحب المستكبرين(٢) ) وقال تعالى : ( ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء(٣) ) وقال تعالى : ( هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض ، واذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى(٤) ) .

وقال تعالى : ( ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور(٥) ) ، وقال تعالى : ( ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا(٦) ) .

وفي الحديث : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل(٧) جواظ مستكبر(٨) " .

---

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٨٩ .
(٢) النحل الآية ٢٣ .
(٣) النساء الآية ٤٩ .
(٤) النجم الآية ٣٢ .
(٥) لقمان الآية ١٨ .
(٦) الاسراء الآية ٣٧ .
(٧) العتل : الأكول المنوع ، والجواظ الكثير اللحم الجافي الغليظ الضخم المختال في مشيته ، أ . هـ لسان العرب ج ٧ ص ٤٣٩ .
(٨) رواه البخاري ج ٨ ص ٢٤ .

وقال مجاهد فى قول الله تعالى : ثانى عطفه مستكبرا فى نفسه ، عطفه رقبته (١) .

وروى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقيل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، قال : " ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس " (٢) والمراد بالغمط الازدراء والاحتقار .

وأخرج مسلم من حديث عياض بن حمار بكسر المهملة وتخفيف الميم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد (٣) " والأمر بالتواضع نهى عن ضده وهو الكبر . ونقل ابن حجر عن الطيبى قوله : " ان كان استعمال الزينة لاظهار نعمة الله فهو جائز أو مستحب ، وان كان للبطر المؤدى الى تسفيه الحق وتحقير الناس والصد عن سبيل الله فهو المذموم " (٤) .

أقول : ولا يخفى أن التكبر رذيلة تنشأ عن الجهل والغرور بالنفس فتدعو صاحبها الى المبالغة فى تعظيم شخصه وهو يظن أنه بعمله ذلك يرفع من مكانته كما يظن أن التواضع يحط من قدره ، وما علم المسكين أن القلوب تنفر منه وأنه بتكبره قد حط من قدره عند الله وعند الناس ، فيمقته جميع الناس حتى من كانت لهم صلة به ويرتمون فى خيره وهم يحتقرونه لكبره ، فعومل بنقيض قصده ، وكيف لا يكون ذلك والله سبحانه لا يحبه " انه لا يحب المتكبرين " (٥) ولو فكر هذا الانسان

---

(١) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٨٩ .
(٢) رواه مسلم — الايمان ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ .
(٣) رواه مسلم — الجنة ج ٤ ص ٢١٩٨ رقم ٦٤ .
(٤) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٩١ .
(٥) النحل الآية ٢٣ .

قليلا فى أصل منشائه " من نطفة من ماء مهين " ثم فكر فى مصيره الى الموت والتراب والدود ، ثم علم حقيقة حاله على هذه الأرض وأنه مستور بستر الله له ، محاط بعناية الله لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا فهو مربوب مقهور للواحد القهار ، لو فكر هذا المسكين وعلم ذلك لما اتصف بهذه الصفة الحقيرة ، ولكن أنى له أن يفكر وكيف له أن يعلم وفى قلبه مرض الأنانية والحقد والحسد وعدم الخضوع للحق والانصياع لأوامر الله فلا يرى للآخرين ميزة ولا يذكر لغيره منقبة ولا يعترف بحسنة لسواه . لذلك طبع الله على قلبه ، فلم يعد يرى الا نفسه ، ولم يبق له تفكير الا فى ذاته يدور حولها يتعصب لرأيه الباطل ويرى ذاته فوق كل شيء . ( واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد )(١) ، شارك ابليس فى صفته حين استكبر ورفض أمر ربه وقال مفاخرا بنفسه مدعيا أفضليته على آدم عليه السلام ، ( أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين )(٢) فكان جزاؤه اللعنة من الله والطرد من رحمته ومن تبعه كذلك ، فويل للمتكبرين من عذاب رب العالمين ، قال تعالى : ( أن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين )(٣) .

...

١٢- الرياء :

ليس بخاف ما عليه كثير من الناس فى هذا العصر من بعد عن منهج الله تعالى فى جميع أحوالهم سواء فى سلوكهم الشخصى أم فى معاملاتهم مع الآخرين . لذلك نجدهم لا يفكرون فى شيء سوى المادة ،

---

(١) البقرة الآية ٢٠٦ .

(٢) الأعراف الآية ١٢ .

(٣) غافر الآية ٦٠ .

يلهثون خلفها ، ويستخدمون شتى الوسائل المحرمة للحصول عليها ، من غش وسرقة واحتيال .

وأبرز مثال فى هذا المجال قضية "الربا" تجدهم يحتالون بشتى الحيل فى معاملاتهم الربوية ويخلعون عليها شتى الأسماء ، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله )(١) وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن . فالله سبحانه وتعالى يطلب منا معشر المؤمنين فى هذه الآية أن نتقى الله تعالى ونترك التعامل بالربا ان كنا صادقين فى دعوى الايمان . ثم يؤاذنا بالحرب !! بحرب .. ممن ؟ من الله ورسوله !!

فهل سمع الناس هذا التهديد ؟ وهل وعوا هذا الوعيد ؟ انهم يصمون آذانهم عن نداء القرآن ويتسابقون على جمع الأموال بالطرق المحرمة .

ان الرخاء الاقتصادى الذى ينشده العالم اليوم لن يأتى عن طريق الفوائد الربوية أو العمولة أو ما يحلو لهم من هذه التسمية . انما يأتى الرخاء والازدهار عن طريق الانتاج ، والانتاج لايكون الا مع الأخلاق المبنية على الايمان .

فلابد اذن من تغيير ما بالنفوس ، كى يغير الله أحوالنا الى أحسن حال . ( ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم )(٣) .

ولا بد من سباق ولكن الى مغفرة الله ورضوانه ، ولابد من تنافس ولكن فى ميادين الخير والاصلاح ففى ذلك يكون التسابق وعليه يكون التنافس لأن العاقبة رضوان الله ونعيمه مع الأبرار المتقين ، ولا يصدر ذلك الا عن ايمان يغير الأفكار والمشاعر ، والأخلاق والعادات ، والأنظمة

---

(١) البقرة الآيتين ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) الرعد الآية ١١ .

والقوانين الجاهلية ويصفها بمنهج الله الذى ارتضاه للبشرية (١) ( صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ) .

والأمة التى تريد أن تعيش بمنهج الله ، وتطبق شريعة الله لابد أن تخضع حياتها طبقا لهذا المنهج وأن يكون سلوكها ومعاملاتها وفقا لهذه الشريعة ولن يتم ذلك الا بايمان أولئك الأبرار المصلحين ، ولن يصلح هذه الأمة الا بما صلح به أولها . أسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين ويوفقنا للعمل بما يرضى رب العالمين ، ويحشرنا فى زمرة الأبرار الذين يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك .

*** *** ***

---

(١) البقرة الآية ١٣٨ .

## خاتمة البحث:

أعتقد أن ما عرضناه فى هذا البحث كان عبارة عن معالم تهدى الى منهج الله فى تربية النفس الانسانية ، ولقد تبين من خلال ما كتبته فى هذا البحث أن التربية فى منهج الاسلام تنطلق من النظرة الصحيحة للانسان ، فهو مخلوق كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً )(١) جعله خليفة فى الأرض بعد أن هيأه لأمانة الاستخلاف ، وسخر له جميع ما فى الأرض ليتمكن من أداء الأمانة فى عمارة الأرض ونشر الخير فيها ، والعدل بين أفراد البشرية .

والتربية نشأت منذ نشأ الانسان الأول " آدم عليه السلام " ، ومهمتها : معالجة الكائن البشرى بجميع جوانبه ، جسمه ، وعقله ، وروحه ، فكما تعنى بالظاهر فهى أشد عناية بالباطن .

منهجها : يشتمل على شقين :
الأول : تصفية النفوس من الكدورات وهو ما يسمى بالتخلية .
الثاني : تعليمها ما ينفعها فى الحياة العملية وهو ما يسمى بالتحلية .

( هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين )(٢) .

وسيلتها : استخدمت التربية القرآنية وسائل كثيرة لتثبيت هذا المنهج منها : القدوة الحسنة ، الترغيب والترهيب ، القصص ، الأحداث ، وغيرها .

---

( ١) الاسراء الآية ٧٠ .
( ٢) الجمعة الآية ٢ .

غايتها : الغاية من هذه التربية هى هداية البشرية الى ربها ومعبودها ، كى تقوم بعبادة الله اذ هى الغاية من الخلق ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )(١) .

ثمرتها : حصول السكينة والطمأنينة للنفس الانسانية ، وبالتالى قيام المجتمع الفاضل الذى يسوده الحب والوئام وينتشر فى أرجائه العدل والسلام .

ومن خلال ما كتبته فى هذا البحث تبين أن النفس الانسانية هى محل العناية الربانية كرمها بالعقل لتميز به النافع من الضار ، وتعرف به الخير من الشر ، وأمدها بالرسالات السماوية لتذكر الانسان بما ركز فى فطرته من معرفة ربه وخالقه . وأنعم عليها بشتى النعم ، وأحاطها بعنايته وحفظه وتسخير ملائكته " يحفظونه من أمر الله " وأوجد فيها غرائز ورغبات ومكن لها من تصريف هذه الغرائز وتحقيق تلك الرغبات فى أماكن مأمونه بطرق موزونة .

والتربية القرآنية تذكر الانسان بهذه النعم وتوجهه الى المنعم ، كما تلفت نظره الى المخلوقات ، ليعرف من خلالها رب الأرض والسموات .

لأن أساس هذه التربية هو الايمان بالله . اذ به صلاح الفرد والمجتمع .

الايمان بالله ربا والها واحدا أحدا لاشريك له ولا ند ولا مثيل .

والقرآن الكريم قد حشد من الأدلة على هذا الجانب الشىء الكثير ، فى الكون كله ، مشاهده وعجائبه ، السماء والأرض وما فيهما وما بينهما تأتى تارة مجملة ، وأخرى مفصلة .

وكما اتخذت من النعم الكثيرة المبثوثة لهذا الانسان دليلا وحافزا له على الايمان بالله فقد اتخذت من الانسان نفسه منذ تكوينه وتطور خلقه ومرحلة حياته

---

(١) الذاريات الآية ٥٦ .

ومماته وبعثه ونشره أقوى دليل ، اذ من الانسان على نفسه دليل ( وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١) ) .

ويتبع الايمان بالله الايمان بالحقائق الغيبية التى كان الايمان بها من أبرز صفات المؤمنين المتقين ، ( ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب (٢) ) .

منها الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وفائدة ذلك هو استشعار رقابة الله على الانسان وعنايته به وحفظه له ( وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون (٣) ) .

واستشعار عناية الله أيضا بارسال الرسل وانزال الكتب ( لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٤) ) .

وتمكن صفتا الخوف والرجاء من القلوب ، الخوف من عذاب الله والرجاء فى عفوه وغفرانه ، ( فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى (٥) ) .

والتربية القرآنية تركز على قضية الثواب والعقاب فى دار لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، وهى فى نفس الوقت لا تجعل المجرم ييأس من المغفرة فتحت له أبواب التوبة والرحمة على مصاريعها ( قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٦) ) .

والتربية القرآنية تعرض صورا من أحوال الناس فى اليوم الآخر تهز بها النفس الانسانية فتوقظها من غفلتها وتردها الى ربها ترجوه وتخافه تدعوه وتضرع اليه

---

(١) الذاريات الآية ٢١ .
(٢) البقرة الآية ٢ - ٣ .
(٣) الانفطار الآيات ١٠ — ١٢ .
(٤) الأنبياء الآية ٦٥ .
(٥) النازعات الآيات ٣٧ — ٤١ .
(٦) الزمر الآيتان ٥٣ — ٥٤ .

وتؤوب الى رحابه .

والتربية القرآنية توجه النفس الانسانية الى الايمان بقضاء الله وقدره ، والتسليم لمن بيده مقادير كل شئ ، وهى بذلك لا تسلبه حرية الاختيار بل تجعله حرا مختارا ، يختار ما يشاء ويفعل ما يريد بعد أن بينت له الطريقين ( انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا )(١) ، ( وهديناه النجدين )(٢) .

وبهذه التربية يعلم الانسان أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، فيعيش هادئا مطمئنا ، فان أصابته اسراء شكر ، وان أصابته ضراء صبر ، وفى كل ذلك خير له .

والتربية القرآنية : تدعو الانسان الى العبادة وتربيه عليها ، وتشعره أن كل عمل يقوم به فى هذه الحياة متى كان مطابقا لشريعة الله فهو عبادة لله . وفوائد العبادة تعود على الفرد نفسه ثم المجتمع بالخير العميم . فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر وتربيه على النظام والطاعة والانضباط ، والمحافظة على الأوقات ، وتصله برب الأرض والسموات ، والصوم يحصل به التدريب على الصبر ، والرحمة للفقراء ، والتذكير بنعم الله ، كما تزكو به النفوس ، وتصفو القلوب ، وتغفر الذنوب . والزكاة وسيلة لتطهير النفوس من الشح والبخل وهى عبادة وشكر لواهب النعم على ما تفضل وأنعم ، كما أنها تكافل اجتماعى يدفعها الغنى للفقير بنفس راضية من غير منة ولا استعلاء ، ويأخذها الفقير فريضة من عند الله من غير ذل ولا انكسار ، فتسود المجتمع روح المودة وتشيع بينهم أواصر المحبة .

والحج يعود المؤمن بعده بأغلى زاد من صفاء فى النفس ورقة فى الشعور وطهارة فى السلوك وقوة فى العزيمة على عمل الخيرات ، وصلابة أمام الشرور والمغريات ، " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "(٣) .

تلك نبذة يسيرة من الآثار المترتبة على التربية القرآنية بالشعائر التعبدية .

---

(١) الانسان الآية ٣ .
(٢) البلد الآية ١٠ .
(٣) سبق تخريجه .

أما الجانب الأخلاقى فهو نتيجة وثمرة للايمان بالله ، فمتى انعدم الايمان عدمت الأخلاق الحقيقية •

والقرآن الكريم حينما يدعو الى الأخلاق الحسنة وينهى عن الأخلاق القبيحة انما يهدف الى شيئين :

الأول : تزكية النفس من داخلها كى يصدر عنها كل فعل حسن •

الثانى : قيام مجتمع فاضل يسوده العدل والسلام ، والمحبة والوئام • مجتمع يطبق شريعة الله بين أفراده بالسوية ، لا فرق بين الراعى والرعية ، مجتمع متجه الى الله بأقواله وأفعاله ، معتمد عليه فى جميع أحواله ، مجتمع طاهر نظيف كريم ، عف أمين وفى حليم •

هذه ملامح التربية القرآنية من خلال هذا البحث • أسأل الله أن ينفعنا بها ، وأن يهدى الأمة الاسلامية ويوفقها بالرجوع الى القرآن الكريم والتتلمذ عليه ، وأخذ التربية منه ، واخضاع أمورها كلها لأحكامه ، والعمل وفق شرعه ونظامه ، والحمد لله على التمام وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

••• ••• •••

## ثبت المراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : ١ - ابن تيمية : أحمد بن عبدالحليم الحرانى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

١ - الفتاوى الطبعة الأولى - مطابع الرياض سنة ١٣٨١هـ .

٢ - العبودية طبعة المكتب الاسلامى للطباعة والنشر بيروت سنة ١٣٨٩ هـ .

٢ - ابن جرير : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

١ - جامع البيان عن تأويل القرآن الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٢ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق أبو الفضل ابراهيم الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر .

٣ - ابن حجر : أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

- فتح البارى على صحيح البخارى - المطبعة السلفية بمصر .

٤ - ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

١ - احكام الأحكام - مطبعة العاصمة بالقاهرة سنة ١٩٦٧م .

٢ - المحلى على المجلى - دار الاتحاد العربى للطباعة - الناشر مكتبة الجمهورية بمصر سنة ١٣٨٧ هـ .

٥ - ابن حنبل : الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ .

- المسند - الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هـ المكتب الاسلامى للطباعة والنشر .

٦ - ابن العربي: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

- أحكام القرآن - تحقيق علي محمد البجاوي - مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

٧ - ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

- عيون الأخبار طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب الأولى - المؤسسة المصرية العامة بالقاهرة .

٨ - ابن القيم : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

١ - اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - تحقيق محمد سيد كيلاني الطبعة الأخيرة بمصر سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

٢ - الروح طبعة دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٣٩٥ هـ سنة ١٩٧٥ م .

٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - الناشر مكتبة التراث بالقاهرة .

٤ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية - تعليق محمود عرنوس - الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ .

٥ - الفوائد - دار مصر للطباعة .

٦ - مدارج السالكين - تحقيق محمد حامد الفقي طبع على نفقة محمد سرور الصبان .

٧ - مفتاح دار السعادة - الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

٩ - ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

- تفسير القرآن العظيم - الطبعة الأولى - الناشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة سنة ١٣٨٤ هـ

١٠ - ابن ماجه : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

- السنن تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - طبعة دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي .

١١ـ ابن مسكويه : أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١هـ
ـ تهذيب الأخلاق بتعليق محمود ابراهيم هنيه ·

١٢ـ ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ ابن منظور الافريقى المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ ·
ـ لسان العرب ـ دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٣٧٤ هـ سنة ١٩٥٥م ·

١٣ـ ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ هـ ·
ـ السيرة النبوية ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ·

١٤ـ أبو داود : الحافظ سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدى السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ·
ـ السنن ـ ط الأولى سنة ١٣٧١ هـ بتعليق أحمد سعد على ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ·

١٥ـ أبو السعود : أبو السعود بن محمد العمادى الحنفى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ ·
ـ ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الحكيم المشهور بتفسير أبى السعود ـ الناشر مكتبة الرياض الحديثة ·

١٦ـ الأبراشى : محمد عطية الأبراشى ·
ـ كتاب روح التربية والتعليم ·

١٧ـ الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ·
ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ دار احياء التراث العربى ، بيروت ·

١٨ـ البخارى : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى الجعفى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ·
ـ الجامع الصحيح ـ دار مطابع الشعب بالقاهرة ·

١٩ ـ البوطي : محمد سعيد رمضان البوطي .

ـ كتاب ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية — مطبعة العلم دمشق سنة ١٣٨٧ هـ .

٢٠ ـ البيضاوي : القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ .

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

٢١ ـ الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

ـ السنن ويسمى " الجامع الصحيح " بتحقيق أحمد محمد شاكر ـ الناشر المكتبة الاسلامية .

٢٢ ـ الجرجاني : السيد الشريف علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي المتوفى سنة ٨١٦ هـ .

ـ التعريفات معجم بشرح الألفاظ المتعارف عليهما ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

٢٣ ـ الجسر : الشيخ نديم الجسر " معاصر "

ـ كتاب قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن — ط ٣ ـ منشورات المكتب الاسلامي ـ بيروت .

٢٤ ـ جمعة : سعد جمعة رئيس الحكومة الأردنية " سابقا " .

ـ كتاب الله أو الدمار ط دار الكاتب العربي .

٢٥ ـ الحاكم : أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٨٤٨ هـ .

ـ كتاب المستدرك ـ الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض .

٢٦ ـ خياط : د. عبدالعزيز الخياط .

ـ كتاب المجتمع المتكافل في الاسلام ـ مؤسسة الرسالة .

٢٧ ـ دراز : د. محمد عبدالله دراز

١ ـ كتاب دستور الأخلاق فى القرآن ط الأولى سنة ١٣٩٣ هـ / ١٣٧٣ م. تعريب وتحقيق وتعليق د. عبدالصبور شاهين . مؤسسة الرسالة .

٢ ـ الدين ـ بحوث مهداة لدراسة تاريخ الأديان ط ٢ ، سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م. دار القلم ـ الكويت .

٣ ـ نظرات فى الاسلام ـ الناشر دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٣٩٢ هـ .

٢٨ ـ راجح : أحمد عزت راجح

ـ كتاب أصول علم النفس ط ٩ سنة ١٩٧٣م.

٢٩ ـ الراغب : أبوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.

ـ كتاب المفردات فى غريب القرآن ـ تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى نشر المكتبة المرتضوية ـ طهران .

٣٠ ـ رضا : محمد رشيد رضا

ـ كتاب تفسير المنار " تفسير القرآن الحكيم " ط ٤ سنة ١٣٧٣ هـ دار المنار.

٣١ ـ الزمخشرى : محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

ـ كتاب الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ الناشر مصطفى البابى الحلبى بمصر.

٣٢ ـ الشاطبى : أبو اسحق ابراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى المالكى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ.

١ ـ الاعتصام ، المكتبة التجارية بمصر.

٢ ـ كتاب الموافقات فى أصول الشريعة ، ضبط وترقيم محمد عبدالله دراز ـ دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .

٣٣ــ شديد : محمد شديد
ــ كتاب منهج القرآن فى التربية ــ مؤسسة الرسالة .

٣٤ــ الشميبى : محمد مصطفى الشميبى
ــ كتاب مقالات فى علم النفس ط ٢ مكتبة النهضة المصرية .

٣٥ــ شلبى : د . أحمد شلبى
ــ كتاب المجتمع الاسلامى الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧ م
مكتبة النهضة المصرية .

٣٦ــ شلتوت : الأستاذ محمود شلتوت
١ ــ الاسلام عقيدة وشريعة .
٢ ــ منهج القرآن فى بناء المجتمع ــ مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

٣٧ــ الشنقيطى : محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى .
ــ كتاب أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن ــ مطبعة المدنى .

٣٨ــ الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى
المتوفى سنة ٥٤٨ هـ .
ــ كتاب الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلانى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٣٩ــ الشوكانى : محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .
١ــ كتاب فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .
٢ــ ارشاد الفحول الى تحقيق الحق فى علم الأصول ط / ١
مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٤٠ ــ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .
ــ كتاب تاريخ الرسل والملوك تحقيق أبو الفضل ابراهيم
ط ٢ دار المعارف بمصر

٤١ ــ العجلونى : اسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى المتوفى سنة ١١٦٢ هـ ·

ــ كتاب كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس · الطبعة الثالثة سنة ١٣٥١ دار احياء التراث العربى بيروت ·

٤٢ ــ عرجون : محمد الصادق عرجون

ــ كتاب الموسوعة فى سماحة الاسلام · الناشر مؤسسة سجل العرب بالقاهرة سنة ١٣٩٢ هـ ·

٤٣ ــ العقاد : عباس محمود العقاد

١ ــ الانسان فى القرآن الكريم ــ دار الاسلام بالقاهرة ·

٢ ــ الفلسفة القرآنية ــ دار العلوم للطباعة ·

٤٤ ــ العمارى : على حسن العمارى

ــ كتاب القران والطبائع النفسية · صادر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ·

٤٥ ــ الغزالى : الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ·

ــ كتاب احياء علوم الدين · المكتبة التجارية الكبرى بمصر ·

٤٦ ــ الغزالى : الأستاذ محمد الغزالى

١ ــ خلق المسلم ط ٧ سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م · دار الكتب الحديثة ·

٢ ــ نظرات فى القرآن ط ٢ سنة ١٩٦١ م / ١٣٨٠ هـ · دار الكتب الحديثة ·

٤٧ ــ الفاسى : علال الفاسى

ــ كتاب مقاصد الشريعة

٤٨ ــ الفيروزأبادى : مجد الدين الفيروزأبادى

ــ كتاب القاموس المحيط ط ٤ سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ·

٤٩ ـ الفيومي : أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ هـ .
ـ كتاب المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى
مطبعة مصطفى الحلبي بمصر .

٥٠ ـ القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ .
ـ كتاب الجامع لأحكام القرآن ط ٣ دار القلم سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

٥١ ـ القرضاوى : د. يوسف القرضاوى
١ ـ الايمان والحياة ط ١ ، الناشر الدار السعودية للنشر والتوزيع .
٢ ـ العبادة فى الاسلام ط ٢ ، دار الارشاد للطباعة والنشر بيروت .

٥٢ ـ قطب : سيد قطب
١ ـ فى ظلال القرآن ط ٧ سنة ١٣٩١ هـ سنة ١٩٧١ م ، دار المعرفة . بيروت .
٢ ـ هذا الدين سنة ١٩٧٠م .

٥٣ ـ قطب : محمد قطب
١ ـ الانسان بين المادية والاسلام ط ٤ بيروت .
٢ ـ منهج التربية الاسلامية ط ٢ دار دمشق للطباعة والنشر .

٥٤ ـ لوبون : د. غوستاف لوبون المستشرق الفرنسى
ـ حضارة العرب ط ٤ سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ترجمة عادل زعيتر . مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر .

٥٥ ـ مالك : الامام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ .
ـ الموطأ ـ مطبعة الشعب بالقاهرة .

٥٦ ـ الماوردى : على بن محمد بن حبيب المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .
ـ الأحكام السلطانية ط ٣ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٥٧ ـ محمد أمين : محمد أمين المصرى
ـ لمحات فى التربية . دار الفكر ط ٣ .

٥٨ ـ محمد عبده : الامام محمد عبده المصرى
ـ رسالة التوحيد . مطبعة المنار بالقاهرة . الناشر مكتبة القاهرة .

٥٩ ـ مسلم : الامام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى .
ـ صحيح مسلم تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى . دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى بمصر .

٦٠ ـ المودودى : أبو الأعلى المودودى
١ ـ تفسير سورة النور . دار الفكر .
٢ ـ مبادىء الاسلام .

٦١ ـ النجيحى : د . محمد لبيب النجيحى
ـ الأسس الاجتماعية للتربية ط مكتبة الأنجلو المصرية .

٦٢ ـ الندوى : السيد أبو الحسن على الحسينى الندوى .
ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط ٦ سنة ١٣٨٥ هـ ، دار الكاتب العربى . بيروت .

٦٣ ـ النسائى : الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .
ـ السنن " المجتبى " بشرح الحافظ السيوطى وحاشية الامام السندى ط الأولى سنة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م . المطبعة المصرية بالأزهر .

٦٤ ـ النووى : الحافظ أبو زكريا محى الدين يحيى بن شرف النووى ، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ .
١ ـ الأذكار وعليه مختصر شرح ابن علان ط الحلبى بالقاهرة .
٢ ـ شرح مسلم ط ٢ سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، دار الفكر بيروت .

٣ ـ المجموع شرح المهذب ـ مطبعة العاصمة بالقاهرة .

٦٥ ـ الهيثمي : الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ط / ٢ سنة ١٩٦٧ م ،
الناشر دار الكتاب . بيروت .

... ... ...

## محتويات الرسالة